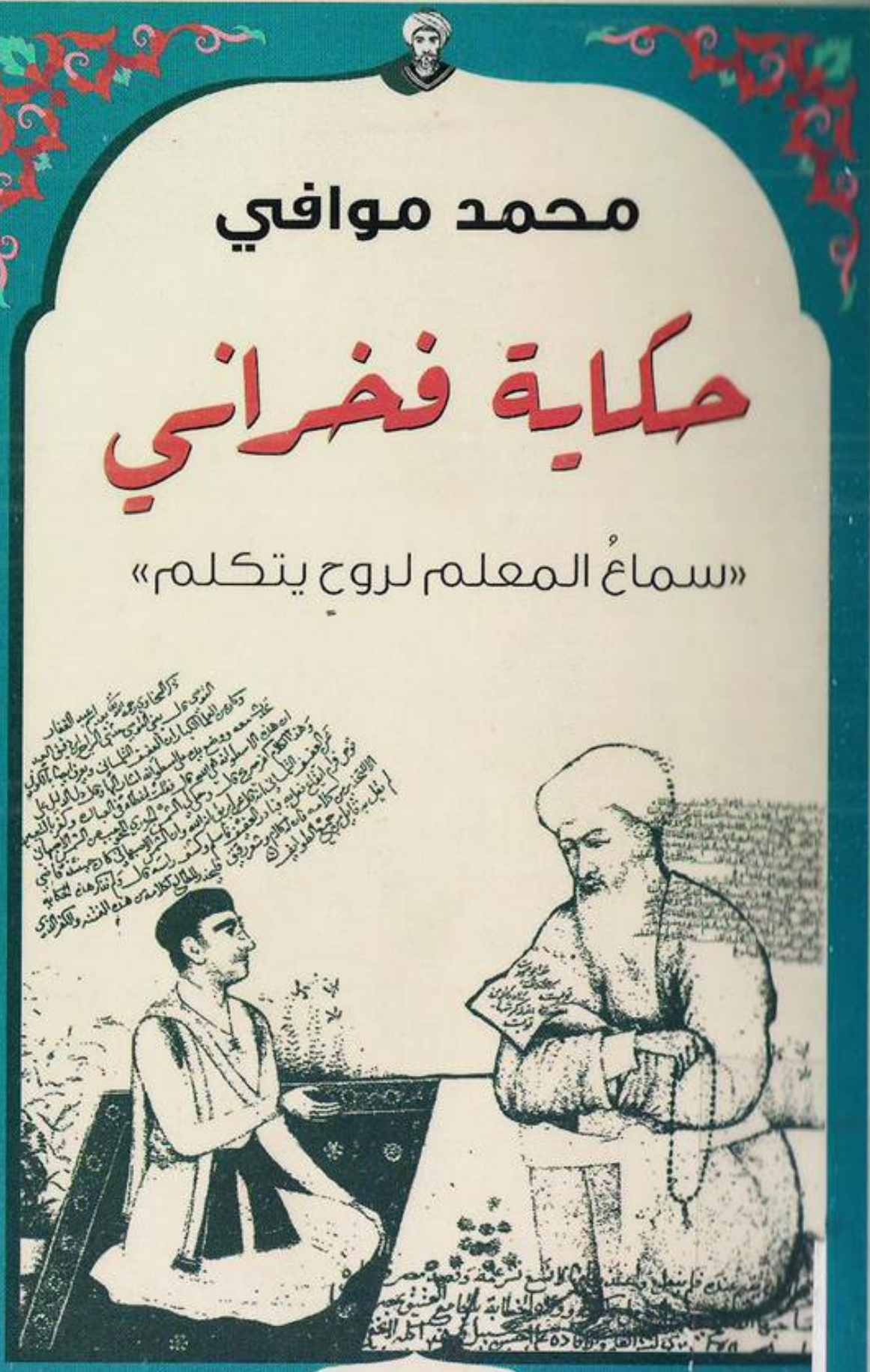

محمد موافي

حكاية فخراني

«سماعُ المعلم لروحٍ يتكلم»

دار الشروق

محمد موافي

حكاية فخراني

«سماعُ المعلم لروحٍ يتكلم»

إلى..

روح خَفّ لها جسدٌ، فعاف النومَ، ولم تألفه الأحقادُ..

مولاي..المعلم موافي..

أنامل الذهب، جبهة التجليات، ودولاب الحكايا،

قُلتَ: اقرأْ.

فلم أنم.

قلتَ: اكتُبْ.

ففاض ماؤك، وتمنى غلامُك لو كنتَ معه.

يرحمك الله..

«مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»

صحيح البخاري

«اعلمْ، أن مبنى هذا الطريقِ على التسليمِ والتصديق.
حتى قال بعضُ السادةِ القادة:
لا يبلغُ المرءُ دَرجةَ الحقيقةِ،
حتى يشهدَ فيه ألفُ صِدّيق بأنّه زنديق»..

التدبيرات الإلهية

المحتويات

بوابة صليب ١١

بوابة إشارات ٧٥

بوابة شهوة ١٠٠

بوابة قلب ١٤١

بوابة عبد الصمد ١٨٢

بوابة القُبّة ٢٤٥

بوابة الحياة ٢٨٨

بوابة صليب

وقِفَا بي على الطُّلولِ قليلًا　　　نتباكى بل أبكِ ممادهاني

لولا.. رغبتي في انتشال روحي ما أزحت عن أنفي كفي. أوقفت حركة لا إرادية لاتقاء غبار كثيف مظلم لا أكاد أرى فيه شيئا. همي إنقاذُ صديقي وإسعافُ نفسي به ومعه، بعد أن صرنا شيئا واحدا حزينا وسعيدا. وعلى الرغم من روائح عطن غطّت البيت القديم، فقد تسلل عطرٌ لروحي، فسكنَ وسكنتُ له، انتشلت الجسد المدفون مفزوعا على حياتي الجديدة.

من الظلام ينبعث نور، ومن التراب تُثمر حقيقة. صرخ الناس: «اتركوا الكافر المنتحر، جدير به أن يخلد في جهنم». وعبر التاريخ زعقوا: إنه لولا الجاهلية ما عُرف الإسلام. همست على خوف: بالله عليكم ساعدوا روح المسكين، يا ناس، لولا شكٌّ ما لاح إيمان، ولولا الغبار ما رأينا شعاعات الشمس، وبغير الدماء ما أدركنا قيمة المحبة واستمسكنا بالتسامح. لولا تراب ذلك الخراب ما ابتسمت لنا مسبحة المهدي. لولا الأحمر القاني الباطش بالصفحة، ما فتشنا عن نقطة ضوء. واكتشفنا معهم، ويالروعة ما اكتشفوه وأسروا به إلينا: أن الضوء، نقطتَه ونُكتتَه وكلّه، هو حقيقة مبعوثٍ برحمة، كائن تعامدت عليه شمس الحقيقة، فصار حقيقة الحقيقة، وعين الوجود ومصطفى المعبود. ذلك الذي علّمنا كيف نجد في الحزن فرحا، وفي الصخب محبة. فلماذا أنت متمسك بالحزن؟ إنه قد كتب على نفسه الرحمة، وإن السرور بك أولى. إنك اليوم تقرر أن تقف على قدميك مرة ثانية، مرةً جديدة.

وأنا أزيح عن وجهه التراب همستُ له ولي: لا يُخطئ من لم يُجرّب. كل حياة هي تجربة إنسانية كاملة. تقبّلْ أخطاءك، اعترِفْ بها، اشرب من حكايا الناس، وتداوى بالتاريخ. السعيد من يتأمل أخطاء غيره، وينهل من آبار تجاربهم. أنت سيد مصيرِك، فتحكمْ في دفة تفكيرك، وإلّا تحكمَتْ فيك ريحُ تفكيرٍ مُشتت، وبما يمليه شيطانٌ.

لا تخجل من عثراتك، عثراتك فيما مضى وأنت تتعلم المشي كانت مصدر بهجة لبيت كبير، بيت لم تبق فيه نافذة مفتوحة. افتح كل النوافذ، انظر، استنشق هواء يتموج بما يريد الكونُ منك، ويلتقي بما تريده أنت من كون سعيدٍ بالحديث إليك. إن عثراتنا مصابيحُ مُدلّاةٌ فوق الطريق. لو لم يُعانِ البشر من العثرات، ما قدموا لنا مصابيح الحكمة ومشاعل الفلسفات.

بصدقٍ أردد اليوم: إني أحب عثراتي وممتن لها، وسعيدٌ بكل ما كان.

سقطتُ وحاولت القيام، على قدر رغبتي يكون القيام، لا بقدر قوتي. من سبقني في الطريق لم يكن ذا ساقين أمضى، هو فقط امتلك رغبة حقيقية في المُضي. سقطتُ، فقمتُ، فتذكرت ما كان، فعطّرني ابتسام، وتوجني بخور يضوع بأرواح الرائعين. وعلمتُ أن لكل ما جرى سببا ولو غير منطقي. المبصرون لا يُرهقون أنفسهم بلعن الأسباب. هم يفكرون فيها، يتعلمون منها، ولا يلومون المُسبب. دنيا تنور لك طريقا، لتفتش عن الحب، فإن كنت لا تعرف الحب، فما يجديك شروق الشمس أو غروبها؟ لو ذقت عرفت. لو أنكرت؛ في وهمك استرحت. كل مصائبنا أساسها تشنج جاهل وسكوت متذوق. وبينهما خيط رفيع. بين تقبل كل الأشياء أو عدم تقبل شيء على الإطلاق خيط رفيع من محبة. بالمحبة تأتي حكاياتٌ ثلاثة،

مشتبكات ومفردات، متناثرات ومشتجرات. نورٌ وظلامٌ، جنونٌ وولاية. من أين أبدأ؟ والكل بالنهاية واحد والواحد مجموعُ الكُلِّ. هل أبدأُ بالحُكمِ على فخراني بسيطٍ أهملَه تاريخٌ يعشق الجنون؟ أم بالنقل من وثائقِ مؤرخين أقلامُهم مُلتصقةٌ بأسماعِهم، غيرِ مُنصفين في أغلبهم؟ أم لعل المبتدأ غير اللائق هو طرحُ سؤالِ الفتى الساخط قبل أن يقرر الرحيل:

لماذا قرر زينَ العابدين الانتحارَ؟

لا يقتلُ الشبابَ مثلُ شيئين: لا عمل ولا ظل حبيب. ومن منا لم يسأل مرة: هل للكون خالقٌ؟ أو يخاف من تفكيره هل (هو) موجودٌ؟ مسّتني رسالتُه بفزعٍ، ولَمَسَتْ داخلي اضطرابا عشتُ حياتي أستعيذ منه وأتجنبه، أمحوه من رأسي وأتجاهله. استلمتها، فأسرعت لبيت الفرنساوي، عَلّ ما لا يمكن علاجُه لم يحدثْ بعدُ.. وأما رسالة «زين العابدين المهدي» قبل قراره الانتحار فهذا نصها:

> «أعترف أن بحياتي شيئا من السرور، وختامها شرور. أولها نقش على حجر الرأس، ومنتهاها ارتجاج على حائط صُوّان. ميتا أعيش ومُفيقا أتخيل. وُلدت بشهادة ميلاد دُمغت بمِلّةٍ ودِين، صارت دَيْنا في عنقي. لستُ مدينا لأحد، بل أجزم أنني أنا الدائن، المظلوم من أبوين قضيا شهوة في دقائق بشرعية ما، وما ضرّهما لو كانا ناما سويا دونما عقد، وارتكبا الجريمة في صمت دون طبلٍ وزمر واحتفالٍ لبدء مأساتي. دقائق لذة خلّفت عقلا مشوها مأمورا بفرائضَ خمسٍ، مُسلسلًا بنفسٍ لوّامة، مترقبًا رضا إله عن كل خطواته، يعتقد أنه يترصده كلما أخطأ. كيف يُشبهنا في تربية أولادنا؟ كلما اقترفتُ ما صوروه خطيئةً، عاقبني. لو قبّلتُ فتاةً عابرةً، يُعتمني اكتئابٌ ويغمرني، لو ركبتها

تنغلق دنيا ويضيق رزق. قالوا لي: إنه رحيم؛ فما له يجلس لي على الواحدة؟ لي صديقٌ كسر ذِراعَ ابنتِه لأنها حطّمت صحنا رخيصا، بحجة أنه مرارا حذّرها وتكرارا، وأنها كبيرة بما يكفي لتنتبه وتُميِّزَ الصحَّ من الغلط. اقترفت الصغيرةُ خطأ فعاقبها أبوها بعدله وبغير إمهالٍ. ما أخطأتُ ودهمني عقابٌ.. قالوا لي: إنه عادل. فلماذا أخذني وعاقبني بأمور لم أقترفها؟ بل لصقها عباده العادلون الظالمون بي، وناموا بضمائر مرتاحة رحيبة بالانبساط، وأنا المظلوم لا أنام.

عشت حياةً قاربت ثلاثين خريفا، مقيدا مُعذّبا بسؤال: هل يُرضيه ما يرى؟ ومُضنًى بتخاريف، من قبيل أن دولة الظلم ساعة، ودولته إلى قيام الساعة. الساعةَ أقولُ لكم: إن هذا كلام فارغ وغير صحيح؛ فتاريخٌ لا يمكنكم مواجهته، وواقعٌ تسيرون عليه مُخدّرين بحشيشة الإيمان، ومستقبلٌ تعتقدون أنه في أيدٍ أمينة. كل أزمان لغتنا العربية الكاذبة بمترادفاتها تقول: إن الظلم دولته منذ الأزل هي للأبد. حتى دولة من قلتم: إنه رسولٌ من عنده، لم تستغرق غير سنوات عشر، دقيقة من نهار الزمن، ودول من تُقدسون من خلفائه هل استمرت أكثر من عقود ثلاثة؟

ثم ماذا؟ دُولُ ظلمٍ دائمة..فهل للحق دولة؟

حياتي عشتها مُكَبّلًا بفكرة «وجود الموجود»، مقيّدًا بحلٍّ هو المشكلة، سائرًا بما خُيِّل لي أنه إفاقة، هي عين التخدير. وسأظل أكررها حتى أفارق دنيا قبيحة إلى دنيا ظلمات لا ظلم فيها، فليس بها سوى أجساد تتحلل، وعظام تنتهي لتراب. حينما أصير ترابا فسوف أرتاح. ألم تقولوا لنا: «من التراب وإلى التراب نعود». صدق الشاعر:

أثبتَّ ربا تبتغي حلا بـه للمشكلات فكان أكبرَ مشكلِ

وأقول: يا «أنت» لماذا، إن كنت هناك أو هنا، تركتني لنفسي

ولم تصلح لي شأني؟ آهٍ كم دعوتك. كيف صِرتُ إلى ما إليه صِرتُ؟ كل يوم في نفس الشأن وعلى نفس الحال من الألم، وأنا في عنفوان عطائي، لا شيء يتقدم، كل يوم أتأخر. لا جديد غير سيئ منه إلى أسوأ. وتركتني، لماذا تركتني؟ لا رغبة في أي شيء، لا اشتهاء لطعام، ولا شهوة لجنسٍ كان قبل سنتين طويلتين مهربا للحزن، غيطا لنثر ذرات الأوجاع الأسبوعية، فأعود بعد حمام ساخن أقلّ حزنا وأطول اكتئابا، صار الهروب إليه جحيما لا تسبقه قيامة. ولا طاقة بي، ولا رغبة لي، ولا همة عندي. أقعد فلا أقوم، ثنايا أريكة الغرفة اللعينة أحفظها أكثر من حفظي لتغيرات وجهي الشاحب، وتفاصيل جنوني. كيف يُرضيك هذا العذابُ؟

لماذا أرى أحدا؟ لا أحد يستأهل نظرة. لا أحد يهتم لي وبي. الكل يتطور ويُماشي أيامًا تتغير. كل أصدقائي يبحثون عن موقع قدم في دولة جديدة، لا بد لها من علاقات جديدة. أما أنا، فلا أهمية لي ولا هِمّة، كلّما فكرتُ في الغد، لا أرى غير أنفاق من سواد مُشتد، ويشتد. لو دق الباب ارتعدتُ، لو انطفأ النور ارتعشت، كل خطر يسير نحوي، أنا هدف كل مصيبة. وأنت، من أنت يا «أنت»؟ قيل لي: إنك رب الخير والشر؛ فلماذا تؤثرني دون عبادك بالشر؟ ولا إحساس عندي بذنب. أنا لم أفعل شيئا يستحق سهما واحدا مما أنا فيه. الذنب الوحيد الذي يُلهب فراشي ويفترسني كل ساعة، هو خوفي على أبنائي، مع أني لم أُنجب بعد ولم أتزوج، فقط لأني مجنون أتهيبُ وجودهم وأرتعش لهم. ماذا سأترك لهم، بل ماذا سأقدم لهم لو بقيت بينهم ولهم؟ أأمنحهم عدوى حالتي السوداوية وعنادًا منكسرًا، ويقينًا بالاضطهاد، وهلاوس أعرف أنها ليست بهلاوس؟ أشخاص ينادون وأسمعهم، أبي الميت من عشرين

سنة، وأمي التي دفنتها بيدي في صيفٍ أصفر الرائحة، وشُبوحٌ تحوطني وطيوفٌ، فلا أغيب ولا أفيق. هل في زمانك يا صاحب الزمانِ ريحُ أملٍ؟ لو هناك ما هناك؟ فلماذا لم تهب نسائمُها على صلعتي المتآكلة كرَبع غير خصيب. هل بعد زماني لديك جنة أم جحيم؟ هل في ميزاني عندك حسنات؟ كمْ فعلتُ من حسنات! أم كفة السيئات راجحة كما شرور حياتي؟ هل من المبتدأ ثمة خبر عن جنة أو نار؟ كلها أخبار نُقلت إلينا، ولم يقل لنا واحد وحيد ممن مضوا أنه وجد شيئا.

وأما بعدُ، فبين عقيدة باتت مزعزعة وإلحاد، أقول لكم: إن بأصابعكم جميعا قطراتِ دمي. لا ألومكم، فأنتم بشرٌ من ماء وطين، لم ترتقوا حتى لدرجة فخّار طهرته نار. ويلٌ لكم من أنفسكم، كما كان لي منكم الويل. لم يقتلني أحد؛ بَيْدَ أن كل أحدٍ قتلني. فإذا مررت على جسدي، فلا تدّعي شفقةً، وامضِ مشمولا بلعناتي، فإنك ما شفقت لحالي حالَ حياتي، وما رأفْتَ. فلا معنى اليوم لحزنك وترحماتك وتنهداتك الكذوبة، امض لا عليك سلام. فالوحيد الذي لا ألومه هو أنا، وأنا الوحيد الذي يستحق الحياة، ويملك رفضها، أما أنتم فلا.

ماذا أفعل؟ ولا حيلة لي فيما جرى ويجري، ولا شيء إلا قبحٌ بكل مكان. تسعون يوما ولم أصل لشقفة آثار، أو قرش ذهب. كم منّيتُ نفسي بأن تحت أساس البيت الكئيب كنزا؛ فأنفقت مالي وحياتي وبقية جنوني وغروب عقلي، بلا عملٍ بعد أن فقدت الحبيب. ولم أجد غير تراب يُفضي لتراب. فإلى التراب أمضي.. ولا سلام.

زين العابدين المهدي.. مصر القديمة.. شتاء ١٩٧٩».

وأقول قبل اتهام جاهلٍ، وقبل دعوى قضائية يُدمنها أفّاقٌ باسم

الغيرة على الدين: إن الإيمان لا يُحسب بطول المواظبة على العبادات أو ترديد التسبيحات. أحيانا تكمن صلابة إيمانك في عدد مرّات شكك. سقوطنا يؤسس لقيام يتسم بالخبرة ويبني اليقين. وضد اليقين أن يكون المتسلحون بالإيمان غاضبين حاقدين، متشدقين كارهين، مُنفرين ومكفرين، وقتها لا تستحل دمَ من يتشكك في خطابك.

يا حضرة المتدين الحاقد، لا تلومن إلا نفسك. لشدُّ ما تتقزم القامات وتضيق العقول وتصغر، طالما انشغلت بالآخرين، مفتشة في قلوبهم عن الإيمان والكفر. العقول الكبيرة بحورٌ كبيرة تهتم بنفسها ولا تحقد على فروع أنهار تصطدم بها. لو انشغلت بقلبك، لما شغلتك عقائدُ مخفيةٌ في صدور الناس.

«*أيها الناس، إن منكم منفرين*».. الابتسامة أجر، والغضب أبو الشر. فطوبى لمن يلتمس العذر، ويجبر الكسر، ذلك الذي لا يُعرقله ارتباك، ولا يستخفه غرور.

مصر المحروسة صيف ١٨٢٦

في محنته تمنى أملًا. في أمله خاف حُلمًا. في حلمه قرر اختلاءً. لما اختلى اجتلى، فابتغى حلًّا وصادفته المشكلة. في اعتزاله طلب الأُنس فأضاءت طريقٌ، ثم أظلمت ثم أضاءت وأظلمت وما زالت، وما زال بين ضيائها والظلام. بعد اثنتي عشرة ليلة أدرك أو توهم أنه مهديٌّ ووَليٌّ، بل بلغ مما تلقاه أنه قطبُ زمانِه، وأن إعلان الحب جوهرُ الدين، وأن الإعذار خيرُ اعتبار، والإنذار فرضٌ قبل خرابِ الديار. وما الدنيا إلا خيالٌ فانٍ والآخرة حقيقةٌ وتاجُ الأماني، وأن الحق ما خلقنا إلا لنُسبحَ بحمدِه. بعد سبع عشرة ليلةً قضى نهارا شكّ فيه، تَشَكّكَ في نفسه وعقله، فتحسسَ جسدَه ليدركَ إن كان وجودُه حقيقةً،

أمْ هو طيفُ عين ذاتِ خيالٍ؟ فاحتار: هل هو مُختارٌ؟ أم بنفسه عطبٌ، وبعقله مسٌّ من جنون؟ إنه بقدر معرفتك، يشتد بؤسك.

ثم يأتي جنون، أو كمال شبه تام، حقيقة الخيال، وخيال الحقيقة. سِيرةٌ قدَرُها أن تُكتبَ بمديح وتُغلفَ بحرير وبديباج تُطرَّز، أو في الأغلب تُسرد على استحياء وتستحق ـ كما قيل ـ أن تُحرق هي وصاحبُها ومؤلفاتٌ بلغت عشرات وادّعت ما لم يجرؤ أحدٌ قبلها ولا بعدها أن يسير على شفرة مزاعمها الذابحة.. حكاية صعبة جدًّا ومُرهقة.

زمنٌ ما، ولا مكان..

«جاءني أنّ ثمة من يفتش عني ويبحث فيما رأيتُ وخلّفتُ. وما تركت إلا بتوفيقٍ من الله فالقِ الإصباحِ، جاعلِ الليلِ سكنًا والبرزخَ مهدَ انتقالٍ بين خيالٍ وحقيقةٍ. الحقيقةُ واضحةٌ كنورَ هذا الشروق. حيث صباحٌ منتشٍ بعافيةٍ، مفعمٌ ببهجةِ نورٍ، دائبٌ بكائنات الحياةِ، مبتسمٌ بذراتِ نسماتِ أسرارٍ ممزوجةٍ ببُخارِ مُحَايَاةٍ. ذاك الصباح خُيّل لي: أنْ سكنَ كونٌ لا يسكن ولا يستقر، وهل يصلح له أن يسكن أو يستقر؟ وأنا سكنني سكون، مع أن المسافة بين السماء والأرض عامرةٌ بالحركةِ والجنون، مضطربة تحت غماماتٍ كئيبة وبشائرَ وضيئةٍ. ويْحَ هؤلاء البشر، دنيا خيالٍ لا تتوقف آلتُها الحربيةُ والهدم، من ظَهْرِ خيلٍ لجوفِ دبّابة، من السيف إلى النار، إلى ما فاق حد تصور التدمير. دفعٌ بدفعٍ، وما زالت تسير بسنّة كونية مقدورة، وفي دائرة مُحكمة.

الشرق مهبط الأنبياء ومنبع الأولياء وساحة أُمهات المعارك. هنا جئتُ بعد سفرٍ طويلٍ أُجهدتُ به، وسَكِرتُ، فصحوتُ ولا نصب أو تعب. روائحُ تسبيحات كونية متداخلة عفوية. وكنت أرِفُّ على صفحة ماء شِبه هادئٍ حين سمعتهم يتكلمون. هل كانوا يتكلمون؟

لا مفردات، لا حروف، والكلام مفيد. الجميع يرف فوق الماء، وتوحي الاهتزازاتُ بما يُقال ولا يُقال.. من أنا؟

لا تتعجل بنيل إجابة سهلة كسلسلة جبال، عسيرة كانسياب نهر. وأنا لا أعرف من أنا، وليس ذلك من باب فلسفاتٍ انشغلتْ بها عقولٌ عرفْتُها ورافقتُها، ولا هو من بوابةِ تشتتٍ طالما غرق فيه البشر، ودخلوا إليها ولم يخرجوا، كعادتهم في كل تيه به يهيمون. الحق، أني لا أدرك كُنهي، ولست مؤهلا لأن أعرف سِري. سري قد يكون مرتبطا بين عناصر أشياء، ماء وتراب ونفخة هواء.

أردت أن أتحدث، لكن أي حديث يلزمه تعريف بالمتحدث، وما أنا إلا شِبهُ ظلٍ لاح في مِرآة، كانعكاس على وجه ماء. بين الحقيقة والعدم أسكن المحال، مثل طيف طاقة، صدى رنين، سر حياة، مكمن حاضر، وأثر ماضٍ. أصل إلى حيث أصل على جناحين من فجور وتقوى، وأَمَسُّ عقلا، فيرتجف ويهتدي أو يغوى، ويصطبغ بي.

قبل البدء، ليس لي من فَخَار، فما أنا إلا ساكنُ الفَخّار، في البدء كنت كلمة ونفخة، فسكنتُ طِينا، واختمر الطين فصار سكنا وألوانا من حيوات، ومسارح لسنابك خيل ومنازل حقٍّ وبيوتا للشيطان. بعد المبتدأ، كان نور وظلمة، وبينهما أقف أنا وإخواني؛ فمنا من يطير بلا جناحين في الضياء، ومنا من تغشاه الظلماتُ وتتغشاه، ومنا من يقف هنا ثم ينتقل لهناك، ويبقى أسيرَ نَوْسات إرادات بشرٍ مسيرة ومخيرة، ممنوحة عزما ومجبورة أيضًا.. بيني وبين إخواني تشابه وتنافر، وبيننا ما بيننا من تفجر طاقة وتموج ارتقاء. منا من يسكن فوق خد نهر عذب، وبعضنا يعشق اضطراب البحور، قِلةٌ منا ارتقت فشالت فوقنا، وارتفعت غماماتٍ مُنَدّاةً مثقلةً بالمحبة، وثُلة أخرى أقل قليلا لم تكتفِ بالارتفاع، فارتقت وعَلَتْ حتى سكنت حواصل طير جميل

شفّاف البطن، وراحت تطوف حول عرش مهيب فوق الماء، ويسكنها تدفق مُحاياة. فوقها ارتكنت مطمئنة، بعد أبلغ معاناة، جماعاتٌ من سعداء الحظ، هم مختارون ومصطفون وأخيار. يتوسطهم آخرهم الذي هو أولهم. كيف أصفه؟ وهو أضوأ من قمر مبتسم لإتمامه أربع عشرة. بسّام كنهر عذب يتدفق في جنة رضوان.

وفي صباح من ألف صباح بيوم عمل قصير، صادفت صاحبا فيه مني شبه، ويفصلنا أخذٌ للإرادات بقوة، وتمسنا من المياه قطرات مسكونة بالشوق لمن كان ولم يكن شيء معه ولا قبله. والحقيقة، أن عملنا تجاوز قديما مسيرة يوم، ولكن في تلك الأزمان الأخيرة، أطولنا عملا لا يتجاوز دوامُه ساعتين، وأكثرنا أقل كثيرًا. إن يوم العمل ألف سنة مما تعرفون، وتعدون وتُقومون.

ـ أنا، من أنا؟

ـ أنا سر إلهي، إن طلع فلا حياة، ثم بـ«كن» تبدأ حيواتٌ.

ـ أين أسكن لو طلعت؟

ـ بداية: أنا لي طلعتان، واحدة مؤقتة لا تتعدى ساعات من توقيتاتكم، ومرات قليلة امتدت لثلث يوم أو أقل من يوم الحق. ولي طلعة طويلة شاقة شاهقة صعبة ومرهقة، لا توصف. ولا عودة لأغلبنا نهائيا بعدها إلّا يوم التغابن. وربما بعضنا يعود، أو يتشابه، أو كما يُعبِّر بعضكم «يتناسخ».

ـ أين أسكن؟

ـ البرزخ، وقد تعددت تعريفاته وتنوعت، وهي مما خفي، ولو أردت تقريبه فلا أكاد أجد أقرب من وصف قلم صديقي: هو المسافة بين الحقيقة واللا حقيقة، بين العيان والخيال، بين الطين ونفخة في الطين، أنا أعيش في مرآة؛ لو راق لك التشبيه، لكن

مع فارق فاصل، أن صورة المرآة حقيقية، هي «أنا»، و«أنت»؟ ما أنت إلا خيال. أو ليس كل شيء إلا الحقيقة خيالا؟ الناس نيام وخيال، الحياة التي يدبون فيها والأشياء التي يمسكونها خيال، اللذة والعذاب، السعادة العابرة والمرارات السافرة خيال، «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، إذا انتبهوا عرفوا الحقيقة وذاقوها من باب ضيق مطمور».

«لا تنظر لمن قال، انظر ماذا قال».. الإمام علي..

وأما قبلُ؛ فحكاية بسيطة، وطنٌ مِثلُ «قُلّةِ فخّارٍ» فوق صينيةٍ تفوحُ بقطراتِ ماء ورد، ويُلونها نعناعٌ ويضوعُ. منتصبة سعيدة عند شُرفة بحرية، تُهبلنا قطراتُ نداها المرتشحةُ على جسمِها الجميلِ المنفوخ بأنامل فخراني طيِّب. نحزن لها والملحُ يصبغها بجيرٍ أبيض كلما جفّ النهر، أو بخل على قُلّتِنا بمائه. حكاية لصعيدي ليس له في السياسة غيرُ قناعته بأن «الذي بنى مصر في الأصل فخراني» ولذلك هي أم الدنيا، فحقيقتها حقيقة الخلق. أبلغ ما يعرفه عن الدين أن الله كريم لم يكلفنا إلا بما نستطيع، وأن الأمور مهما اشتدت فسوف تنفرج، ويصير نداها عَوْمًا. ليس له في الاقتصاد غير «خليها على الله»؛ فازدحم على مائدته فقراء وعصافير، وحلّت بركات.

الفخراني يخاف على الأرض، فمن طميها الأزرق الشديد يعجن طينته. وللطين أسرار، وإلاّ، فقلْ لي: لماذا اختاره الإله مادةً خاما لما صنعت يداه من بشر. البشر أنواع: منهم من يبحث عن السر، ومنهم من تزوره الأسرار وتبوح له بمكنونها في مناماته، فيبتسم في الصباح أو يُربكه تشاؤمٌ.

من يحتمل حمل الأسرار، ومن يقدر على توصيل رسالة في بلدٍ بُني على قاعدة الحذر والشك والحرص، قبل التدبير والرحمة والعدل؟

حينما بدأ صاحبُنا رحلتَه الثريةَ، الواقعيةَ أو الخياليةَ، الشاقةَ والمشوقةَ، البسيطةَ والفريدةَ، فكّر: كيف أن دنيا بلا روحٍ موتٌ وعَبَثٌ، وأن روحًا بلا حُبٍّ حياةٌ بلا ماء، وأن قَدَرَ الجاهلينَ الشيءَ نُكرانُه وعداوتُه. الإنسان عدو ما يجهل، وإن أول ما يجهله الإنسان هو الإنسان. وآمن أن الماء أساس الحياة، كما العدل أساس الملك. فكتم أنينا يتساءل: هل لدولة بدأت بالظلم وسفك الدماء دوام؟ لا دائم غير وجهه سبحانه، له في خلقه شؤونٌ، وله في تصاريفِ تدبيرِه حِكمةٌ، إن لم نعلمها، فلا أقل من الاعتبار مع يسير انتظار. ولماذا حقدٌ يغلب أهلَ الدين وشهوةٌ وعَمًى؟ فكتب بخط فنان: «هل جُبل الإنسان على إنكار الحقِ، بسبب الهوى المحض؟ أم أن الحقّ سبحانه أراد ذلك لإنفاذ سُنَنِه وإنزالِ أمره من أفلاكه؟» وتَحَيّر واضطرب، قبل أن تنطق كراريسُه، نقلا عن روحٍ يُملي عليه مفاتيحَ ما تنسخه يدُه، وبحسب ما فتح الله عليه من قراءة في سِفرٍ ضخمٍ غريبٍ عظيمٍ مُلغزٍ، وخطيرٍ:

«إنما اختلفت الشرائعُ لاختلافِ النِّسَبِ الإلهية، ودارَ الدَّوْرُ، فالعالمُ بستانٌ، سياجُه الدولةُ. الدولةُ سلطانٌ، تحجبه السُّنّة. السنة سياسةٌ، يسوسها الملكُ. الملكُ راعٍ، يعضده الجيشُ. الجيشُ أعوانٌ، يكفلهم المالُ. المال رزق، يجمعه الرعيةُ. الرعية عبيد، تعبدهم العدلُ. العدل مألوفٌ، فيه صلاح العالم. العالم بستان، سياجه الدولة. وهكذا تدور الدائرة، فالعالم كله مرتبط بعضه ببعض، أسباب ومسببات، وعلل ومعلولات».

وأنه: «إذا صلح الإمامُ صلحتِ الرعيةُ، وإذا فسدَ فَسَدَتْ، بذا جرت العادة وارتبطت الحكمة الإلهية. فالحاكم مجموع رعيته، فمتى خانهم فى أسرارهم وعقولهم ظهر ذلك عليهم، وإن اتقى الله فى ذلك ظهر ذلك عليهم. فمثلما تكونون يُوَلّ عليكم».

وحينما بدأ محمد علي باشا دولته، والأعيان ملتفون حوله، والشيوخ له مبتسمون، وبخصومه كافرون ولهم مُكفِّرون، أقسم أن يلتزم بالعدل والسيرة الحسنة. ثم قبل أن يتمكن منهم، تمسكن بين أيديهم، ثم بأيديهم مكّنوه من أياديهم، وهو ينوح على حال البلاد وفقر العباد قائلا: «إن كل شيء في البلد صار إلى الخراب». ثم أظهر من ناب البطش ما تكفل بتحقيق حلم دولة، بحساب التاريخ ووفقا لأعمار الأمم هي قصيرة، فما لبثت أن تلبست بالظلمات.

أما الزعيم المؤمن أنور السادات، فحينما بدأ حُكمه تعهد أمام الرفاق أن يُكمل مسيرة من كان قبله، وسكن ومكن حتى كان له ما كان، فانفتحت البلاد واختلط العباد، وأخرج تنينَ ماردِ دينِ الهوى من قُمقمه، فأكله التنينُ أولَ ما أكل. وراحت نارُ التنين تختصرُ أعداءَها في أصحابِ الروح، وروحٌ أمام نارٍ هي بين طريقين، لا رابع لهما، إذ الثالث الانتحار، والثاني الإقرار بواقع جاف، وأولاها: مواجهة طوفان نوح، وإعلان دولة الحب والروح.

ثم أما بعدُ؛ فكانت الصفحات الأولى من مخطوطٍ قديمٍ قد يُسَوِّيه صهدُ المطابع قريبا بعنوان «سماع المعلم لروحٍ يتكلم». وقد سنحت الفرصةُ لي ولمن أوقفني على بواباتِ الروايَة، وهو حفيدُ صاحبِ الحكاية، أن نقرأ سويًّا المخطوطَ دقيقَ الخطِّ بديعَ النقشِ، المُجلّدَ في ثلاثة كراريس، قبل أن يُهديه وارثُه بنفسه لأمين المجمع العلمي بالقاهرة. سعدنا بكثيرٍ مما جاء فيه، وفيه ما لا يُصدقه عاقلٌ، وما سوف يلعنُ أساسَه كلُّ كافر بالفلك وحساباته، وكيف لا يرفض قارئٌ ما جاء فيه، وفيه:

«قال لي كلاما مسجوعا، سحرني به وصرت فيه مأسورا وبه

موجوعا. وأخبرني عن أمورٍ عِظامٍ تكون، وحوادثَ مهيبةٍ تصير. شككت أول الأمر في الكلام، وأثبتته الجِنازة والوقائع. وخَوّفَني من جناية يدي على يدي. ما اطمأن قلبي لهول حقائقه. مصيبتنا غياب الحب، ومرضنا استغلال الخصوم لكتاب كريم حمّالٍ للأوجه، قال لي: «الخلاص في إعمال العقول، وإطلاق الروح من قيودها. فالإخلاص نجاة، وليس أخطر على الرؤوس من رغبة أو رهبة». كل ما أردته الوصول، وإبلاغ رسالةٍ لحامل أمانة، حتى لا تأتينا، بسبب المظالم، سنونٌ عِجاف؛ فنبكي، ووقتها: ولات حين ملام. نحن في خطر، على شفا الغرق، النجاة في رسالة العطار. فهل يُصلح العطارُ ما أفسد الدهرُ؟».

حدثني «زين» عن جده الأكبر الأول من آل المهدي، فتجمعت لديّ ثلاثُ رحلاتٍ فيها من الخيال الكثير، وبها من المُحال أيضًا، كما فيها مما قد تصدقه بعض العقول. الحكاية كما قدّمتُ وباختصار فيها روح. فأقول أنا الراوي، يا سادة يا كرام: إنه عبر بضعة قرون أخيرة ما أثار أحدٌ أعداءه كما فعل صاحبنا، ولم يختلف الناسُ كما اختلفوا فيه وعليه، إمّا له مطلقا، أو عليه أبدا.

يقول «ابن حجر العسقلاني» مؤلف لسان الميزان:

«عندي، أنه ما تعمد كذبا، لكن أثّرَتْ فيه تلك الخلواتُ والجوعُ فسادا وخيالا وطرفَ جنونٍ، وصنّفَ التصانيفَ في تصوف الفلاسفة وأهل الوحدة، فقال أشياء منكرةً، عَدّها طائفةٌ من العلماء مُروقا وزندقة، وعَدّها طائفةٌ أخرى من إشارات العارفين ورموز السالكين، وعَدّها طائفةٌ من مُتشابهِ القولِ، وأن ظاهرَها كفرٌ وضلالٌ، وباطنَها حقٌّ وعرفانٌ. وأنه صحيحٌ في نفسِه، كبيرُ القَدْر. وآخرون يقولون: قد قال هذا الباطل والضلال.

فمن الذي قال: إنه مات عليه؟

فالظاهر عندهم من حاله أنه رجع وتاب إلى الله. فإنه كان عالما بالآثار والسنن، قويّ المشاركة في العلوم، فيجوز أن يكونَ من أولياء الله، الذين اجتذبهم الحقُّ إلى جانبه عند الموت، وختم لهم بالحسنى».

وأكتب الآن بعد ما كان. فبعد قراءتي رسالة المنتحر، طويتُها، أسرعت من المعادي لمصر القديمة، حيث بيت الفرنساوي المهجور المسحور. كومات تراب تُضيق المدخل وتُزحم الفناء الفسيح، لا حس ولا صوت ولا حركة. قصدت الغرفة إياها، أبطأت من اندفاعي. الصدقُ، أني التبست بالخوف، فحكايا الغرفة لازمتني، وتوجُسي من أن أجد جثةَ منتحرٍ أربكني، والظلام يخيم على الموقف المريب. برأسي تطوف أشباحُ التاريخ وتتشظى خيالات الجغرافية. وأنا أردد: «لماذا يا زين؟». لقد أدخلتني عالما من الرؤى والحكايا، بدأنا من المعادي، وتعجبنا كيف اختارها المعلم متحديا نظريات الثكنات العسكرية والمدن المؤسسة على الحيطة والحذر. بدأنا الحكايةَ بالمحبة كما فعل جدُّك، فلماذا تختار النهاية السيئة لسيرة آل المهدي؟

قبل ذلك بشهور، عشرة الطاولة طالت. اللعب سخن والمشاريب زادت، وإنذار يتردد داخلي بأن آخر قطار ينقلني من محطة ماري جرجس إلى المعادي أمامه نصف ساعة. البردُ مغرٍ بالسهر ودخان شِيَش يتماوج طبلها مع أم كلثوم: «يا من يحار الفهمُ في قدرتك». لحظتها دخل زين في ملابس رثّة خفيفة، يحمل أوراقا وكراستين وغزالة لُعبة ابتلت من المطر. وضع أوراقه ولعبته بحنان على كرسي فارغ إلى جواري، طالبا أن أعتني بالغزالة لدقائق لحين عودته بطعام

لصديقه الحيوان، كما وصفه. ولم ينتظر ردا من أحد. غاب دقائق وعاد، فداعبه أحدهم: «لقد أطعمنا الغزال». فرح زين: «كثر الله خيرك». ضحك الجميع، انتهت العشرة وقمت لألحق بآخر قطار. توقفت متعجبا حينما أخرج أحدهم له عشرة قروش، فرفض. هل بكى وهو يقول: «لست شحاذا، أنا معي فلوس؟».. تدخلتُ، قلت: «إذن أقرضني خمسة قروش»، أخذت منه القروش الخمسة، شكرته. لا أعرف لماذا زهدت في مغادرة المقهى بعد ظهوره، طلبت له شايا، شكرني. أخرجت من جيبي ربع جنيه وقلت: أنا أخذت منك، فالأحرى ألا ترد يدي.

ـ مقابل كرمك سأنصحك.

ـ أرجوك.

ـ قبل أن تنام سامح الجميع. ابدأ بمن ظلمك، فتمنّ له الخير، وسلمها لله.

ـ أنت إنسان جميل.

ـ لا يغُرّك لساني، أنا منذ سنتين وأكثر أحاول ذلك، وما أزداد إلا حقدًا.

فيما تبقى من ليل استمعت لجانب من حكايته. الاكتشاف: أنه ابن ناس، سليل عائلة كريمة، ليس مجنونا، ربما مكتئب أو مجروح نفسيا. هش كزجاج شفّاف، مكسور كآلاف من شباب نسمع عنهم، كان شيئا ثم لم يجد شيئا كما كان. خرج للتو من مستشفى الأمراض العقلية. قبلها كان يتخيل أنه يملك الدنيا. مما قاله: «أنا نصف شيطان ونصف ملاك، نشأت في عائلة مشهورة بالتدين، ثم عشت حياتي، حشيش وبيرة، نسوان وسهرات. في ليلة سعيدة أو كئيبة جلست في الشرفة أشرب، صرت طينة، والطين يملأ الحواري والمطر لا يكف.

مشهد البرق أخافني، ارتعدت حينما انطلق صوت المؤذن بالفجر مع الرعد وأنا على تلك الحالة. هل ظهر في السماء ملك يزعق: «قُم قبل ألا تقوم». فقُمتُ، نزلت مسرعا مرتجفا مبتلا، رميت نفسي في الميضأة، اغتسلت بماء يكاد يتجمد، وهو على جسدي يغلي. بعد صلاة الفجر بكيت، قلت تُبت إليك، فاغسلني. ضحك زين وهو يقول: «المشكلة أنه غسلني ولا يزال..»، صرنا صديقين، ولم يكف يوما عن حكاية الكنز.

إذا أردت كسب صديق، فكن صديق نفسك، جرِّدها من كل شاغلة، وخاطبها أو خاطبك، ستكون صديقا لك، وتهبك الحياة أوفياء.

في آخر مرة التقيت بـ«زين» قبل أن تصلني رسالته وقراره بالانتحار، اتفقنا أن ننسى قصة كنز بيت الفرنساوي. قلت له وقتها: إن الكنزَ الحقيقيّ هو تدوينُ سيرةِ المعلم المهدي الفخراني منذ خروجه من أسيوط، وأن نقوم سويا بإحياء حضراته وقراءاته في كتاب الفتوحات المكية، لعلنا نصل إلى بعض ما ارتقى إليه من صفاء وسلام مع النفس ومع الدنيا كلها. يومها كان العام تسعة وسبعون عاما فارقا بامتياز في الدنيا كلها، وفارقا على صعيدي الشخصي؛ ففي هذا العام قُدر لي الاقترابُ من ابن عربي، وهو العام نفسه الذي رأى فيه زين العابدين النور بعد سنتين من ظلام الاتهام بالجنون قبل أن يقرر الانتحار. لكنّ الله سلّم، وما زال بعمره بقية.

وجدته بعد عناء في شبه غيبوبة، حبل يلف عنقه، ملقى في قاعٍ يخترق الأرض لمترين تقريبا، وبجواره زلعةٌ فخارٍ عتيقةٌ مكسورةً بها مِسبحة، والمخطوط العظيم يغطيه التراب وملفوف بالخيش والكِتّان. اكتشفت تلك الأشياء بعد أن استغثت ببعض المارة وحملنا زين ونقلناه لأقرب مستشفى غائبا بنبض خافت بين حياة وموت،

وكسر في الساق ورضوض، وغيبوبة قال الأطباء: إنهم لا يجدون لها تفسيرا منطقيا، ويأملون ألا تطول. همست في أذنه ولا أدري إن كان يسمعني: «افرح يا زين، بجوارك وجدت مسبحة المهدي وكتابا بخط يده. أعتقدُ أنه الكنز». لعله يجد في لا وعيه وعيا، أو تزوره حقيقةٌ في فضاءاتِ غيبوبته.

جلستُ إلى جوار الفتى الساخط بعد أن استرد كثيرًا من وعيه. لم أزد آلامه بعتاب ولوم، فمن منّا لم يقرر ذات مرة أن الموت خيرٌ من حياة لا سعادة فيها. أبشع البشر من يلاحقوننا بالملام، ولم يتعرضوا لرُبع ما عانينا وعاينّا، ينصحونك وأيديهم في الماء البارد، ويلومونك على جوعك وهم متخمون.

انتقلنا لبيتي. وعدته أن نعود لبيت الفرنساوي بمجرد إحساسه بالعافية، لكن علينا أن نفك طلاسم مخطوط جده البديع، وهي مسألة شاقة تستلزم مئات أكواب الشاي وشهورا من العمل والترميم. وأصر على أن أكتب على لسانه في بداية حكاية المخطوط وصاحبه هذه الكلمات:

«إذا رضيت؛ تباهيت بنسلي الشريف، وتفاخرت بأصلي الطيب، وحكيت سيرة المهدي الكبير رضي الله عنه. وإنْ أنا سخطت؛ لعنت نسلا وسلسالا يسكن بجذوره عفنُ الجنون، وكرهت ملاعين مخبولين أورثوني كل عاهاتهم النفسية. إذا شملتني سعة من بال هنيء ومال؛ فتشت عن كنز جدي، وسبحت في أمواج ما ترك، وغُصت في دروب الفلسفة والحكمة. أما إذا طال بي المُقام، حيث لا كلام غير تعليماتٍ مخالفتُها تعني عودةً للعباسية ولسعاتِ الكهرباء، وضاق بي الوقت والحال وأظلم البال؛ وجدتني مُضطرا لأحكي كل الحكاية في ورقتين. حياتي ورقتان، صفحات أربع، وصفعات كثيرة.

أنا زين العابدين بن أحمد بن محيي الدين بن حسن بن عبد الصمد بن المهدي. ورثت الحكمة كابرا عن كابر، وذقت الشفافية وراثا عن وراث، وصحبني الشك في العقل ناقلا عن ناقل. في هذه الساعة ملكت من وقتي الكثير، فقررت أن أسرُد حكاية اللعنة، لعل من يسردُ على مسامعي مئاتِ المواعظ من شيوخٍ جاهلين يسكت، ويعلم أن بضاعتَه محضُ هُراء. بعد كل تلك السنين التي اقتربت من المائتين، أقف اليوم كعدّاء استلم الراية من سابق، فارتاب فجأة: هل الرايةُ مزيفة. الخطابة أفيونٌ لشعوب لا تفهم جوهر الدين، والحكاية فيها «إنّ» نصبتني فوق تلك الطبلية، ورفعت رأسي حتى ألجأتها لحبلٍ مفتولٍ ومُحكمِ الأنشوطة المزدوجة، بما يكفي لدحرجة جسم يكره روحه، بعد أن جهله. لماذا نصيبنا من الحب القليل؟ لكنني سأبدأ بما كان من أمل، تحديا لما قد يكون من شرور».

اتفقنا على نشر الحكاية، فقرأ والعُهدة على ما بين يديه من مخطوط: أن جدّه كتب: «يُحكى يا سادة يا كرام، ولا يحلو كلام ولا يطيب إلا بذكر الحبيب، عليه الصلاة وأزكى السلام.. أنه كان أيام كان، وقت لم يعد شيءٌ كما كان، أن نُفِثَ في روعي من العجائبِ والغرائبِ ما التمستُ معه الأمان، وأوله ما جاء في المخطوط المُعَنْون:

«سماع المعلم لروح يتكلم»

أدينُ بدينِ الحبِّ أنّى توجهتْ ركائبُه فالحبُّ ديني وإيماني

مرة سألت مولانا الشيخ الأكبر، الإمام العامل، الراسخ الكامل، خاتم الأولياء الوارثين، برزخ البرازخ، محيي الحق والدين، رئيس المكاشفين، البحر الزاخر، نهر الحقائق، إمام المحققين، سلطان العارفين أبا عبد الله محمّد بن علي، الحاتمي الطائي قدّس الله

روحه، ونوّر ضريحه، سيدي محيي الدين بن عربي المرسي الأندلسي، عما جاء في ترجمان الأشواق، من لوعة واشتياق. قلت: إن الفهم يا مولاي قد أعياني، وحار فيما جاء به فهمي وتعطّل بياني، فكيف قلتَ عن دين الحب وحركة القلب؟

قال لي: اسمع ما جرى قبل ذلك الزمان بزمان، قلتُ ما قلت في مكة الشريفة، وروحي هائمة خفيفة تطير إلى مكان ولادتي ومحل نشأتي: فقد ولدتُ في مُرسية، ونشأت في إشبيلية. ويمكننا أن نبدأ في ذلك الصباح البعيد، وأراه قريبا، فالذي انتباني ساعتها محضُ ارتيابٍ في وجودي، أني مفقودٌ يفتشُ عن موجودٍ، وموجودٌ يسعى إلى مفقود. حالتي دائرةُ شكوك. أتحسس جسدي لأشعر أنّ الذي ألمسه الآن هو أنا. وأنا مجرد ذر حقير في كونٍ لا مدى له، لا تصور لحده، ولا حد لتصوره. سبّحتِ الجبالُ وأوّبت والطيرُ مع داود عليه السلام. ليتني حجرٌ في ذلك الجبل الذي يبدو لي ضئيلا جدًّا، بل أكثر مني ضآلةً لو نظرت إليه من محلي. في محلّي وفي هذا الشتاء، تعبر الطيرُ مهاجرةً للجنوب، في الجنوبِ نَسَبِي، في أقصى الشرق. هل تعرف الطير أني هنا؟ أم أن لكل منا شُغلَه الشاغلَ. الطيور لا شغل لها غير اهتبالِ دِفءٍ والتماسِ رزقٍ. أنا لا همّ لي غيرُ نوالِ يقينٍ. فهل اليقينُ سهلُ النَّوالِ، أم أن مُنتهاه عينُ المُحال؟ قيل لنا: «من طلب المُحال لا يحظى بنوال، وإن أَجَلَّ النوال ما وصل قبل السؤال». فهل تعجلتُ في سؤالي اليقينَ، أم أخطأتُ في ابتغائي المُحالَ؟

أهْذِي؟ أم السماوات على وشك انتشالي من سيري نحو مصيرٍ لم أخترْه؟ ووحدي أسير. مشى أبي والجمعُ، وتعمدت المكونَ خِلافهم، وانتشرتُ كنحلة في حديقة، إلى دروب غابةٍ تعرفني وأعرفها انسللتُ. صائد أنا، وربما أنا هدف لقنص أحاديث لا تغادرني. نفسي أسيرةٌ

وأَسِيرُ ورمحي وفرسي وعِدّة صيدٍ طيِّعة لا تعصاني. «قرمونة» الغابة المترامية، يُخيل لي أنني كوكب في فضاء فسيحٍ، أسيحُ في الوجود، ينتابني إحساسٌ رهيفٌ بأنني تائه، يفتش عن شيء ما، وأن هذا الشيء ذاته يراقبني، ويرتقبني عند ظل شجرة ما. عند شجرة ما أسندتُ ظهري، وعيني على جبل «سُحنون».

رمحي بيدي، وجعبة سهامي تثقل ظهري، بعد انطلاقات بغير هدى تستقر بي فرسي. قطيعٌ مكتمل يُهيأ إليّ من دعته أن لا غزالةَ واحدةً شردت عنه، يعبث بحياة هادئة، لا يدري وجودي وما أُمثله من خطر. فكيف يكون خطرٌ وسط أشجار سامقة ضاربة بجذور لم يغرسها بشر، ولم يسقها يوما ما بشرٌ. هل كانت تلك الأشجارُ قائمةً يوم كانت الأرض طِينا لازبًا، وآدم بين الماء والطين. قيل لي: إنه في الزمن السحيق، ارتقت النبوة بمحمد ﷺ، وما كان آدم ولا البشرية كلها بعدُ.

كان سكونٌ وما كان شيء، أرتعش بطُمأنينة تسري كحُمّى، وأنا غائب عن جسدي. الغزلان لا تراني، أو تُراها كذلك لا تشمني، أنفاسي منتظمة خافتة. لم أسع لذلك، بل ذلك كان من دون رغبة مني ولا قصد. فكيف إذن يستعد رمحي للانطلاق غِيلةً؟ ولم عليّ أن أصطاد غزالا آمنا مطمئنا؟ البشر سبب كل اضطراب على ظهر البسيطة!.. أأرميها برمحي؟ لا لن أفعل. سأترك نفسي. يا خالقي أنا في سماك طائر لا يوجه جناحيه، فقط يحركهما، وعلى رياحك قصدُه سواءَ السبيل. قررتُ ألا أقررَ، أن أسكت وألا أعكر صفو هذا الجمال المستكين. طمأنينة تنتشر في كل أوصالي، مُخَدَّرًا صرتُ ولا فاترا أُشربتُ، سكران ولا خمرُ، سأسكتُ. تميل الفرس كما تعودتْ لأن تعدو بصوب ذوات السيقان الأربع.. «لا عليكِ أن تفعلي يا صديقتي»

قلتُ للفرس، فمسحتْ سماءَنا غمامةٌ نديةٌ مُنداةٌ، زادت الطمأنينةَ طمأنينةً. رفعت واحدةٌ من الغزلان رأسها، لمحتني، رمقتني، انتبهتْ، لم تضطرب، كأن لا كدر يتلصص بها، أو باغيا يترقب. عينا غزال واسعتان التصقتا بحَجَرْي عيني، تسمرت العينان، ثمة اتصالٌ بيننا، لغة غير مسموعة، يفهمني الحيوان. هل أفهمه؟ سأجرب لو تكلمت إليه، واستمعت لإشاراته. ألم يفعل نبي الله سليمان مع النمل والطير والحيوان؟ ألم تشكُ الناقة إلى رسول الله ﷺ. ألم يتحسس ناقته؛ فعلم أنها مأمورة؟ بي من محبته ما لا تسعه مفردةُ المحبة.

سكتُّ، وتخاطبت عينانا، فتخاطرت أفكارنا. شعرت بأنه يقرأ ما في عيني من هدوء، هل سرى إليه هدوئي، فلم يتحرك؟ ولم لا؟ وكلنا خلقه تعالى، كلنا مأمور ومجبور ومسرورٌ لو ارتكن إليه. بخفة ضغطتْ رجلاي على بطن فرسي، فتمشت بين القطيع، ورمحي غير مشرعة. رمحي ساجدة إلى الأرض، أم تُراها راكعة؟ كل الجهات يأتيني منها ضوء هدوءٍ وخفوتُ طمأنينة. فهل ما جرى فعلا قد جرى؟ لقد مررت بين القطيع ويكاد ركابي يلامس جلد بعض الغزلان، وهي آنسة مستأنسة كجِراء تعرف رائحة صاحبها. بل إن سِنّ رمحي ينغزُ بعضَها على غير قصد مني، يقول لها: اطمئني، فلا تتحرك غزالة واحدة. إن طُمأنينة لمّا تملكتني؛ سَرَتْ مني فمسّتْ الحيوان الوديع، فعلم أني لا أقصد شرا، بل أنا مثله فَرِحٌ بالأمان. وبأمان غِبتُ عن القطيع، وبمحبة رمقتني حتى غادرتها ولم أغدر بها. مضيت أو مضت بي فرسي لا تُلوي على شيء حتى سكةٍ مُتربة معشوشبة، تأخذني لطرق معبدة في حواري مُرسية الحبيبة المصقولة بصخرٍ أسودَ مُنَدّى من قُبلة مطرٍ يلمسها فيُثيرها، ولا يُغرقها. ما الذي مسّني فارتويتُ، وما زلت ظمآن؟ ما البرودة التي لصقت بقلبي فأسكنته شوقا حاميا

لشيء ما لا أعرفه؟ أحيانا تكون أقرب أمانينا، تلك التي لا نُمسك بكُنهها، وأعظم أحلامنا، تلك التي لا تُوصف.

تُظلني رغم الغمام شمسٌ حانية، وغمام ينفش فوق قلبي ببياضه رغم ضوء نار لا تلسع. طول الطريق يزورني طيف حكايا نبي الله موسى، إذ رأى نارا. وكيف رعاك الله يا موسى؟ كيف هداك واصطفاك؟ رأيتَ يا موسى نارا، فخِلتَ أن ثمة هُدىً، ووعدتَ أهلك أنك راجع إليهم بجذوة نار تُشعل بها حطبا، فيُنعشُهم ضوء في صحراء موحشة بـ«طُوى» في ليلة قارسة البرد كليلتي التي أتهيأ وطريقي لدخولها. برد الغابة الأندلسية الشذية غيرُ بَرْدِ «طُوى»، أم كل برد يتشابه؟ فهل تشابه ما مسّني مع ما عاين موسى في حضرة مَنْ حِجَابُه نارٌ؟ تشطرني خمس كلمات لنبي الرحمة حفظتها قبل يومين: «إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه. يُرفع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل. حِجَابُه النارُ، لو كَشَفَه لأحرقتْ سُبحاتُ وجهِه ما انتهى إليه بصرُه من خَلْقِه».

يا من حجابُك نورٌ ونارٌ، كيف اصطفيت نبيَك موسى؟ كيف كافأته بعد إخلاصه في عقده مع شعيب؟ كيف ترك شعيبٌ ابنتَه تذهبُ في صُحبة رجل يبتغي الأمان؟ وهو مُطَارَدٌ أبدا، من مصر إلى مدين ومن مدين إلى مصر، في سيناء بـ«طُوى» ينتظره ما ينتظره على جبل الطور. خرج طائعا يُحركه شوق لأول أرض مس ترابَها جسدُه الطاهرُ، وأولِ ماءٍ ذاق حلاوتَه جوفُه، ثم سبح فوقه لا يبتل والماء يحمله، وحوله. يشغلني تأمل: هل علم موسى وقت سيره لمصر أنه مختار ومصطفى ومرسل إليه؟ أم حرّكته الأشواق، وساقته أمنيات الدنيا وأمانيها، وهي مُسيرة بيد القدر؟ موسى لم يلمح القدر، ولم يدر أن باعثه في رحلاته

يدٌ ليس له في مشيئتها يد. لكنه تحرك بغاية ظاهرة لهدف باطن لا يراه، ولا يراه غيره. ما نحن إلا مجموع قرارات لم نتخذها، وطريق طويلة نادتنا فسلكناها غير قاصدين.. ماذا يريد مني؟

شتاء يشل أطرافي، وسماء تحتجب متحفزة للبكاء، حلقي جاف وجبهتي مبتلة. ما لطريقٍ تحفظها الدابة باتت طويلة وهي لا ترقى لثلاثة أميال. جسدي يرتعش محموما. حزينا أمسيت بلا سببٍ أمسكه، حين بدا «منستير» (دير قديم) لم يطله غبار سنابك خيل الفاتحين من أجدادي. رغم بعض الأصوات التي لا تعرف من الدين غير قشوره، فإن الأجداد كانوا عظماء في تركهم كلا على دينه. دير «ويلفرد كولن» قائم يحكي ذكريات غزاة من الشمال، حتى وصل لغزاة من الجنوب. ويُحدثني باب الدير، يناديني أن أقرعه، أتردد، إن فعلتُ فلربما فزع أصحابه. هل يستغرب الرهبان، ويخافون منظري كصائد غزلان، قد لا يختلف في بعض أدواته عن عدة محارب عربي، وشكله؟

بعد قصير تفكير، وعميقه، قلت: أجرب بما تبقى معي من أمن داخلي، يزيدني حمّى وعطشا. خبطت ثلاثا، فتح لي راهبٌ طاعن في السن، يا لمهابة الشيخوخة، ابتسم دون سؤال مني أو كلمة. لا أدري إن كنت ألقيت عليه التحية؟ فكل ما أذكره: طيوف رهبان تحُفُّ بي، فأفقت نصف غائب، وغبت نصف مفيق. كانوا أحد عشر راهبا أو يزيدون، يتمتمون، سقوني دون طلب مني ماء رائقا، نضحوا قطرات على وجهي، ونَسّموه. من خلفهم راهبة شابة، شَقّتْ صَفّهم وتقدمت، فسطعت كقمر متشح بسواد يزينه وقارا، ويبعث في النفس لذة راحة. ناولتني كأسا، فشربت نبيذا طازجا، ارتبت: هل هو حرام؟ لكني شربت وما وجدت ضيرا فيما جاءني من غير سؤال.

ودّعتهم وما يزال ضوء ضيافتهم بقلبي، ولم لا وقد فتحتُ لهم

قلبي. ما بدا على فرسي انزعاج وقد جذبتها بلطف من عليق وُضع أمامها وماء. مضينا، ومضت بي المحبة والطمأنينة.. في رحلاتنا نزور أماكن لم نقصدها، وتقصدنا أماكن فنزورها.. الأرواح وما تختار.

تصورتُ أن فرسي مأمورة بغريزتها إلى البيت، لكنها مضت في غير طريقه، توقفت بي والشمس قد غربت عند البحر الصغير، يسميه أهل البلد: بحيرة «مانجا مارمينور». بقايا غروب جذبت روحي عند مائها المالح، لا كدر، ماء ساكن مُرتاح تُدغدغ صفحتَه الهادئةَ قطراتُ مطرٍ خجْلى، والأفق مُحمرّ، وأوصالي كما الأفق، واضطراب يهزني هزا لكنه لا يعكر صفو أماني. يا خالقي، ماذا بعثت من إشارات لهدف لا يزال غيبيا ومخفيا ومطويا ومطمورا؟

لم أبرح مكاني، وعلمت أن بقائي بما أشيل من حُمّى في هذا الليل المسكون بالبرد قاتلي، أو هو يكاد. بَيْدَ أني بقيت بين نومة ويقظة حتى لاحت تباشير شروق شمس الله فوق صفحة الماء اللامع، أفقت مع صوت مؤذن بعيد، فدلني بغير عناء لبيت من بيوت الله قريب. صليت الصبح مشمولا بعناية ركعته الثانية، لحقتها مع الجماعة، والإمام يقرأ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا﴾. كيف شملتني الآية برعايتها مرتين بين غروب وشروق؟ ومع الصباح دخلت بيتي منهكا، ارتميت على الفراش كصخرة دفعها شلال فأرادت أن تسقط مستقرة. مِتُّ، كدت أفيق، فمِتُّ ولا أفيق، ورحتُ، لا أدري أين رحتُ، ولا أين أنا؟ ولا كيف أنا؟ تحوطني شُبُوحٌ سوداء كريهة المنظر، تنوشني بعِصِيِّها وأسياخ من لهب، لا تكاد يطولني أذاها حتى يدفعها طيفٌ نورانيٌ، رمقتُه فكان بهيا، توجهت إليه:

ـ يا أنت، يا بهي الحسن ومدهش البهاء، يا أنت، من أنت؟

ـ أنا سورة يس، جئت أحوطك برعاية من ربي. فاذكره ولا تنسَ.

ـ لا إله إلا هو.
ـ جئت أُبرِزُك من ظلمة الغيب.
ـ وما ظلمة الغيب؟
ـ المفتاح الأول من مفاتيح الغيب، التي لا يعلمها إلا هُوَ، فانفرد سبحانه بعلمها، ونفى العلم عن كل ما سواه بها.
ـ بعضهم يقول: إنه ذهب فعَلِم من الغيب، بل قال: إنه اتحد في الذات.
ـ يحسبون أنهم يُحسنون صُنعا، هو قد أثبتك وأثبت غيرك، وأعلمك وأعلم غيرك، أنك وغيرك لستما «هو»، إذ لو كان أحدٌ «هو» كما يزعمون، لعلم مفاتح الغيب بذاته.
ـ لا إله إلا هو.
ـ اعلم أن أول مفتاح فتح به، مفتاح غيب الإنسان الكامل، الذي هو ظل الله في كل ما سوى الله، فأظهره من النَّفَس الرحماني الخارج من قلب القرآن، منِّي، سورة يس. هل تعرف ما «يس»؟
ـ قلب القرآن، مسكن الأقطاب.
ـ يس، ياءٌ وسين، نداء مرخم، أراد «يا سيد» فرخّم، كما قال: يا أبا هِر، أراد يا أبا هريرة، فأثبت له السيادة بهذا الاسم، وجعله مرخما للتسليم الذي تطلبه الرحمة، والقطع مما بقي منه في الغيب، الذي لا يمكن خروجه. فصورته في الغيب صورة الظل في شخص امتد عنه الظل، ألا ترى الشخص إذا امتد له ظل في الأرض، أليس له ظل في ذات الشخص الذي يقابله ذلك الظل الممتد؟ فذلك الظل القائم بذات الشخص المقابل للظل الممتد، ذلك هو الأمر الذي بقي من الإنسان، الذي هو ظل الله الممدود في الغيب، لا يمكن خروجه أبدا، وهو باطن

الظل الممتد. والظل الممدود هو الظاهر. فظاهر الإنسان ما امتد من الإنسان فظهر، وباطنه ما لم يفارق الغيب، فلا يعلم باطن الإنسان أبدا. ونسبة ظاهره إلى باطنه متصلة به، لا تفارقه طرفة عين، ولا يصح مفارقته. فهو في الظاهر غيب وفي الغيب ظاهر، له حكم ما ظهر عنه في الحركة والسكون. فإن تحرك تحرك بحق، وإن سكن سكن بحق، فلا غيب أكمل من غيب الإنسان. فلما أبرزه الله للوجود، أبرزه على الاستقامة، وأعطاه الرحمة، ففتح بها مغالق الأمور علوا وسفلا، فأمدّ الأمثال بذاته.

ـ إذن أنا مجرد ظل؟

ـ فانظر إذن أين يصل ظلُّك؟ وهو بمثابة همتك. واستمر في مناجاة ربّك، علّك تصل.

ـ زيديني يا سورة يس، أو زدني يا سيدي.

ـ اعلم، أن المناجَى هو الله، والمناجِي اسم فاعل هو العبد، والقرآن كلام الله، وكل كلامه طيب، وأن أختي «الفاتحة» لا بد منها، وهي منزل من المنازل من مائة وثلاثة عشر منزلا عند الله، والقرآن قد ثبت في الأخبار تفاضلُ سورة وآية بعضها على بعض في حق القارئ، بالنسبة لما لنا فيه من الأجر. وقد ورد أن آية الكرسي سيدة آي القرآن، لأنه ليس في القرآن آية يذكر الله فيها بين مضمر وظاهر في ستة عشر موضعا منها إلا آية الكرسي. هذا في الآيات.

ـ وأنت يا «يس».

ـ وأما أنا فتعدل تلاوتي قراءة القرآن عشر مرات، وأنا لما قُرئتُ له، فأنا معك الآن لإنقاذ روحك، ومحو شتاتك، بي يُدفعُ كلُّ سوءٍ، وتُقضى الحاجاتُ.

- أوصِني.
- إياك والغفلة، فهي مفسدة القلب، تُعطله عن وظيفته التي من أجلها خُلق ودبت به حياة. لو غفلت، مرت بك إشارات الهُدى ودلائله، وتمرُّ بها، فلا تُحسها ولا تقف عندها، مع أنك المقصود بها والمَعْنِيُّ ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.
- كيف؟
- الغفلة تُوحش قلبك وتُقسيه، فتصير مغلولا ممنوعا بعيدا عن النظر والبصيرة، مفصولا عن الهدى بالحواجز وسيوف من رأيت في منامك من شهوات وشياطين، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.
- أين السبيل؟
- سبيلك، فاجعله إلى منزل المنازل، الذي يجمع جميع المنازل التي تظهر في عالم الدنيا، من العرش إلى الثرى، وهو المسمى بالإمام المبين ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾، فقوله أَحْصَيْنَاهُ دليل على أنه ما أودع فيه إلا علوما متناهية، لا ينحصر لأحد عددها.
- زدني من نورك.
- انظر في الدنيا نظر الراحل عنها، المطالب بما نال منها. وإياك أن تخون من خانك، ولا تعتد على من اعتدى عليك، فإن ذلك أفضل لك عند الله. واعذر، ولا تعتذر، فإن اعتذارك يتضمن سوء ظنك بمن اعتذرت له. واتق الله في الحيوان.

أرى الشخص الجميل المهيب الرائع وأسمعه، فيما تتردد داخلي السورة القصيرة رغم آياتها الثلاثة والثمانين، إيقاعها السريع يُحفز

روحي، والفواصل القصيرة تمنحني وقفات ألتقط بها نَفَسي، وأجد معها نَفْسِي، ويَرِقُّ حِسِّي ويرتقي، وينطبع آثار الآيات العميق الدافئ المضيء. تصلني رسائل البعث، وإشارات النشور المتدفقة في السورة، كمجرى ماء في أرض مشتاقة للرِّي، وتلمع أمامي دقائق المشاهد، أرض ميتة ترتعش فتدب بها حياة، ليل ونهار، وشمس تجري، إي والله، لقد رأيتها تجري لمستقرها، بينما قمر يتدرج بين المنازل والأفلاك، فيرجع كالعرجون القديم، كعِذق النخلة مُقَوّسا هلالا.

هل أفقتُ بعد يوم وليلة؟ أم أكثر أو أقل قليلا؟ قال أبي: إنني شارفت الموت، وبدا على جبهتي المبتلة من تباشير عرق السكرات، وأن الطبيب الذي هرع إليّ احتار، وقف الجميع عاجزين: كيف يواجهون ما دب من خيال حقيقة الرحيل؟ حتى سمع أبي هاتفا يطن بأذنه، أن يقرأ على رأسي سورة يس.

استغرقتني الحُمّى ومرأى الغزال لا يفارقني، هل ظبي بانٍ سلبني روحي؛ فأسكرني بحُميّا سرٍ لا يظهر وإن أعلنته إعلانا. إعلانك الحبَّ فضيحةٌ عند من لا يعرف الحب، والحب أخوف ما أخاف على قلبي، وهو بغير الحب قلبٌ ميِّتٌ، ولا قيامة له. في القيامة موعد المحبين وميعاد المنكرين، فكيف لا أدين بدين الحب؟ وهو دين الأنبياء والرسل من لدن آدم وحتى حبيبي سيد المحبين، كيف لا؟ ولا «كيف» تسع وصف قلبه ﷺ المحب. أصيل ذاك المساء قال لي: أحبب، وحِبّ، واسبح في محبة نهر المحبة، وتمنى ألا تنجو، ففي نجاتك هلاكك، وفي هلاكك نجاتك.

أريد أن أقول لك: إنني منذ ذلك الحين وعقب أيام الصيد والحُمّى، رأيتني مأخوذا لطريق المحبة وسكة الحب. فحينما نقول: إننا ندين بدين الحب، فإننا لا نخترع دينا جديدا، بل نقصد قلب

دين الله العظيم، ويسكن قلبَنا ذلك الدينُ الحنيف. إن الدين عند الله الإسلام، وغاية بعثة حامل رسالة الدين كانت وستبقى صفة الرحمة الواسعة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، جاءنا بالرأفة والرحمة اللتين هما عُنصرا الحب، وأنا اخترت الحب، أو إن شئت الدقة والمباشرة، قد اختارني الحب.. يا صديقي، من قام بثيابه حريق كيف يسكن!

أعود من المخطوط إلى صاحبه وحكايته متعجبا: كيف يضع بشرٌ قالبَ طوبٍ معجونًا بالمحبة على مشارف ضاحية أو عاصمةٍ أسّسها مُستعمرٌ بفلسفة العسكر. لو خشي الجندي، أو شمّ رائحةَ ذعرِه الصفراءَ؛ جعَلَ من مسكنه قلعةً، وما إن يغتصب ما يستطيع من أرض وزرع وضرع وبشر أيضًا، ينام بنصف عين مفتوحة فوق صندوق ذخيرته. جُبل الإنسان على الظلم، من لا يظلم يُظلم، البشر يسكنون إذا ما اطمأنوا، وينامون إذا ما أمِنوا. لا عجب أن ضواحي عاصمتنا، كثير منها بُني على عقيدة عسكرية اعتنقها كلُ غازٍ أو فاتحٍ أو محتلٍ أو مغتصب، ومثلهم كل خائف من جريرة ظلمه.

عاد عمرو بن العاص من ثغر الإسكندرية، وكانت العاصمة، فخاف أن يعاود الرومُ الكَرّةَ من البحر، فنزل حيث نزل، وكما يقول التاريخ: أسند ظهره لسفح المقطم وقابل النيل مُطلّا على شاطئه الغربي، حيث الطريق من الإسكندرية وإليها.

توسع العمران، وتنوعت مذاهب الحُكّام وسياساتُهم، وبقي البناء على قواعد الأمن والاحتراز أساسا ثابتا، فوسّع ابن طولون الفسطاط وجعلها القطائع، وظهره متكئٌ على المقطم، الصخرة العظيمة المسلسلة كمسبحة عملاقة الحبّات من جبال وهضاب

متصلة حتى بوابة مصر الشرقية، وجعل النيل بينه وبين الآتين من الغرب والشمال. كل ضواحيها القديمة تمتد من الشرق للغرب وتُحاذر الجنوب والشمال. من الغرب جاء المعز لدين الله الفاطمي، فجعل نقطة اجتيازه النيلَ للفسطاط «جيزة»، واطمأن كسابقيه للمقطم، فبنى عاصمةً لم تزل.

ضاحيتنا ليست بعيدة عن ذات العقيدة العسكرية، فمن الجيزة تأتي المُعديات النيلية بالذخيرة القادمة من ميناء أبي قير لتستمر في تموينها الجنود الإنجليز في القاهرة وحتى السويس طريق الشام. الشام مطمع الفرنسي والعثماني، وعمق مصر الجغرافي والتاريخي والبشري. تنتهي القاهرة القديمة عند مشارف الفسطاط، وبحدود مصر عتيقة أو مصر القديمة كما يسمونها الآن ينتهي المصريون. إذن الأمن مع النيل في جنوب الفسطاط.

من فوق معدية ضخمة، لمح القائد البريطاني السفح المتفاوت في ارتفاعاته ممتدا حتى المقطم من جهته الجنوبية الشرقية، مساحات شاسعة مرتبة من سواد الأرض، وخضرة ناشئة تشيخ فتصفر سنابلَ ذهب، تغرفُ من سطوع شمس الرمال المتاخمة أو تتماهى معها، فتُباغتها بقبلة نضوج وتمنحها ريق استواء. ومنها تتعانق الرمال بالغابة الصخرية النائمة بحضن السفح، فتتراقص ألوان قوس قزح عند أفقه، ولا يدري الناظر كيف تختلط ألوان الزرع بالأرض بالجبل بالسماء. سهوبٌ مختلفة ألوانها، ولوحة ما أحاطت بها رسوم زيتية لفناني حملة الفرنسيس. اختار تلك المساحة الشاسعة ليسكن فوقها مطمئنا وسلاحه ومُؤنه وذخيرته وخدمه من عبيد خطفهم النخاسون من غابات مُدغلة مظلمة قرب خط الاستواء وحول شيخ الأنهار. وبدأ من قرية صغيرة فقيرة على شاطئ النهر ترسو على ساحلها

الضيق المراكب والمُعَدّيات، فسمّاها الناس وقتها «المعادي أو العدوية»، وبدأ في السكن على تخوم القرية، وجعل اسمها «برنجي آلاي الذخيرة» ويسكنها الجنود البريطانيون، وجنوبها في «طرة» سَمّى انتشارهم «كنجي آلاي» وخاف المصريون اقترابها لأنها الجبخانة، أي مخزن السلاح. يحمل ذخيرتها ويحرسها عبيد غلاظٌ شدادٌ، وكليل المذعور سود. ولم يجرؤ المصريون على الاقتراب من المنطقة العسكرية إلا في بدايات قرن فات بعد تقسيم أراضي المعادي واستيلاء شركة الدلتا للأراضي والاستثمار المملوكة لرجال أعمال أجانب ويهود مصريين.

من أسيوط بالمخطوط، جاء فخرانيٌ طيبٌ، حفِظَ كتابَ الله قبل سنين وهو ابنُ سبعِ سنين، وفي ليلةٍ لله ذُبح فيها عجلٌ منذورٌ، وأحياها كبار قراء الصعيد ومدّاحوه. أرهق أبوه نفسه وهو يتمايل مع الإنشاد يمنة ويسرة، فسقط من فرط لحم سمين ولم ينهض. فنهضت أمُّه بالرعاية، وقسمت وقت اليتيم بين شيوخ ملتصقين بأعمدة الجامع السيوطي، وبين دولاب فخار لأخواله. الطين اللزج مزج أصابعه بالخيال، فتهيأت لصياغة كلمات من خزف الطمي، مع رغبة في تدوين خواطر واصطياد إضاءات. أوتي من العلم الظاهر الكثيرَ على يدي شيخ أزهريٍ حلّ في ضيافة أهِله بأسيوط بعد انتفاضة الأزهر ضد الغازي الفرنسي، أشربه الأزهري العائدُ بالصعيدِ ألفيةَ ابن مالك وديوانَ الحماسة وصحيحَ البخاري وبضعَ كتبٍ أساسية، ثم قال له قبل فراق: «إننا نتعلم لنقيم أوَد العبادة، ولنعرف حدود حرام من حلال صار مختلطا في زمنٍ لا كرامة لمصري في مِصرِه. فيك نباهة لا تغفل عنها، ولك روح لا يُطيق جسدا».

ذكي، سريع البديهة وحاضر الخاطر، متين الجسد، طويل القامة، عريض الجبهة وصلبها. لم يؤذِ يوما ذبابة، وحليم. ينام أقل من حاجة البشر الطبيعيين ساعاتٍ بالكادِ تكفي حاجة جسد قوي، وعقلٍ لا يَكُفُّ عن جمع الشوارد وربط الأبعاد. يعمل في النهار ويواصل دروسه قبيل المغرب، وفي الليل يعتكف مُنكبا على كُتبٍ ينسخها لنفسه أو بالأجر القليل لمن يطلب، وهم قليلون في ذلك الزمان. كل كتاب ينسخه، يلخص لنفسه أهم ما فيه، ويُسطر أسفله هوامش لخواطره.

جاءته نسخة من سِفر ضخم، ولم يكن بالديار المصرية وقتها غير مطبعة واحدة، وهي حِكر على الحكومة في المحروسة. طُلِبَ منه نسخُه مرة أو اثنتين بحسب استطاعته، مع أجر مُغرٍ وجزيل، وجزيلة أحزان ابن الأعوام السبعة عشر. لما ماتت أُمه شعر بأن سقفا حنونا تُبطنه الابتسامات هوى، بلا غطاء صار في العراء، كلما جلس ينسخ، ترك ما هو مقرر، وكتب لها رسائل محشوة بالحنين ومكبوتة بالأنين، وبالدمع مصبوغة.

به لم تعد همة لشيء، ورأى أن المخطوط الضخم بين يديه هو كنز جليل، لا يصلح معه غير التفرغ من الحزن، والتمهل في القراءة قبل التورط في الكتابة. ما فيه غريب، ومريب، وفوق فهمه أيضًا، لكنه جديد على عتاقةِ حبرِه. سِفرٌ أشبه برحلة سَفر مستمرة لا تستقر، جُمَل متلاصقة، بالكاد يفصل بين الصفحات «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم أبيات شعر استهلالا قبل الغوص فيما يريد مؤلف عميق صاحب رموز وألغاز وإعجاز وإشارات، وعبارات لم يأتِ بها أحد غيره.. بدا له أن الكتاب مخطوط بلغة فريدة، ومسطور بتراكيب معقدة لا تتضح بغير عناء. واستغرق ثمانية أشهر في مطالعته، ثم مكث مثلها أو يزيد في كتابة نسختين، واحدة له والثانية لصاحبها القادم بتجارته

من الشام، وهي بتوقيع خط شخص يُسمّى «صدر الدين القونوي». ما أكثر النسّاخين وما أقل الأمناء، والأقل قليلا من لا يكتفون بحال حمل الأسفار، بل يغوصون بها في أعماق الأرواح.

أحس أن روحه بدأ في انتشال نفسه من دوامة الأحزان، لا حزن يفوق فقد الأم، اللهم إلا فقد الأم ابنَها. بعد طوفان أحزانٍ قررت الدنيا أن تهش في وجهه من جديد. توافر لديه من المال ما يقيم صُلب زواج، ورُتِّبَ عُرسٌ على ابنة عمته، وتطور في صنعته بقدر ما تقدم في كسب علومه. أنامله رشيقة قوية كشلالِ طاقةٍ بالنهار فوق دولابه الدائر، وطويلة منسابة كنهر حنين بالليل. يقول: «بدأت انبعاثات الروح من جديد»، فترد سُنّةُ الدنيا: «إنها دنيا، تجيد إخفاء البلايا، ولا تسمح لها بالظهور إلا في دفء ليالي الصفو».

طموحات الحُكام تُدمن ركوب ظهور المحكومين خاصة البسطاء، أولئك الذين لا يعنيهم من يسكن القلعة ولا من راح وجاء. فحينما تولّى «محمد علي القولي» حُكْمَ البلادِ، ودانت له بالزيف والسيف رقابُ العباد، قال في المشايخ والأعيان: «كل شيء قد فسد، إن البلد في خراب، وأمامنا مسيرة من الإصلاح»، فاستبشروا خيرا.. كيف استبشروا خيرا، والحاكم الجديد يبدأ بكلمة «خراب»؟ وكيف ظل أكثرهم على حالتهم المستبشرة، بينما كل الأراضي في ذلك العهد، كما كل زمن، لا يملك مصري منها إلا قليلا؟ المشايخ يحكم عليهم الواقع بأنهم بشر يصيبون ويخطئون. العَوَرُ في عيوننا لأننا نعاملهم كملائكة معصومين. الطمع في كل النفوس إلا من رحم الله، والأرض كلها لله، وكل والٍ هو ظل الله في الأرض، فيبسط الظلُّ سلطانه فوق كل شيء. ومن سلطان الوالي الجديد أو ظل الإله،

أنه ألغى الملكيات القديمة، ونشط فأضاف الكثير للرقعة الزراعية، وجعل كل شيء بيده، وفرض نظام التزام جديدا. ظَلَمَ وبَغَى وطغَى لكنه توسع، وقسى بَيْدَ أنه شيّد وبنى. كما كل دول بلادنا، لا بد من القسوة حتى المفرطة منها في البداية، وبالنهاية ينسى الناس كل شيء. يقول متفلسف شغوف بدراسة البشر: «إن المصري له ذاكرة حديثة كالهرم الأكبر، وقديمة كما رأس سمكة». وبعد أن قضى بائع الدخان على كل خصومه من مماليك وشيوخ أزهريين، انتقلت بوصلة تجارة تبغه للأراضي، فنهب ونزع ما كان بأيدي ملتزمين ويزرعها الفلاحون ويدفعون عنها ضرائب غير معروفة ولا دورية، بل هي بحسب طمع كل سيد، وفي كل وقت ومِزاجية. إنه زمن التبغ.

ألغى الوالي الجديد أغلب العلاقات بينه وبين الفلاح، فصار المصري يزرع له مباشرة، ومباشرة يورد لحكومته الضرائب المتصاعدة. الوالي الجديد مالك كل الفدادين، إلا بعض مساحات أسماها «وِسِيّات» أو أطيان الوسية، تعويضا لبعض كبار الملتزمين ممن صدق له ولاؤهم. بينما سيثبت التاريخ، أن الوالي الداهية لم يكن يثق في أحد، حتى أبنائه. والمشايخ ساعدوه وثابروا إلى جواره وصبروا. ومن أعان ظالما سُلِّط عليه، فنزع محمد علي أطيانهم الموقوفة على الزوايا، فهو كما قلنا «ظل الإله»، ومضى الظل يُمعن في السُّخرة الفاعلة تحت قيظ الشمس، فالعمل الإجباري مقابل قرش صاغ، ويُبقي حق الانتفاع في بعض الأراضي مقابل المداومة في دفع الضرائب، مع أحقية الحكومة في نزع ما تشاء وقتما تشاء ولأي سبب تشاء، الإله لا يُسأل عمّا يفعل، كذا صور شيوخ مكررون عبر التواريخ أن ظل الإله معصوم، ولا يُراجع في مشيئته.

وأما الانتفاع في الأراضي، فتقرر أن يصير قاصرا على المنتفع

مدى حياته، فإذا مات لا حق لعقبه فيه، إلا بقدر ما يؤذن مشايخ البلاد ومديروها من استمرار ذلك على سبيل المنحة والإنعام. صار الفلاحون أنعاما لا كلمة لهم، ولا يؤذن لهم. يقول المؤرخون الأجانب ممن شهدوا عيانا وتركوا بيانا: «نظام جديد قاسٍ ينشر الأحزان في العائلات».

حتى التاريخ قد يتواطأ أحيانا، فيُهمل تدوين الظلم ويهتم بالإصلاحات والإنجازات، وتستقر دولٌ في بدايتها، ثم لا تتعدى بدايتَها. فقد مكّن النظام الجديد من تنظيم الزراعة على أساليب حديثة نسبيا، وأدخل حاصلات زراعية لم تكن موجودة بالمحروسة من قبل، فحدثت نهضة زراعية أتبعتها الصناعة والتعدين والجيش والتعليم..في كل دروب التاريخ لن تصادف دولا تعلو بينما أهلها يتدنون ويغرقون في البلايا إلا في مصر، تقدمت الزراعة وساء حال الفلاح. هجر كثيرون أراضيهم، زحفوا باتجاه القاهرة عاملين باليومية في أي مهنة، أو من استطاع منهم هاجر من مصر نهائيا باتجاه الشام. تقدمت الصناعة وقاسى الصنايعية الأمَرّيْن، تقدمت التجارة وذاق التُّجار مرارة المكوس، فمكث الصغار في بيوتهم وانتشى الكبار. يقول مؤرخ فرنساوي وصديق لمحمد علي: «إذا صح أنه لا يوجد في العالم بلاد أغنى من مصر من الوجهة الزراعية، فليس ثمة بلاد أخرى أتعس منها سكانا. واذا بقي فيها العدد الذي بها من السكان سنة ألف وثمانمائة واثنتين وثلاثين، فالفضل في ذلك إنما يرجع الى خصوبة أرضها وقناعة فلاحيها».

في ذلك العهد نشب بثياب الصعيد مخلبان من نار أنضجا أجساد المصريين بقدر ما جرّحا فيها، والمحصلة الدائمة التي يدركها الصعيدي عبر التاريخ تصبح لباس جوع وأغاني غربة. لا أحد غنّى

للغربة كصعيدي، الجنوبيون يحملون لهجاتهم في داخلهم، يكتمونها فيُرغون رغي الناس، لكنها لهجة تنفجر ساعة الكرامة، وتهدر في ليالي أغنيات الاشتياق، وتذبح القلوب في صباحات فقد الأحباب.

لغير سبب غير الطمع تعنّت شيخ البلد في منح الفتى أرضه، أو أرض الوالي التي أجازها لأهله، وقد بلغ من الرشد ما يشهد به الجميع، بل طُولب بضرائب متأخرة لا ينفع عِوضا عنها غير الجلد أمام باقي الفلاحين. دفع كل ما يملك اتقاء للفضيحة والذل، قال: «يا رب سلِّم». تسليمه قد يكون من بوابة ضيق ضيقة، ولكي تُحكم كُربةٌ عُقدتها، فقد طلبه العسكر يؤمهم شيخ البلد يطلبونه للتجنيد، مفردة ظلت غريبة لعقود وربما لقرون على المصريين. الجيش للأسياد من مماليك وجراكسة. ولم تكن بلية تنقص الناس غير قرار الوالي محمد علي باشا تجنيد المصريين، بعد حذر من بقايا المماليك وقلة في الجراكسة، ورغبة الحاكم الطموح في إضافة صنف جديد متناسل متكاثر إلى جوار السودان والعُربان. فأرسل بائع الدخان ضابطه الفرنساوي «سيف» إلى الصعيد، ورفض الناس. أحدٌ لم يتخيل أن يترك أرضه وزرعه وليالي شعرائه القوّالين الجوّالين لينخرط في صفوف جيش نظامي، يحشد معاني السُّخرة والعبودية والهجرة، والمزيد من الذل.

وتجتمع بلايا الحاكم فتشمل المحكومين، والمصائب شريرة جبانة، تخاف أن تأتي منفردة، فتجتمع لتستقوي على المساكين. وأما الوالي فقد مرِض جنوده من أتراك وألبان وسودان وعُربان في حملاته باتجاه الجنوب حيث منابع النيل. أصيبوا بالدوسنتاريا وبأمراض أخرى غريبة وخطيرة فتذمروا، وطالب الناجون بالعودة للديار. واضطر الباشا لما ظل سنوات ينكره ويكرهه ويدفعه عن خاطره!

فهو لا يأمن المصريين، خاصة الصعايدة، ثم إنه بتجنيد الفلاحين قد تتأثر الرقعة الزراعية وتنهار الحاصلات، كما أن أولئك المصريين العبيد لم يألفوا خدمة عسكرية، ظلوا لعقود وعهود مطرودين منها وبعيدين. وأقدم الوالي على مغامرة ستغير كل تاريخ ما بعد ذلك، مغامرة خطيرة. بدأ ذلك قبل سنوات بأمر إلى أحمد باشا طاهر مدير مديرية جرجا لتجنيد أربعة آلاف مصري لمحاربة الوهابيين. ولكل والٍ كلاب من الخول (الخدم) يشير إليهم، يلهثون لخدمته، فانطلق الوعاظ والمشايخ يقنعون أهل الصعيد بالتجنيد ساردين عليهم آيات الحض على الجهاد، ومبشرين بجنات عرضها السموات والأرض، ومحفزين الناس على قتال أعداء الوالي الذي هو ظل الله في الأرض. بل تطوع بعض المشايخ وذكّروا الصعايدة بأيام الحملة الفرنساوية، وكيف استعان نابليون بجيش من المسيحيين المصريين، فكيف إذن يكون حال المسلمين وعقيدتهم للقتال تحت راية حاكم اختاره الأشراف وسانده شيوخ الأزهر الشريف؟

ملحوظة قديمة تقول: لو أن الناس على دين ملوكهم، فما بالك برموز ذلك الدين؟

امتلأت الحواري وضجّت الأسواق بفصائل جند هادرة بالطبول، في أوشحة براقة وملابس لا يسع خيالُ الفلاحين ملمسَها، ينادون في الناس لحمل شرف الجندية وطاعة ولي الأمر من أجل قتال العصاة والخارجين والخوارج واليونان والروس. ولا يعرف المصريون ما الروس ولا غيرهم، غير أنهم لا يخفون دهشتهم من أُبهة فصيلة جندٍ مبرقشي الثياب فوق خيول مطهمة، يتقدمهم قائد في عباءة قرمزية وردية مطرزة، وعلى كاهله ترتكن جواهر ويتمايل شال ثمين لامع.. حليق ذو شارب مفتول منمق أشقر، كأن وجهه لم يصادف

يوما في دنيا الله شمسا صاهرة. تسير زفة الجند بطبلها وخيلها فلا تلتقط متطوعا وحيدا من مغاغة وحتى أسوان. إغراء الذهب والمنابر والحرير باء بالفشل، ولم يتبق غير سيف يرهبه الناس، وسوطٍ يألف ظهورهم. فتفنن المصريون في أشكال الهروب أو «السحب» بعُرف أبجديات الزمن.

ويتذكر المعلم المهدي، أنه وهو صغير كيف انتفض الصعيد بأكمله، كما يحكي أخواله، وتمرد ضد الوالي بقيادة «الشيخ رضوان» الذي أعلن أنه المهدي المنتظر، وأن محمد علي كافر، وأتبعه الصعيدُ الحانقُ على ظلم لا ينقصه غير ذلة تجنيد. وجرت فتن عظيمة، وأُبيدت قرى بكاملها، أُعدِم خمسون من الفلاحين أمام من حضر وسيق بالكرباج لمشهد مذبحة تركت آثارها في النفوس إلى ما شاء الله من زمن. ويذكر المهووسون بعلم الاجتماع، أن المشهد العظيم بثّ في النفوس عقيدة جديدة، وإن بدأت ضعيفة لكنها استمرت، وهي أن التمرغ في الميري سبيل نجاة. فبعد قتل محمد علي لمئات الصعايدة الرافضين والمتمردين، انضم إليه بعض ضعاف النفوس من فلاحين عصرَهم الجوع، وهصرهم الخوف، وشاركوه في وأد الفتنة وقتل فلاحين آخرين، فلاحين مثلهم تماما. بل يحكون: أن جنديا مصريا فلاحا صعيديا في «آلاي عثمان بك» قتل أباه عندما رآه مع المتمردين، ففرح به الباشا جدًّا ورقاه من جاويش إلي رتبة ملازم. المصري مع من غلب.

بدأ التجنيد بضم ذوي العاهات غير المُعطلة أو المشوهين، ثم وصل للأصحاء. والمصريون في ذلك العهد كعهود سبقته وعهود سوف تتلوه، ما هم غير دهماء عوام أقرب للعبيد، أو «مصري خرسيس خسيس». فلم يكن بدٌّ من الوحشية المفرطة في سَوْقِ العشرات لـ«آلاي» الجيش الجديد، من يرفض يُضرب أمام الجميع ويُهان. لكن الغضب استمر،

في منفلوط احْمَرّ، وكحبات رمانها انفرط. ثار الناس ضد التجنيد، فُجن جنون رُسل الوالي بالقلعة، وأخمدوا تمردا رأوه غريبا على طبيعة الناس، وحددوا رءوس الفتنة في قرى كثيرة. أوقفوا المئات، وقتلوا عشرات، منهم شقيق الفخراني الوحيد، ولم يكن له في الفتنة سعي. لجأ الفتى إلى أخواله في «الغنايم»، بعد أن سجلوا اسمه مرتين، مرة كمطلوب للتجنيد، والثانية كمجرم هارب من آداء الواجب واستلام الشرف، وقبلها شهد عليه كثيرون بأنهم رأوه غاضبا يطالب بأرضه من شيخ البلد. ولم يعد التمرد مُجديا، فلجأ الناس للهجرات. انسحب الشباب لرءوس الجبال، أضحت قرى كاملة مهجورة. وكلّف محمد علي العربان والهوارة والطحاوية وغيرهم بمطاردة المتسحبين الفارين، وباتت أكبر مهمات شيوخ البلد القبض عليهم، وأعلنت الحكومة مطاردتهم حتى القاهرة وجلب الجميع للعقاب.

ولاحتواء الموقف وإحصاء الناس أصدرت الحكومة بمعرفة شيوخ البلاد «تذكرة شخصية» لكل فلاح ليسهل التعرف على الأشخاص. وأبدع المصري في الهروب، فيحكون أن امرأة صعيدية بترت إصبع ولدها الوحيد اتقاء للتجنيد، فأغرقها الجند في النيل. بل لجأ كثيرون لدق الصلبان على أرساغهم، فالتجنيد لا يطول الأقباط.. هل يستمر نظام يمنح المواطنة حسب الديانة؟

مع إصرار العمة والأهل دقّ الفتى الصغير صليبًا على رسغه، لكن ذلك لم يكن يجدي كثيرًا بعد صدور تذكرته الشخصية، صار هاربا من الشرف. بل أفتى أحد شيوخ السلطان: «كل من دق صليبا مرتد، وجزاؤه القتل في كتاب الله تعالى». مع أن الذين يتلونه حق تلاوته، لا يجدون حدّا يجيز قتل المرتد، ذلك إن كان مرتدا فعلا، ولم يكن قد اضطُر وقلبه عامر بما وجد عليه آباءه الأولين.

اضطرب الصعيد.. زادت الضرائب، بلغت البطون آفاق جوع، وضاقت الحناجر بصدى القلوب. وفي صباح قصير من صباحات شهر أمشير، ملك الزوابع، حُكم على أحد أخواله بالجلد، وبمصادفة تحلو لشعراء السيرة الشعبية، دافع الفتى عن أهله في معركة غير متكافئة. قُتل جنديٌّ، ومقابله قتل الجنود خاله وتسعة مساكين يعملون في أرض تمنوا لو كانوا يملكونها. دوره في المعركة لم يتعد الدفاع، لكنه بغير تحقيق صار مع جرائمه الأخرى قاتلا متمردا مطلوبا للعدالة. والعدالة نسبية تميل حيث يميل الطمع، الميزان مرفوع بيد من وضعه سبحانه. هل يمكن للبشر أن يحملوا ما ناءت به ورفضت حمله الأرضون السبع والسموات. قدر الميزان أن تحمله أهواء ظلوم جهول اسمه إنسان. أحكمت كُربةٌ عُقدتها، ومن الظلم سار الفتى في الظلام، لعله يجد النور.

غفا الفتى الهارب فرأى أنه يتلو سورة «ص» واستيقظ في صباح معركة دارت بـ«الغنايم» وهو يرتل ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، سرى ليلا إلى قريته «أبنوب» عازما أن يشرب من نيلها قبل الفراق، وأن يلتقي بأشيائه التي ستصير مجرد ذكرى. كيف تكون الذكريات جميلةً ساعة وقوعها؟ كيف نعيشها كل ساعة؟ نسير ونتوهم أننا نستمتع بحياتنا، وندرك أنها مجرد ذكريات. نتأمل أحزاننا العابرة والمستوطنة، ونبتسم. ما أوجع ذكرياتٍ سوف تكون.

تأمل كل ما حوله، تجلّد، وذهب. على وجهه هام مذعورا، مدقوقا فوق رسغه صليبا يُخفيه بخيوط كِتّان ملتفة كحية، وفوق كتفه ألفُ ثعبان وحيّة، مُثقلا بهمومٍ حمولٍ لا تطيقها سنُّه الصغيرة، حزينا لفراق وطنه. قد تقول الجغرافيا: إنه ما زال في وطنه، حيث مصر كلها وطن

واحد، لكن التاريخ وعلم الاجتماع وما جدّ فيهما، يقولان: إن المصري مُطالبٌ أبدا بالإجابة عن أسئلة صعبة، أولها دينه، وثانيها «منين يا بلدينا؟». يُمعن البشر في تقسيم البشر وتصنيفهم، وإطلاق الصفات بعمومها، الحسنة وقت التصالح والنسب والتجارة والسمر، والفاحشة جدًّا عند أول بادرة خصام واختلاف. ينظرون إليك وعيونهم غير بصيرة، وعوراء قلوبهم. وقلبه مفتوحٌ على بيوت طينٍ يحنو عليها نيلٌ، مطلة على مئذنة متداعية وبسطة سمر، وطريق من الكُتّاب إلى البيت، وسكة مُتربة إلى دولاب الفخار، وسبيلٍ تحفظه البغلةُ إلى مسجد سيدي جلال الدين السيوطي. النهر في كلّ مساحة للعين داكنٌ كإنسانها، فيّاض كدمعها، كزيغها غامض وقت الخوف، والشجر العفيُّ يُنعش كل صدر. ما أوجعها، بل ما أجمل ذكريات تنزف من قلب مذبوح.. من أبنوب إلى كهوف جبل أسيوط الغربي.

أسيوط وادٍ ضيّق، نفوس صعبة زرعت الأرض السوداء، ومدحت الصخر المحيط المُسوَدّ. في ليلته الأولى نظر لسماء قريبة بدت عند متناول يده، زعق: «أن لا إله إلا أنت سبحانك»، أدرك أن منامات الطُّمأنينة ذهبت بلا عودة قريبة. لجأ إلى ركعتين تُعينان الهارب وتوصلانه لبر أمان، فسرى بنفسه مَسُّ أمانٍ. راح يتسلى، يُغني مما حفظه من الشعر في أيام الصبا. تساءل: «هل ولّت أيام الصبا؟». من الشباب من يترقب شيبه، وشعره لا يزال فحما، يدرك البعض منا أنهم مُعدون لمواجهة الصعاب، فيتألمون قبل موعد الآلام. تكوّم وراء صخرة وحيدة تُشبهه، لامست ركبتاه صدرَه، أراح رأسه، غنّى:

آمنت لك يا دهر ورجعت خنتني ولا كان حسابي إن الزمن خوان
أبكي على الفرقة وعلى حيف ما جرى دمعي سرى بل الأراضي طيفان

وعلى الرغم عنه، نام أَمَنةً نُعاسا قصيرا وعميقا، فرأى طيفين،

نورا متوهجا ورفيقا ينعكس عليه من النور. استيقظ من العطش ولسانه يردد: «يا نور العيون يا صفوة الرحمن». مع الشروق تأمل التلال حوله، اختار من بينها اثنين، راح يُحدثهما: «إني أراه، أكاد أكذب من شدة الوجدِ أني ألمحه وهو يهدي بخطاه المهاجرة الإنس والجان. صلى عليك الله يا علم الهدى، كم لاقيت الطعنات مبتسما، وخرجت بالهجير متيقنا من الوعد. هل تلمحان؟ وأكاد أكذب من شدة الوجدِ أني أراه وصاحبه، والصاحب الحق من يصدقك حين تكذبك الدنيا، ويقف بجوارك حين يغادرك الناس. يا صاحبيّ تقصيا نظريكما، هل تريان الغار والعنكبوت ينسج خيوطه، وترقد اليمامة على بيضها فتفرخ سَكِينةٌ. وكنت مراقبا وراء من يترصد بهما، فهربت ومررت بين الأقدام، ويا لروعة ما رأيت. يا ناس يا قوم يا كل الدنيا عبر كل التاريخ، ثاني اثنين إذ هما في الغار، وقد التفتُّ إلي القمر «اللهم صل وسلم وبارك عليه» فأحسست أن الله معي، وأن الخوف عَرَضٌ سيزول، والأمنَ منوطٌ بالتجلُّدِ واليقين.

قلتُ: أيُّ نهار مُنوّرٍ متعطرٍ بمسك من فيض عرق المهاجر؟ ناديت في أدب: «يأيها النبي، يأيها المهاجر، يأيها المتيقن، يأيها الذي أحبه، كم نحن حزانى ومهمومون، كم أنا مُطَارَدٌ، وبحاجة لنسمة من بحر يقينك».

بالليل التحف الصبيُّ ذو الهموم الجليلة، كوحش مُرتعد لجأ إلى مغارات يعتقد المصريون أن العذراء مريم تحميها، فقد لجأت إليها في قلب جبال مهيبة، طلعها كرءوس شياطين تركبه الصقور وتأمن إليه الحِداءُ وتحرسه الحيّات والأفاعي، ولا يسكنه غير اثنين، بني آدم هارب وجنيٌّ ضال. يقولون في الصعيد: إن شياطين مغضوبًا عليهم من الملك سليمان النبي محبوسة في كهوف صعيد مصر الصعيب،

تريد أن تنقض على النهر، وتضيقُ بها أخلاقُ الناس في أسيوط. الناس يشبهون أرضهم ويصطبغون بملامحها. علّمته الجبال الكثير، وهشّه بشرها المطاريد من ظلم الوالي. كيف يظلم من ذاق الظلم؟ اعتزل بلا زاد، ومِزْوَدُه بُقْجَةٌ تضيق على أجزاء كتاب ضخم نسخه بيده، وفيها كرّاسة أوراده ورسائله لأمه، وبضعة أرغفة شمسية وقطعٌ من جُبن معتّق. اختار من الكهوف العنيدة الأصعبَ والأقربَ خلف دير شُيّد كقلعة تحرس النيل، وبه تأنس. واستقر فيه شهرا غير آنسٍ ولا مطمئن، يأكل مرة ويجوع عشرًا. جِلدٌ على عظم، نفس هاربة، شبحٌ اسمُه موثّقٌ في دفتر الهاربين الخطرين. وفي رحلة قصيرة كحياة وطويلة كموت، سمع في ليلة أناشيد غريبة وترانيم شذية. سار للصوت والصمتُ يُرهب نفسًا هائمة. رأى بكهفٍ غير بعيد راهبا معتزلا يتعبّد، يدعو أو يصلي أو يغني أو ينوح، تداخلت المعاني ومسّته:

بـدر ساطع بأنـوار بهيـة	عفيفـة كاملـة البتـوليـة
بتـوليتــك يـا حكيمــة	نلـت الصيغة المستقيمة
تتهــلل بقعـة السيسبان	ويبتهج وادي الزعفران

اطمأن أن ثمة قريبًا جواره، وإن لم يعرف مرمى كلامه. رجع وكره مفاجأته وإرهابه. في الصباح عاد قربه، تنحنح بهدوء، شدّ قوس حنجرته وأرخاه. علم الراهب أن بالخارج طارقا، خاف وسكت وسكن. حنّن صوته، نادى: «أمان يا قديس، أنا عابر سبيل آنست لصوتك، السلام لك والأمان».

جاور الراهبَ المعتزلَ أياما لم يَعُدّها في مغارة منحوتة بإزميل تاريخ طويل في قلب الجبل منذ آلاف السنين، جار بها عبر الأزمان خائفون، وفيها حبس قليلون أنفسهم ممن أرادوا سكة شاقة من الرهبنة.

ـ أنا عابر سبيل ضال من أبنوب.
ـ كلنا ضالون، وعابرو سبيل.
ثم تنهد الراهب: «أبنوب.. آب ونوب أرض الذهب. من هنا ذهبت أمنا العذراء بطفلها المبارك وشقّت طريقها».
ـ أعتذر لاقتحامي مكانك.
ـ أنت لم تفعل، بل المكان ناداك.
ـ مكان له رهبة، وبه أُنس.
ـ قلايتي مقبرتي وفردوسي، مع وحدي أنا معه.
ـ هل تحفظ السر؟
ـ يكفيني ما عندي، في قلبي آبار آثامي، والجبل مغارات تحسبها فارغة وهي صاخبة بالأسرار. في الصخر منقوش الذكريات لمن أراد القراءة. أنت هارب من جناية لم يكن لك فيها سعيٌ ولا قصد شر، ومسكين يفتش عن أمان.
ـ كيف عرفت؟
ـ لا يأوي إلى هنا غير الهاربين، ولو كنت مجرما أو عاصيا أو قاطع طريق؛ لما أمهلتني وأنت صغير وأنا هدتني السنون واعتراني الشيب، كنت قتلتني بلا تردد وسلبتني قليل زادي. وأنت مسكين، كلنا مساكين، وكلنا هاربون من جنايات أنفسنا وشهواتها، نتوق للخلاص ونفتش عن الأمن.
ـ كيف الأمن؟
ـ الأمن داخلك، لو صافحته لقاك بكل طريق. في هذا الجبل ما خفتُ ذئبا ولا حية، لأني اتقيت شر ذئبٍ في قلبي، ونار أفعى تحرك شهوتي، فأمِنتُ. لا تنو شرا، فيبتعد عنك كل شر.
ـ أين أذهب؟

ـ بل يناديك ما هو مقدور أن تذهب إليه.
ـ رأيت في هروبي آيات، وعلى الرغم من الجوع والهم فإني وجدت بعضا مما تقول. هنا وجدت أن لي صاحبا واحدا، ربي الذي لا أعبد غيره، لو أراد موتي لهلكت جوعا، ولو شاء استمرار ضعفي ما وكَلني إليه.
ـ من ينشغل بالسماوات يقف غير مشتت في حضرة الله دون أي قلق يسحبه إلى الوراء، يقضي حياته مع الله، وبه منشغلًا، ويُسبحه دون انقطاع.
ـ ما انقطع تسبيحي، ولا توقفت دعواتي لأهلي الفقراء قبل نفسي.
ـ محب الفقراء له شفيع في بيت الحاكم، ومن يفتح بابه للمعوزين يمسك في يده مفتاح باب الرب. أنت منحت الفقراء مفاتيح قلبك بشفقتك عليهم. لكن احذر.
ـ كلي حذر.
ـ احذر من قلبك ومنه احترس، فإنك في رحلتك عملت مع سيدك لأجل أن يهبك الأمن ويغطيك بالأمان. فلا تعمل مع سيد الكل من أجل موهبة يعطيها لك، لئلا يجدك محبًّا لمقتنياته وبعيدًا عن حب ذاته. تعال أشاركك ما لدي من زاد؟
ـ لدي ما يكفيني، ولله الحمد.
ـ ما يكفيك هو أقلُّ من ذلك. هل لك حلم؟ يجب أن يكون لكل امرئٍ حلم يعيش لأجله.
ـ عندي من الأحلام ما لا يتسع له قلبي، وما يشتكي منه المنام.
ـ عِش لأجل ما تحلم به. فليس غير أن تسير وراء حلم حتى يصير واقعا، وإن من الأحلام ما لا نُدرك عواقبه.
ـ أحلامي كبيرة وبسيطة.

ـ أنت ما تحلم به.
ـ لكني قليل الحيلة.
ـ بقدر قلتك أمام الناس يكون شرفك أمامه. هل لك صنعة؟
ـ لي اثنتان.
ـ صاحب بالين كذّاب.
ـ لي واحدة آكل منها، والأخرى شغف بالتدوين.
ـ أعانك الرب، فلا تسرقك إحداهما من الأخرى، فإن صاحب الصنعتين كزوج الاثنتين، إلا أن يُعينه الرب.
ـ بالنهار فخراني، وبعض الليالي أنسخ وأدون.
ـ خلقنا الرب من الطين وقد مزجه ترابه بمائه، ثم نفخ من روحه فكُنّا طاهرين. الفخار صنعة الطاهرين، وأما القلم فحاله الألم.
ـ أنا مجرد ناسخ بالأجر في بعض الأيام، وغير ذلك فتدويني لا يتعدى رسائل أو اصطيادا لما قد يُؤتى إليّ من الخاطر.
ـ لك إذن صنعة واحدة، فما يأتي على خيالك تصوغه أناملك فوق دولابك، وما يشغل خاطرك ترسمه أصابعك فوق أوراقك. لقد جرّبت الكتابة وما تحملت المواجع، فالتزمت الصمت.
ـ يبدو أن صمتي سيطول.
ـ بل ادلقه حبرا على الورق. قال لي مرة راهب حكيم من الشام مولع باللغة العربية، ما فتئ يبحث فيما كتبه الأولون حتى تمرس في الكتابة، نصيحة غالية عن الأقلام والأوراق. هل تحتمل النصح؟
ـ أرجوك، انصحني.

حين اعتدل الراهب في جلسته، اكتشف الهاربُ أن مُضيفه لم يلتقِ بعينيه طول الحديث، بل ظل ظهره محنيا كالمساكين. اعتدل الراهب فقال: «حينما أردت أن أكتب، قال لي حكيم: ليس سوى أن تريد.

قلت: كيف الوصول؟

قال: حبتان تبلعهما على ريق صحة قلب، حبة إخلاص نية وحبة محبة، فبالمحبة تنبت ألف حبة قمح وحبة.

قلت: فهمي على قدي؟

قال: ما يخرج من القلب لا تهدأ حروفه حتى يسكن كل قلب، وما يخرج للشهرة نكتبه بحبر ماء، فهل يبقى سطر مكتوب بالماء؟

قلت: أنا متعجل وعجول، ومتلهف للكتابة.

قال: الهمة أصل كل بناء، لكن الأساس يبقى ذخيرة من كلام من رحل، فالراحلون قريبو عهد بإيمان، وهم أكثر صدقا وأعمق خبرة وأبلغ تجربة.

قلت: إذن قلمي في يدي والورق أمامي.

قال: جميل، لكن قبل الكتابة اهدأ قليلا، وقبل مسك القلم اصبر طويلا واقرأ بعمق وتؤدة، فالكتابة بنت القراءة والقلم فرع النظر في سطور الأوراق.

قلت: الكتب، لا تُحصى ولا تُعد. فماذا أقرأ؟

قال: رسائل السماء، كلام الرب، لا بديل عن البدء به، ثم اقرأ كل ما يقع بين يديك.

قلت: لا خلاف، لكن في أي شيء أركز؟

قال: ركز فى اللغة التي تريد أن تخاطب بها الناس، عليك بمنطقهم وكلامهم وأحزانهم، حكاياهم وشعرهم. اجعل من أوراقك فرسا، فوق ظهره تُقرب المسافات، وتُخاطب الجميع. ثم لا تستكثر، فالسعيد من عُد كلامه واستعد له، وغرف الناس من حكمته، واصبر؛ فأنت اخترت الصعب، طريق القلم وسكة الألم، وابدأ بالدهشة من الكلام، ولا تندهش بأوهام كثرته».

انتهى الراهب فإذا الهارب يبكي، قائلا: أول ما سأكتبه ما قاله الشاعر:

ـ ماذا قال؟

فما من كاتب إلا سيفنى ويبقى الدهرَ ما كتبت يداه

فلا تكتب بخطِك غير شيء يسُرّك، يوم بعثك، أن تراه

تشاركا خبزا جافا وحفنات تمر، وقليلا من كلام كثير نقلته قلوب وكثّفت من معانيه محبّةٌ، وارتقت بمراميه. منحه المتخلي في صومعته عباءته، وأهداه محبرة وريشة وأوراقا قليلة وشمعة صنعها من شحم على يده. شكر الله له، ومضى ملتحفا بعباءة راهب وصليب مدقوق بالتوتياء على رسغه. وفي تلك الليلة، على ضوء شمعة الراهب قرأ في نسخة الكتاب الكبير، فسعِد لمّا قرأ:

«فلا مريد في الوجود على الحقيقة سواه، إذ هو القائل سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. إن أنعم فَنَعَم، فذلك فضله، وإن أبلى فعَذَّب، فذلك عدله. لم يتصرف في مُلك غيره، فيُنسبَ إلى الجور والحيف، ولا يتوجه عليه لسواه حكم، فيتصفَ بالجزع لذلك والخوفِ. كل ما سواه تحت سلطان قهره، ومتصرف عن إرادته وأمره».

حمد الله على لطفه في بلاياه، وتعجب من مودة يُبقيها بين غريبين من عباده، وتساءل: هل العبدان على غير الجادة؟ أم أحدهما أو كلاهما من خاصة أحبابه وأوليائه؟ ثم انشغل في التفكير بما قيل له في الجامع السيوطي من أن الخليفة أبا بكر الصديق نهى عن قتل راهب متعزل في صومعته.

همس: القلوب أدرى بها خالقها، سبحانه.

راح يقرأ على ضوء شمعة الراهب صفحات:

«قال لي سيدي: اعلم أيها الصفي الكريم، أن «الصاد» من عالم الغيب والجبروت، وسر «الصاد» لا يُنال إلا في النوم، لكوني ما نلته ولا أعطانيه الحق تعالى إلا في المنام، ومرةً إذ كنا قاعدين في يوم سبت على سبيل العادة في المجلس بالمسجد الحرام تجاه الركن اليماني من الكعبة المعظمة، وكان يحضر عندنا الشيخ الفقيه المجاور أبو يحيى الطرابلسي رحمه الله، فلما فرغنا من القراءة قال لي: رأيت البارحة في النوم كأني قاعد وأنت أمامي مستلقٍ على ظهرك تَذْكُرُ «الصاد» فأنشدتُك مرتجلا:

الصاد حرف شريفٌ والصادُ في الصادِ أصدق

فقلتَ لي في النوم: ما دليلك؟ فقلت لك:

لأنها شكل دور وما من الدور أسبق

فقمت من حال نومي وراحتاي تصفق.

وحكى لي في هذه الرؤيا: أني فرحت بجوابه، ففرحت بهذه المُبَشِّرةِ التي رآها في حقي، وبهيئة الاضطجاع، فذلك رُقادُ الأنبياء، وهي حالة المستريح الفارغ من شغله، المتأهب لما يَرِدُ عليه من أخبار السماء.

فاعلم، أن الصادَ حرفٌ من حروفِ الصدقِ والصَّوْنِ والصُّورةِ».

قبل الفراق همس الفتى للراهب: هل عاينت الخوف؟

ـ أحاول ألا أخاف.

ـ الخوف من طبيعة البشر.

ـ في مرة شحطت بي مركب وأنا أعبر النيل عند ديروط. تخيلت أن النهر جفّ، نزلنا من المركب الصغير ودفعناها. لم نصدق أنفسنا. كنا في أمشير، وفي هذا التوقيت كما تعرف ينقص النيل،

لكن ليس بهذه الدرجة. حكيت ما حصل لمعلمي العجوز. بكى وقرأ عليّ ما جاء بسِفر إشعياء: «فيحارب كل واحد صاحبه، مدينة مدينة ومملكة مملكة، وأغلق على المصريين فى يدِ مولى قاسٍ، ويجف النهرُ ويبس».

ـ هل يجف النهر؟

ـ لو حارب المصريُّ أخاه، وأهمل الإصلاح، وغضّ النظر عن المخاطر، وتشتت الناس وتفرقوا، وعُوقبوا بحاكم قاس ظالم، يومها يحزن النهر العجوز، فلا تنزل على خد الحبشة دمعة.

ـ لا أتصور أن هذا حاصل.

ـ الرب بالنهاية يقول: «مباركٌ شعب مصر».

رغم الهموم، تركتْ لياليه مع الراهب في نفسه سرورا. تعلم بين يديه كثيرًا مما اعتبره رزقَ حكمةٍ ساقه الله إليه، قال: «الحكمة ضالة المؤمن». فتعلم، ما تردد، ولا وجد حرجا، بل محبة أحسها تسكن جدرانَ صدرِه المرتفعة حول سره. وفي ليلةٍ سأل مُضيفه الراهبَ:

ـ كيف أذبح عجل الخوف؟

ـ الخوف وهمٌ. أنت ذكرت العجل، وتعرف قصته، فبنو إسرائيل عبدوا الوهم، فقال الرب لموسى: «*قم انزل. فسدَ شعبُك الذين أخرجتهم من أرض مصر. حادوا سريعا عن الطريق التي أمرتهم بسلوكها، فصنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وقدموا الذبائح*». وقال الرب لموسى: «*رأيت هؤلاء الشعب، فإذا هم شعب قساة الرقاب. والآن دع غضبي يشتد عليهم فأفنيهم*». فتضرع موسى إلى الرب إلهه وقال: «*يا رب، لماذا يشتد غضبك على شعبك الذين أخرجتهم من أرض مصر بقوة عظيمة ويد قديرة؟ أفلا يقول المصريون إن إلههم أخرجهم من هنا بسوء نية،*

ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض؟». ثم أخذ موسى العجل الذي صنعوه، فأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما، وذرّاه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل. هنا اتضح لمن عبدوا العجل أنهم مشوا وراء الأوهام. وكان الوهم كفيلا بهلاكهم في جبال تُشبه هذا الجبل. خوفك وهم، فأنت اخترت الركون للرب والاعتماد عليه، فلو داخلك خوفٌ من غيره، فأنت كذّاب.

ـ صدقت.

راجع الفتى ما قاله الراهب على ما يحفظه من كتاب الله وقصة العجل، فاطمأن لمّا لم يجد اختلافا كثيرًا، وعناه المغزى من الكلام، والحكمة من ورائه. فردّد ثانية:

ـ صدقت.

اسمع هذه الحكاية، قالها لي راهب سبقني على الطريق، لعلها تكشف لك زيف وهم الخوف:

«راح فتى صغير ليصير راهبا، فالتقاه راهب عجوز صارم، وأخبره أن عليه اجتياز امتحان قبول، وأشار إلى باب غرفة موصد ومخيف، فتحه الراهب فظهرت أمامه بركة فوقها لوح ضيِّق من خشب، مليئة بما يشبه ماء النار تتصاعد منه الأبخرة. وقال الراهب العجوز: إن الامتحان يتلخص في اجتياز البركة من فوق اللوح الخشبي، وفي السقوط مخاطرة بالحياة في ماء النار. وإن أمامه ثلاثة أيام ليتدرب على ذلك. وافق الفتى على خوف، وبدأ التدريب وأحضر لوحا أضيق من لوح البركة، وعلّقه بين حجرين، وراح وجاء من فوقه مرات، يقع ثم يقوم، وهكذا حتى اطمأن لنجاحه في الامتحان المرتقب. وفي اليوم المشهود جاءت جماعة الرهبان ليحكموا على الفتى. واستعد ونظر إلى اللوح، وبدأ في التعرق بشدة، وخاف خوفا شديدا مع أنه

مرّ من فوق لوح أصعب منه، وتدرب لثلاثة أيام.. فالعبرة أن التدريب شيء، وحياتنا على المحك شيء آخر. ففكر وتردد وتجمدت قدماه، وأخيرا غالب خوفه ومشى فوق اللوح، وبعد أربع خطوات مال بعد أن فقد تركيزه، فسقط في البركة. وفي لحظة سقوطه رأى حياته القصيرة كلها أمام عينيه. إلا أن شرا لم يحدث، حيث ضحك الجميع بما في ذلك الراهب الكبير، وكانت المرة الأولى التي يرى فيها الفتى مُعلمه يبتسم، وأدرك الفتى أنها مجرد بركة بها ماء دافئ. وعندئذ قال له الراهب الأكبر: أحيانا سيجعلك الخوف غير قادر على القيام بأبسط الأشياء، حتى الأشياء التي تجيدها بصورة مذهلة. إن تعلمت أن تتحكم في الخوف في حياتك، فلن يوقفك شيء، وستحقق ما لم تكن تحلم به. وعندما تقترب من الموت، فقط عندئذ ستدرك قيمة الحياة ووقتك البسيط فيها».

انتهت الحكاية، فالتفت الراهب لضيفه:

- مخاوفنا حقيقية لو غلبتنا، وهي أوهام لو تحكمنا فيها وألقيناها على خالقنا.
- إن غايتي جعل المخاوف خوفا واحدا، الخوف من الله تعالى وحده.
- الخوف من الرب رأس الحكمة.
- وإن حبي لله تعالى يسبق خوفي منه، فقد آمنت بأن رحمته سبقت غضبه.
- المحبة الكاملة تطرد الخوف كاملًا.
- صدقت.
- قبل صعودك الجبل هل رأيت كم هو مهيب وصعب.
- وخفت، لكنني كنت مضطرا.

ـ احفظ عني: في حياتنا لا يجب أن نكتفي بالنظر للأمور على أنها صعبة ومستحيلة، لو اخترقت عنادها، استجابت لك. لا تبتئس بتأمل ارتفاعها ودروبها المتعرجة. قاوم نفسك، وغالبها وغالب الجبال بالصعود. أنت هربت من أجل أن تصير حُرًّا، فالحرية هي الوجه الآخر للخوف. فاختر أيّ الوجهين تريد.

ـ كلامك يمنحني رغبة في الحرية.

ـ أول ما سمعت صوتك تملكني خوف، وأنت جئتني خائفا، لو ظللنا على خوفنا لبقينا غرباء. لمّا طرحنا الخوف أصبحنا رفيقي مغارة وأصدقاء. يا بني، إن أول نجاح هو مواجهة الخوف.

في هروبه بالجبال تعلّم ما ليس مسطورا بكتاب، ولا أنشده أحدٌ في كُتّاب. لقد تكلم إلى خالقه بكلمات كثيرة وجمل مسجوعة قصيرة وطويلة، تدور حول حقيقتين، أنه سبحانه هو «هو» وأن العبد الهارب ظالم لنفسه ومذنب. مسّته في الليل ريحٌ تحمل بركة، أو هي تحمل مسًّا من جذب وجنون. أشعث أغبر لا صاحب يؤنسه، ولا رفيق يشاركه رحلة لم تبدأ بعد، أو قد تنتهي جوعا وعطشا، ثم موتا بغير قبر. لكنه رأى أنه محظوظ، وتذكر ما ألمّ به من معرفة قليلة بهجرة ابن عربي ورحلاته، وإن كان لا يعرف شيئا عن تفاصيلها الطويلة. فتح الفتوحات، فانغلقت أغلبها، وأقلها انفتح، حتى كانت ليلة قرأ فيها: «ونُظمت الحروفُ، وضُمّ بعضُها لبعض، فتكون كلمة عند ذلك من الكلم، وانتظامها يُنظر إلى قوله تعالى في خلقِنا ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ وهو ورود الحركات على هذه الحروف، بعد تسويتها، فتقوم نشأةٌ أخرى، تسمى كلمةً، كما يُسمى الشخصُ الواحدُ منا إنسانا، فهكذا انتشأ عالمُ الكلماتِ والألفاظِ، من عالم الحروف. فالحروف للكلمات موادٌ، كالماء والتراب والنار والهواء لإقامة نشأة

أجسامنا، ثم نفخ الروح فيه.. ومن الكلم ما يشبه الإنسانَ وهو أكثرُها، ومنها ما يشبه الملائكةَ والجِنّ».

كان كلام ابن عربي أمامه صعيبا مظلما كليالي هروبه، إلا ومضات تلوح له في بعض الصفحات كما تلوح النجوم في سماء تعلوه. حاول أن يعيد القراءة ويتأمل: «كيف أننا لو جمعنا حرفا إلى جوار حرف أو أكثر، صارت الحروف كلمة، والكلمة كلمات، وكل حرف له من الحركات ثلاث، ضم ونصب وخفض، وكل حركة تبعث روحا جديدة في حرف الكلمة، تماما كما سوّى الله تعالى جسد أبينا آدم، ثم جاءت الحركات للحروف، كنفخ الله تعالى في الفخار، فصار إنسانا يتكلم ويسمع ويمشي، ويحب ويكره، ويفرح ويحزن، ويريد ويقعد. الحركات للحروف، كبعث الروح في الخلق».

من ساعتها أدرك أن الكتابة فيض من الرحمن، وأن حياتها في تأمل حكمته، وأن منبعَها من قلب مُحبٍ. مضى يتصفح ما بين يديه، حتى وقف على سطور، قال «سأجعلها مفتتح كتابي»:

«سبحان الله، الذي ليس لأوليته افتتاح، كما لسائر الأوليات، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى الأزليات، الكائن، ولا عقل ولا نفس ولا بسائط ولا مركبات، ولا أرض ولا سماوات، العالِم في العماء بجميع المعلومات، القادر الذي لا يعجز عن الجائزات، المريد الذي لا يقصرُ فتعجزَه المعجزاتُ، المتكلمُ ولا حروف ولا أصوات، السميعُ الذي يُسمعُ كلامُه، ولا كلام مسموع إلا بالحروف والأصوات والآلات والنغمات، البصير الذي رأى ذاته ولا مرئيات مطبوعة الذوات، الحي الذي وجبت له صفات الدوام الأحدي والمقام الصمدي، فتعالى بهذه السمات، الذي جعل الإنسان الكامل أشرف الموجودات، وأتم الكلمات المحدثات. والصلاة على سيدنا

محمد، خير البريات، وسيد الجسمانيات والروحانيات، وصاحب الوسيلة في الجنات الفردوسيات، والمقام المحمود في اليوم العظيم البليات، الأليم الرزيات».

جمع ذلك واعتبره مفتاحا لما عزم من تأليف، إن أدركته طُمأنينة، وقُدِّر له مقامٌ بغير أذى. ومضت الليالي وثقلت الأيام، شهران أو يزيد في وحدة بالنهار ساكنة كجبل، وفي الليل أنين وبكاء واختفاء من جُند غلاظ شداد يطلبونه، ولن ينسوه. ليس للعبيد أن يرفعوا أصواتهم في وجه الأسياد، فما بال عبد تجرأ ونطح برأسه أسياده فأردى أحدهم، وأصاب الثاني إصابة بليغة. ومضى يشق الجبال شمالا. يحكي بعد ذلك بثلاثين عاما لمن يكتم عنه بعض أسراره: إنه في ذلك السفر آوت إليه الوحوش مطمئنة، وقد أطعمها بعض صيده.

اطمأن في صباح سبقته ليلة تلألأت نجومها، فنزل بشعر مرسل طويل وعباءة راهب غير واضحة الملامح من طبقات التراب. سوداء واسودّت من طول المسير وقسوة الهجير مهرولا على سفح ينتهي بالنيل، مصحوبا بذئبين مرعبين لا يراهما. وكانت مركب تعاكس حركة النيل الجنوبية، وتسير بشراع هائل رآه الهارب جناح مَلَك مهيب وطيب. نادى وأشار بعصاه، وحط رحاله الخفيفة فوق المركب وترنح فوق ظهرها، أو سقط مغشيا عليه من فرط الإعياء. ومضى الذئبان. واعتقد فيه رُبّانها أنه هدية مبروكة، مع توجس شر لم يرق لرفض مظنة هدية ساقها الجبل البخيل إليه. هل يحرس الذئب ابن آدم؟ أم أن الذئاب ترعى بعضها؟

شكر الراكبُ الضيافة، وأنكر أنه مبروك. ربطوا المركب على ساحل مغاغة من أعمال المنيا، وقد مضت ليلة ونهار، وأقبلوا عليه يسألون، سكت، ما أجاب غير نظرات من فرط بقايا ما يحمله من

خوف وتعب. لم يمهلهم الصليب على يده وقد انكشف بينما يغسل ثيابه وخيوط رسغه، فسكتوا ولم يزعجوا بالأسئلة مسكينا في هيئة تشبه رهبانا منفردين في الجبال، ومعزولين في قلايات موحشة. هيئته كانت موحشة لكنها مريحة للنفوس.

ولما تكلم قال إنه من «قبلي»، ولم يُحدد بلدا، وما ألحوا عليه، وأنه تاه في الطريق، وهو على استعداد للنزول إن أزعجهم ركوبه. رحبوا به، وأشار أحدهم، أن عليه حمد الله تعالى الذي أنجاه من مهلكة، وألقى في قلوب الوحوش الرحمة فحرسته، حتى التقاهم.

استحم من ماء النيل الواسع العطوف على قرى المنيا، ودلك جسمه بالطين، وأحس أن الحياة تدب من جديد في عروقه. بعد ثلاث ليالٍ صلى فيها سِرًّا، جمعا وقصرا على حذر، رست المركب المحملة بمئات البلاليص (الجِرار) من الفخار القنوي وبضعة رجال على ساحل مصر عتيقة. نزل وشاركهم في تنزيل الحمولة، وقف دون طلب من أحد على رصها بعناية وخبرة أدهشت الجميع. وراق له يقينُهم بأنه مسيحي، فذلك أشمل لتخفٍّ يريده أمثاله الهاربون.

انتهوا، فشكروه وشكرهم. ولفتت طريقة رصه الفخار نظر التاجر المشتري، عرض عليه العمل، وسأله عن صنعته بعد إلمامه ببعض قصته من صاحب المركب. ما إن علم أنه فخراني، حتى سُرّ، وبشّره بالفرج. كيف ردّ بسرعة على التاجر بأنين يجأر بـ«اللهم صلِّ على سيدنا محمد، يا رب لك الحمد»، قبل أن ينتبه لما خرج من فمه، حتى كبّر التاجر «لقد اهتدى صاحبكم للإسلام»، وهلّل، فأقبلوا إليه يحتفلون.

وفي حواري «مصر عتيقة» العتيقة، عُرف بـ«المهديِّ». وبعد بضع سنين بنى دولابا للفخار على مشارف خرائب الفسطاط. تزوج من

«عزيزة» بنت الشيخ «حسن الأعرج» خادم مسجد عمرو بن العاص. صار «المعلم المهدي».

ما سبق يمكن اعتباره بداية حكاية المعلم المهدي الفخراني كما سمعتها من حفيده زين، وتصرفتُ في قليل من تفاصيلها بحسب ما أُتيح لي من مراجع عن تاريخ أسيوط وشكل جبالها. تسامرت مع زين فيما دوّنته ونقلته عنه وعن المخطوط.. جاءت تعليقاته دافئة كرماد خامد، لكنها تنم عن عافية روح. قلت:

ـ البداية صاخبة، هروب وجبال. لكنها انتهت بسلامة.

ـ بداية حزينة، ترك أهله وتغرّب.

ـ لو لم يفعل ما كنت أنت اليوم هنا.

ـ «ساخرا».. يا لعظيم الفائدة.

ـ يمكنك البدء من جديد.

ـ يا صديقي، كفاني ما لاقيت.

ـ إنك لم تلق نصف ما واجه المهدي، أقول لك: لعل أسابيع قضّاها في الجبال هاربا من كل شيء ومستعيذا بخالق كل شيء، هي التي منحته مواهب الاختلاء وعطايا الاجتلاء. في كل رحلة يمكنك القول بأن بالاستطاعة البدء من جديد، وبنفس جديدة.

نام زين وقد اكتفى بعشاء خفيف من سلطانية زبادي. فجلست أراجع ما كتبت، ووجدتني أفكر لو مزجت حكاية المهدي، بأبواب مما جاء في مخطوطه «سماع المعلم لروح يتكلم»، قلت إن ذلك أيسر لنقل الحكايتين المرتبطتين، إذ لم يكن في وُسع همتي أن أنقل المخطوط كاملا، وكما بدأت مع نشأة المعلم المهدي، فرحت أفتش في المخطوط عن بداية ابن عربي، وها أنا ذا أنقلها بتصرف قليل كما جاءت في مخطوط سماع المعلم لروح يتكلم:

«قال لي شيخ العارفين عن البدايات، كيف اختار له القدر طريقا ممهدةً بالحب، مرصودةً بعيون الأحقاد:

إشبيلية أول أرض تلمستُ فيها الطريق، في سُهوبها السهلة ترعرعت، وبغاباتها البديعة حلمت، وداخل أركان مساجدها قرأتُ. هناك تعلمت من علوم شرعية وشربت. لم يكد يبينُ لساني وأعرف يميني من شمالي، حتى دفع بي أبي يرحمه الله إلى والدي الشيخ «سيدي بكر بن خلف» فقرأت عليه القرآن، وأُشربت القراءاتِ السبعَ، لم أبلغ عشر سنوات حتى صرت مُبَرّزًا يأتي إليّ المختلفون في القراءات الغريبة، لأقضي بينهم.قرأت كل كتب السنة، حفظتها عن ظهر قلب، غُصت في الفقه وأصوله، وشعرت بأني نِلتُ شيئا عظيما. وبعد شهور، خطَر لي أن كل علم ظاهري قد ارتسم بعقلي، لكنه لم يبلغ شغاف قلبي، أو يشبع روحي. فسرت في الطريق، وأخذت علوم الناس، كل الناس، عربهم وعجمهم، فكشف لي الله الحكيم بحكمته ما دار بعقول فيثاغورس وأمبيذوقليس وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة، متحصنا بما بين يدي من علوم ديننا الحنيف. العلم درجات بدأت مع إيداع البشر دار البسيطة التي هي الخيال، وتوزعت بين الخلائق على اختلاف الملل، وبلغت منتهى كمال عُلوِّ الرُقِيِّ في صوت النبي ﷺ بخطبة الوداع.

قرأت ما تركوه، بل صارت صلة روحية بكثير منهم. لا تصدق أن الأرواح غادرتنا بلا رجعة. هل قلت لك: إن العلم جوهر واحد وصور متعددة. وإن العَالَم تجلى من الواحد، والرسوم أكثر من أن تُحصى، فسبحان من جعلنا شعوبا وقبائل، وخلق لنا من كل شيء مختلفا ألوانه. وتساءلتُ: لماذا وضعنا الله تعالى بلساننا العربي في وسط هذه الألسنة الأجنبية؟ أليس في ذلك إشارة؟ لا بد من وجود

حكمة وأكثر، وسعيدٌ من يمشي وراء ما يُزف إليه من إشارات في كون لا يُدرك كُنهه إلا بفك رموزه، والنظر في أفلاكه.

نعم، غُصت في لغة القوم وعلومهم، قلت: إن كان فلاسفة اليونان وغيرهُم مشوا في طريق ولم يُتموها، فإن غايتي من الطريق الوصول لمنتهاها، ومنتهاها الوصول إليه سبحانه، والتنعم بقربه، والقرب من معيته. فقرأت، وساقني القدر إلى «ابن العريف» المظلوم كعادة الغرباء في زمن لم تكن فيه الاختلافات سهلة. دعني، أُحدثْك عن ابن العريف الصِّنْهَاجِيّ، شيخي. هو الإِمَامُ الزَّاهِدُ العَارِفُ، صاحب المَقاماتِ والإِشاراتِ، مقصد الباحثين عن الطريق، المتناهي في الفضل والدين، والمنقطع إلى الخير، يتوارى عن الشهرة، يهرب من الجاه، يشتغل على مجاهدة نفسه تقربا وتذللا لمولاه. جمع في تناغمٍ بين الشريعة والحقيقة. فكانت له الكرامات المستطابة، والدعوات المستجابة. وقاتل الله السياسة التي تُدمن ركوب سفينة الدين للسيطرة على العوام ومواجهة الخصوم. ففي ذلك الزمن من اجتذاب الضعف والفُرقة دخل الصراع بين المرابطين والموحدين مراحل متوترة تقترب من الحسم. فبينما كان المرابطون يعلنون انتماءهم الفكري للإمام الغزالي، كانت دولة الموحدين تلعنه حتى أحرقت كتبه وطاردت كل من يقول بعلمه. وابن العريف ممن فسروا لنا كلام الغزالي، فاحتشد الناس حوله رافضين مصادرة الكتب وإرهاب العقول، فدبت الغيرة ونما الحسد في صدر قاضي «ألمرية» المعروف بـ«ابن الأسود»، فكتب للخليفة بمراكش «علي ابن يوسف بن تاشفين» وكان أمْرُ الأندلس إليه، وخوّفه من حال ابن العريف، فكتب الخليفة لعامله بـ«ألمرية»: أنْ ابعثْ إلينا ابن العريف. فأمر به العامل فأُدخل في القارب ليخرج به في البحر إلى سبتة، ثم قيّدوه بالسلاسل، فلقيَه العدو في البحر فحمله

أسيرا، فلما وصل إلى سبتة وافاه رسول السلطان بالأمان، وأن تُحَل قيوده ويُسرّح. فوصل إلى مراكش وأقبل عليه السلطان وعَظّمَه وأبان حقه وأكرمه وسأله عن حاجاته، فقال: ليس لي حاجة إلا أن تُخلي سبيلي وأذهب حيث شئت، فأذن له في ذلك. فقالت الناس: إنه بعد أن خاب سعي القاضي في الكيد لابن العريف، بعث من يدُسُّ له السُمّ في الطعام، فمات رحمه الله.

قال لي ابن العريف في فتوتي ناصحا: «من استغنى عن القدوة فتركها، فَقَدَ العِلمَ، ومن فقد العلم فقد الدلالات، ومن فقد الدلالات تَحَيّرَ، فتَخَلّفَ، وسلك بنفسه، ومن سلك بنفسه فكُوشفَ، كوشف بنفسه، ومن كوشف بنفسه عجز عن مشاهدة ربه وخالقه، ولم ير إلا نفسه، ومن لم ير إلا نفسَه، عَظّمَها، ومن عَظّمَ نفسَه استخفّ ما سواها، فيكون تلفُه. لأنه في ظاهره في أعلى عِلّيين، وبحقيقته وهو الكِبر على العلماء واستحقار الرفقة والرفقاء في أسفل سافلين».

ومن وحي كلماته الجزيلة علمتُ أني مبتلى بالحاسدين إن أكملت مسيري وتمسكت بطريقي. فقررت السير وأخذت من فلسفات الناس، وأعجبت برموزها. وأُتيح لي من النور ما أستعين به على فك طلاسمها. كيف قالوا ما قالوه أمام ضغوط أزمانهم؟ في الإشارة ما يختصر ألف عبارة ولا يجرح. وبعض العلم يبلغ ضرره ما لا يبلغه الجهل، فلا مجال لإيداع علم الخاصة للعوام، فما بالك بعلم خاصة الخاصة. وأما رعاع الناس يا صديقي فلا كلام لنا معهم، وقد يكون علمنا لهم سما ناقعا، لدقة ما فيه من معنى، ولطف ما فيه من إشارة، وإبهام ما فيه من مبنى وعبارة. فلجأت للإشارة، واخترت الكناية بديلا عن التصريح عن المراد.

واسمح لي بأن أعود لما بعد إفاقتي من الحُمّى، التي كادت أن

تنقلني لعالم الحقيقة، وذقت في حرارتها ما ذقت من عالم البرزخ، ولقائي بسورة يس المنيرة، يومها شعرت أن هاتفا يناديني في الليل، يأمرني بالقيام بين يدي الحق، وفي النهار يُحفزني للاعتزال بعيدا في رءوس الجبال والغابات، بل يوجهني أحيانا للمقابر، حيث يظن من لم يذق أن ليس غير أموات. وتكررت رؤى مناماتي، وازدادت وضوحا.

يا صاحبي، كلما خفّت أنفسنا من الأحقاد، رقّت أرواحنا، فتتركنا في النوم، وتسافر إلى أزمان أخرى وأماكن بعيدة، وتلتقي بأرواح تحكي لها ما كان. وفي الصباح أفيق، فأجدني مشفقا من هول ما سيكون. وذات مساء جرى ما لا يصدقه أحدٌ، لكنه حدث، وقضيت سنوات أفسر كيف حدث؟ وهل هناك حوادث متشابهة؟ ولم أصل لإجابة شافية. أسرعت لتدوينه كاملا مفصلا، رغم أني لا أظن نسيانه يكون. فقد قال أبي مما قاله، وهو يرقيني: «إنه نذر حجة لبيت الله الحرام»، ولا يعلم، أني رأيت، فيما يرى المُنَوّم من فرط الحُمّى، الكعبةَ في زمن غابر، زمنِ ما قبل مولد سيد الخلق. غمرني ضوء، فرأيت شيخا مُسنا تعلوه غمامة، فوقها لاح اسمُه مُنيرا مُلتفا كهلال، قرأته واضحا «الجُرْهُمي» يتوسل للسماء وفوق كتفيه غزالتان من ذهب. زاد توسلُه المكروب، فنبتت للغزالتين أجنحة من ريش أبيض بلّوري، ودب فيهما روح، فنزلتا تشربان من بئر زمزم، وخلفهما الجرهمي يُرقد ويدفنُ أسيافا من ذهب وفضة، ورقاعا من جلد غزال مطوية. ويفوح منها اسمي، ببعض تصحيف «محب بدلا من محيي» محب الدين بن عربي، ثم أهال الكثير من تراب أحمر، حتى اختفت البئر النابضة.

أفقت، فسرحت في تاريخ مكة. عاش إسماعيل عليه السلام سنين

وتمتعت ذريته بالشرف والجاه، قبل أن يقوم أخوالهم بسلبهم الرياسة واغتصاب أمر البيت. غير أن رجلا واحدا هو «مِضاض بن عمرو الجرهمي»، أراد أن يُعيد الحقوق، بعد تفشي الظلم في عموم مكة وحواليها، بل تسلل الطغيان لداخل الحرم، وطال البيت، وأكلوا من كل مال يُقدم للكعبة، واستباحوا أمن الحجيج، وانتشر الشر كسُحب دخان أسود.

حاول الجرهمي نصيحة قومه، فلم يسمعوا ولم يعوا، وغاية الظلم ظلمٌ أقوى شوكة، فرجع أبناء خزاعة من هجرتهم اليمنية، واستولوا سيادةَ مكة، فيئسَ الجرهميُّ، وألقى بالبئر غزالتين وجدهما في جوف الكعبة وسيوفا وأدرعا ودفنهما وغطّى البئر، داعيا الله أن يرزق مكة برجل يُعيد إليها الأمن وإلى البيت ما يستأهل من شرف. استمرت سيادة الخزاعيين قرنين، حتى جاء «قُصي بن كلاب» جد النبي ﷺ، فهيمنت به قريش على الأمور.

من فرط الإعياء نمت ثانية، وسِفرٌ عن تاريخ مكة بين يدي، فرأيت فيما يرى المُضنى من فرط وَجْدٍ لا يجِدُ منبعَه، رأيت «قُصى بن كلاب» قمريّ الوجه نورا وتدويرا وبهاء، تلفه لحية كثة يغزوها شيب لا يكاد يترك أثرا لسواد شباب، شاب حزنا على ما آل إليه بيت الله، أقنى الأنف، أدعج. هل اكتحل بغير مكحلة؟ عريض الجبهة، واسع ما بين المنكبين، طويل القامة، يليق أن يكون نبيا أو ابن نبي من ذريته يخرج سيد الأنبياء، وكان مهموما مثلما يهتم من يختارهم التاريخ لتسطير أسفاره الفاصلة والمؤسِسة لما بعد. رأيته يكلم نفسه: «كيف باتت مكة إلى ما آلت إليه، ظلم بيِّن وظلام، ما نمت مُذ خاضوا في نسبي ورموني أني غير نقي الدم. رحمتك السماء يا أمي، كأني أسمعك تقولين وقد راجعتك في هجرتك وأنا في

بطنك جنين، وزوجك «ربيعة بن حرام» ليس بأبي، قلتِ يا كريمة المنشأ والعنصر: إنك يا بني أكرم منهم نسبًا، أنت ابن بناة الكعبة. قلتِ لي، ونحن بالشام: لا تعجل بالخروج حتى يدخل شهر الله الحرام، فتأتيهم حاجًّا.

ها قد انتهى الحج ومضت بي السنون في أرض أجدادي، أَسُودُ كما يليق بنسبي الكريم، كثر الولد من بنت خزاعة. إن الولد والمال بشارتان وإشاراتان على وجوب عودة البيت لسابق عهده، عهد إسماعيل».

قام في الناس خطيبا فصيحا:

«أيها الناس، تعلمون مكانتي بينكم ومكانة بيت الله الحرام على أرضه. أنا قصي بن كلاب بن مرة، ما علمتُ لكم من حازم أمين مثلي، وقد مات من امتلك سدانة البيت، فآل مفتاح البيت إليّ، اشتريته وقد شهد القوم. فما بال القوم ينازعون فيما لم يعد لهم، وما كان ينبغي أن يكون لهم».

وحواليه رأيت غبار الخيل، وتوالد مفتاح البيت بيده مفاتيح، فحاز الشرف مع الحجابة والسدانة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة. رأيت كل ما جرى كأني بين القوم، تتبعت في مناماتي المهتزة خطوات قصي وهو يُجمع أفراد قريش المتناثرين والمبعثرين ليسكنوا مكة، فقرأتُ على جبينه: «هذا هو المُجَمِّعُ». عاينته، كلما همّ بحفر بئر زمزم منعته غمامات منذرة هادرة: «إن هذا ليس لك» حتى قضى.

وانقضت الحُمّى، وحسبتُ أن ما رأيت انتهى، لكن الحق أنه صار تأملات فيما جرى، رأيت الغزالتين يقطر منهما ندى ماء مقدسة. لماذا غزالتان من المشرق تزوران فتى بأقصى المغرب، منذ حنّت إليّه غزالاتُ أحراش في الأندلس الحزينة؟».

بوابة إشارات

إذا عاينت ذا سيرٍ حثيثٍ.. فذاك السيرُ في طلبِ الرغيفِ

فيكتوريا كولدج

على الرغم من المتاعب فإن أغلب البدايات سعيدة، يحدوها أمل وتسوقها أمنيات. البدايات الناجحة هي تلك التي نحدد لها هدفا. لا يجب أن نرتعش من ضخامة الأهداف أو صعوبتها أو حتى استحالتها. فكلما سرنا خطوة، تبقت بضع خطوات على طريق طويلة. أما إذا ارتجفت أقدامنا من مهابة العنوان المقصود، أو هي تصلبت أمام ملاهي الطريق فإن الطريق ليست طويلة، هي مغلقة أو غير موجودة. بعض الطرق على مرمى همة حركة مِنّا، وكل المسافات على قد كلمات نرددها بصدق «إنا مخلصون وقادرون».

لأيام ترددت في متابعة سير المهدي وما يحكيه في مخطوطه، هل فقدت الهدف؟ أم شكوك طارئة مسّتني في أن كثيرًا من الحكايتين تخللتها خرافات أو صبغتها ظنون مجنون؟ الذي جعلني أستمر، هو أنني ما اخترت رواية الحكايات، هي اختارتني واجتمعت لدي. قلت: لو اخترت طريقا فاصبر، وإذا اختارك طريقٌ فاركب ظهر فرس أحلامك. والإشارة ساطعة، لا تغني عنها كلمة ولا ألف عبارة، كيف أشرح ما يصلني وأراه، يكفيني أن أخبركم بأنني حين مسّني تردد والتحفت بكسل، أيقظني صفيرٌ لطيفٌ من بُلبلٍ يقف على نافذتي. هل جاء ليقول: «قُل». فرأيت أن أفضل العبارات لا تفي بما تحمله الإشارات، وإن أفضل استقبال للإشارة هو الاستمرار في الحكاية.

عليّ المُضي وعلى الأيام إثبات المغزى. كلنا مغزى لا نعرف مقصوده. إذا تخفى هدفك وراء الشكوك، فاستعن بنور الإشارات. فأقول: بينما أحاول ضبط نصِ المخطوط وترقيمَه والفصل بين متنه وهوامشه، لتمييز حكاية ابن عربي الصعبة عن سيرة المهدي التي ألممتُ بتفاصيلها من حَكْي زين العابدين، وجدتني منشغلا بصديقي. الواقع أنه بدأ يتعافى شيئا فشيئا، وأمكنه مشاركتي الكتابة، شجعته، أعجبني منطقُه وترتيبُه للكلام. اتفقنا على أن يكتب بين الحين والآخر عن حياته، واقترحت عليه أن يستهل من نشأته، لأن بها سرورا كما عرفت، لكن حالته الصحية لم تُسعف قلمَه، فحكى وترك لي التدوين عن لسانه:

«أي سرور أنا فيه، وبه أطير في فضاء مُضاء بالبسمة، أحبها وتحبني مُذ قيل لي «خذ بالك منها». كنت بالسنة السادسة الابتدائي، أذرع كلية النصر النشيطة في طرف المعادي الهادئة، أبقى قريبا لها في الفسحة، أطمئن على ابنة عمتي الصغيرة، هل كنت أحفظ أُنشوطة (فيونكة) ضفيرتها المرسلة السوداء؟ لها اثنتان، واحدة حمراء بلون الورد الزاهي بحدائق المدرسة، وثانية بلون سماء دنيانا الجميلة. لا أدري كم مرة فكرت في عدِّ خُصُلاتٍ تُغطي ثلثي جبهتِها، فتضيق عيناها الرائقتان. كم ضاقت عيناي وأنا أفتش عنها وسط حشود التلاميذ قبيل طوابير تحية العلم الصباحية، يطوف ناظري بالملاعب الشاسعة، فلا تخطئها العين. كم غضبتُ وهي تغني في الحفلات المدرسية. مدرستنا لا تنتهي حفلاتها، فيها درس كبار الفنانين، وعلى مسرحها شخصوا الأدوار صغارا.

تُغني وهي تنظر لكل الجمهور من تلاميذ وأولياء أمور، تقول: «أنت والمدرسون والمدرسات، ليس بوسعي أن ألتقي بعيونكم». عيوننا قالت الكثير على الرغم من انضباط المدرسة القاسي».

بَنَتِ العنايةُ روايةَ حب، حَلمَ وهو في سنة ثالثة إعدادي لو كتب قصة مغامرات كألغاز «المغامرون الخمسة»، يكونان بَطَلَيْها، هو «تختخ» وهي «نوسة». بعد أول محاضرة بآداب القاهرة حنّ، هرع إلى المدرسة العريقة، التقاها، قال لها: أحبك، فاضطربت مريلة المدرسة، ورقص قلبه على إيقاع نبض حُمرة خديها، فصارت الطريق من «فيكتوريا كولدج» وحتى «شارع تسعة» زرقاء.. «سرنا في السماء، وأقدامنا تُقَبِّل الأرض».

من الإسكندرية بعث زين لابنة عمته أول رسالة حب، بعد أن هشّه جنودٌ يحرسون شوارع عروس البحر خوفا على شكل زيارة سيد العالم، ومن يملك في يده تسعة وتسعين بالمائة من أوراق اللعبة، كتب لها: «حبك لم يدع في قلبي مساحةً أكره بها نيكسون». يومها جاء الرئيس الأميركي نيكسون كما لم يأتِ من قبله زعيمٌ للمحروسة، استقبله مصريون بالرقص والمزمار والورد. الورد نثروه على رجل بنى جسرا جويا لإنزال الدبابات من المصانع إلى الجبهة حيث جيش إسرائيل المهزوم ليلتقط أنفاسه الحارة، ويسترد بعض وعيه. وعي المصريين لم يزل عفيا، المصري يتغابى، يتناسى، تتكاسل ذاكرته، تنام، تصغر، تتضاءل كذاكرة سمكة، لكن بأعماقه تموج بحور مسجورة، ويفور جنون وفنون وثارات لا تهدأ حتى ينام الأبناء المقتولون مرتاحين.. «لو اكتفى بالعبور» يقول زين: «لبلغ عندي درجات الأولياء، ولظللت طول عمري أحترمه كأبي وأجدادي».

للنصر فائدة وله من الضرر ما هو أبلغ. كسبنا المعركة، ثم على عكس قوانين الانتصار، قدم الرئيس المؤمن التنازلات الغريبة واحدا تلو آخر. بدأت التراجعاتُ سريعا باتفاقيات فض الاشتباك، ثم استضافة

رئيس أمريكا سيدة العالم، حليفة إسرائيل وأمها، استضافة الفاتحين. لم تكد سنة تمر على دماء زكية بللنا بها سيناء ونزفت بسلاح العم سام، حتى استقبلنا القاتل استقبال العبيد لمن يعدهم بصكوك حرية ورخصة حياة جديدة، حياة التبعية المطلقة والذل الدائم والركوع الأبدي. طاف الرئيس الأميركي بسيارة عبد الناصر المكشوفة في شوارع مدينة لا تزال رغم أفراح النصر، تلملم سرادقات العزاء في أجمل بشرٍ عرفتهم مصر، شباب صبروا فعبروا وقضوا نحبهم في صمت.

قال الفقراء: «إن نيكسون وصل قبل قافلة صدقات المعونة الأميركية، قافلة طولها ما بين نيويورك وبورسعيد». ألم يقتل الأميركي أهلنا في بورسعيد؟ الدم لم يزل ساخنا، ونارٌ بالصدور، ونثرنا على القاتل الورود. أيّةُ أمة تلك التي تستقبل قاتل أبنائها بغير الرصاص؟ سارت العرباتُ بين حشودٍ تحمل الزهور. قال نيكسون: «إن الشعب المصري انتظم كحديقة حول سيارته المكشوفة».. هل قصد حديقة حيوانات؟

نيكسون لم ير زين العابدين والجنود يمنعونه من المرور. لو فعل؛ لعرف كم يكرهه زين كطفل يتيم ينظر وجه ميتمه، وسيظل. قبل ذلك بعام، كانت الأخبار تأتي من الجبهة كحلم جميل، نعض عليها بنواجذ العقول، لذا اعترتنا الدهشة: كيف أسرعنا إلى فض الاشتباك، بينما العدو كما قالت لنا صحافتنا مثخنٌ بالجروح، وقاب قوسين أو أدنى من انهيار تام مفتوح على أجمل أمنيات التوقعات؟ ولا مفتوحة غير سوقنا لكل البضائع الترفيهية والكمالية. مصر لم تعد التي نعرفها.

غار نيكسون، ومات المعلم «محيي الدين المهدي» آخر ما تبقى مع ابنته «فريال» وحفيدته «تسنيم» وابن خالها «زين العابدين» من سلسال المعلم الكبير، رحل حزنا لوفاة ولديه في حياته، والد زين، ثم النقيب نور الدين المهدي الذي قتلته دانة مدفع دبابة جسر

الرئيس الأميركي، ولم يكن بوسع القلب متسع ليعبر فوق جسرٍ للمحبة دون ثأر.

يقول زين: «مات المعلم ورائحته تسكن الأماكن، وتحيا كلماته بقلبي ورؤاه، نقل الوصية كما وصلته: «لا مساس بحجرة الشيخ المهدي، تركت ما يكفيك إن اقتصدت»، حشرج وتلا الشهادة. هل قال: إن أسفل الحجرة كنزا؟»

وإلى المعادي أعود لما كان قبل مائتي عام. ففي الليلة الأولى حينما سكن المعلم المهدي مقابل الدير، مراقبا الطيور الصغيرة مشتجرةً على حوافيِّ جَرَس الكنيسة العتيقة، حامدا لله أنعمَه بعد أن رأى نورا يُبدد ظُلمةً مُوحشةً خانقةً لا نهاية لها وتضيق حول بيته الصغير. لا إنس إذا جنّ عليه الليل ولا جان، وقد لا يبدو بسماء الله نجم. فيا سادة يا كرام، يا من ذقتم وحتما سوف تصدقون ما جرى، ويا من ما زلتم على حرف شكٍّ ولعلكم سوف تعذرون فترجئوا حكمكم على حكايةٍ بآخرها قد يمسكم من كأس الصبابة خيالُ رِيٍّ، فيُحكى أنه في تلك الليلة أرادت الظلمة أن تتبدد، ورويدا رويدا سرى بجسد النائمِ تخديرٌ، فخضع الجثمان وصحا روحٌ يبحث عن خلاصه، إذ دخل بلا استئذان طيفٌ طيبٌ لشيخ له رائحة زكية.. هل كانت الرائحة خضراء؟

يذكرُ أن الشيخ المرتدي جلبابا زاهيا، كان متقنعًا بوشاح أخضر قديم وزاهٍ، على رأسه شالٌ من أعلام محمل الحج داكنٌ مهيبٌ وأخضرُ أيضًا. يأمره بإطعام أضياف قادمين في رحلة الشتاء من بلاد تُسمّى الأندلس، ولا يعرف المهديُّ عنها غير ما سمعه في كُتّاب زاوية «أبنوب الحمّام» قبل سنين، ومما تعلمه من الهارب «حسن

العطّار» في ضيافة أخواله بالغنايم، من أنها فوق بلاد المغرب على الشاطئ الآخر للبحر العظيم، وأن شيوخا مسلمين عاشوا هنالك، ومملكة للعرب ظلت قائمة مئات السنين، وأن منها أتى رفيقُ رحلةِ هروبِه، وصاحبُ حضراتِه الأسبوعية. حيث يقرأ المريديون من كتاب ضخم لا ينتهي، ومُربك لا ينفك منه سطر حتى تشتبك معانٍ وتشتجر سطور. وإن كان بحثه في سيرته مستمرا، إلا أنه ما زال لا يعرف عن صاحبه الكثير، وتؤلمه بين الحين والآخر شكوكٌ في ولاية الرجل الأندلسي المُرسي، بيد أن في روعه استقرت ولايته، وأنه قطب من أقطاب الزمان؟ «أم أنه دَعِيٌّ كما يقول بعضهم، وزنديق، وأسوأ من ذلك كذلك؟»، كذا تُردد نفسه بساعات ضيق. أفكارنا السيئة تغمرنا في ساعات مزاجنا السيئة.

هل نهضت المرأة العاقر من نومها فخجلت وغطّت فمها ونصفَ وجهها بطرف طرحتها، أم أنه ما زال في الرؤية العجيبة وحده، لا نائم ولا يقظان، يرى من العلامات والإشارات ما لا يحتمل حكايته عند الصباح:

«التفتَ الطيفُ الضيفُ للمرأة، ناداها باسمها واسم أمها، قال: إن الدم أوشك على إرجاء موعده، بقيت بضعُ خطوات، ومجموع عبارات، وبارقة إشارات لامعة. وحين يُراق الدم فلن ينزف دمٌ قبل شهور ثمانية، ومضى يتلو: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾. ومن ورائه أنوار متلألئة تنادي: «رحلتنا لم تنتهِ يا بن عربي، هي بالكاد بدأت».

انتبه المهدي وقد مضى الروح الطيب. هكذا تيقن أنه روح، وما درى سبب يقينه وسره. مع الفجر نشط فتوضأ وأيقظ أهله، رفع نداء الحق. ومع شمس بؤونة الساطعة اختلط عرقه بأفكاره فوق بغلته في طريقه لدولاب فخاره بـ«مصر عتيقة»، يستمع لعبث ريح خفيفة

تلعب بسهوب خضراء ترضع من شمس حامية. بفطرتها تُبطئ البغلةُ عند ظل شجر الجميز العتيق وجوار النخل المائل باتجاه صفحة ماء قريبة، ثم تسرع إذا فقدت ظلا. الشاطئ الغربي يخلب الأعين على مدى الشوف، لا حصر للنخيل. صندل يمر هادئا يشق النهر باتجاه الشمال فيضطرب الماء، ويجري فيلمس الطريق المُتربة. تزيد الحرارة إذا زاد النيل ويطمئن الناس. يراوح بصره بين النهر على شماله وغيطان القمح عن يمينه باتجاه القبلة. عن يساره ابتسم لمقياس النيل، فأحس أن البناء الشامخ يبادله ابتساما. غض طرفه والنسوان يرفعن من جلابيبهن نازلات درجا قصيرا يملأن الجرار. بنات صغيرات نشيطات يغسلن الأواني على الشط الهادئ الغامر. أفكارٌ غمرته وسكينة لطّفت من قيظ الحرارة: «ابن عربي؟ لا يفارقني التفكير في كلامه ورحلاته، في كل حضرة يمسّني الحرف الصعب، أبكي في الليل وأنا أحاول استجماع قوى عقلي لأشرب مما رواه عن الحقيقة المحمدية. ثم أيُّ أضيافٍ عليّ إطعامهم، هل يكونون تلك العصافير المرتكنة فوق ما صنعت يداي، والمرتحلة فوق صفحة النهر؟ أي رسائل عجيبة، وغامضة؟».

مضى بالصلاة على النبي، انتظر «الدوّاس» يُلَيِّنُ له شريحةً تكفي شُغلَ اليوم من بيت طينٍ مُكدّسٍ ومُعتّق بطبقات من طينات متراكمة قبل شهور. أدار حجره أو دولابه وقطّع طريحتين من قصاري الزرع، وهو ينشد بصوت جميل:

ألا يا حَماماتِ الأراكـة والبـَانِ   ترَفّقْنَ لا تُضْعِفْنَ بالشجوِ أشجاني

لكن قبل أن يسكن بالمعادي، فإن للحكاية تمهيدا أشبه بالصلاة على النبي، أو هي كما يتأمل سلسالُ نِتاج ظَهْرِ المعلم الفخراني، من بركة الصلاة عليه: فمن الأرض المباركة سيناء قبل ألفي عام

وصلت السيدة العذراء وابنها، في «المعادي» ارتاحت قليلا، ومن محل القرية القديمة ركبت بوليدها المبارك مُعدية فعبرت إلى الشاطئ الغربي عند «ميت رهينة» قرب البدرشين. وتستمر أمُّنا بوليدها في رحلتهما الميمونة التي شرّفت الصعيد المصري حتى دير جرنوس بمغاغة المنيا. وفي مكان حلول بَركَتِها بنى المصريون ديرا باجتهاد في الاهتداء للمكان أو قريبا منه، حتى كانت بداية القرن الثامن عشر، فجاء القديس «مرقوريوس أبو سيفين» من مصر عتيقة، وشيّدَ الناسُ ديرَ العدوية على النهر، عند بستان «العدوية»، وهي امرأة مبروكة مغربية جاءت مصر قبل قرون. وبعد عشرات السنين رمّم الرهبان سرا وعلى خوف ديرَهم القديم، وفكّر راعي دير أبي سيفين بمصر عتيقة في صناعة جرس ضخم من الفخار، ثم يُشق نصفين بالطول، ويُصب حول كل واحد المُلاط، فإذا جف المُلاط صبوا مكان قالب الفخار سبيكة من نحاس وقصدير. فدلُّوه على صانع فخار ماهر يُدعى المعلم المهدي، جاء لمصر عتيقة قبل سنوات، وبنى دولابا خلف جامع عمرو بن العاص القريب من دير أبي سيفين.

أتاهم المعلم ونقدوه عربونا مغريا، ومع الجرس ـ لتخفيف أثر طلب غريب على شيخ تبدو عليه علامة الصلاة ـ طلبوا منه صنع خمسة عشر زيرا وأربعين بلّاصا وثلاثمائة قُلة. واستخار المعلم المهدي ربّه ليهتدي في إجابة الطلب أو رفضه، فجاءته البشرى في المنام: طائرا أبيض يقطر من جناحيه ماء، ويكلمه كلام البشر، يحكي له كم هو جائع، ويريد السكن إلى جواره بعزبة العدوية. مع الشروق داس بقدميه قطعة مناسبة من الطين الأسود المجلوب مع الفيضان من بلاد الأحباش، صار الطين لينا سهلا ممزوجا بتراب ناعم من جوف بيت نار فرنه، ومندوحا بقطرات ماء من أصابعه، أصبحت العجينة طيعة جاهزة تحت قدميه المتنقلتين

في حركات سريعة مكررة ورتيبة كحجلات راقص نشيط. كان يعرف ما يريد تماما حينما أدار برجله اليسرى طبلية دولابه، فبانت استدارة لفة الطين بين يديه الرشيقتين. لفّ كفيه بإحكام وحنان حول قطعة الطين المعجون، ومع اللف استحالت أسطوانة انسيابية واستطالت معتدلة. ظلت كفه اليسرى تحيط بالطين ولا تكاد تلمسه، فيما تسللت اليمنى فوق الأسطوانة، غزتها بخفة وسرعة، فاتسع الطين واستحال إناءً مرتفعا، وبالدوران بدت فوهةُ الجرس. هدأت لفاتُ قدميه المتبادلتين على طبلية الدولاب، والتقط عصا على مقاس الجرس المهشم القديم، ثم زاد الاتساع مقدار أصبعين تحَسُّبًا لانكماش الطين بعد ذلك بفعل النار.

الغريب، على الراهب الذي وقف يراقب الدولاب الدائر من دون أن يُحس الفخراني، هو تلك الشِّفةُ المتدلية المحيطة بقاعدة الجرس أو فوهته. بأدبٍ قطع الراهبُ صمتَ مكانٍ محفوفٍ بطنينِ لفةِ الطبلية، وسأله:

ـ الجرس القديم يا معلم، ليس به هذه الشفة. هل هي من لوازم الصنعة، وستزيلها عند الانتهاء؟

ـ بل سيظل الجرس كما ترى.

توقفت الطبلية عن دورانها كرقصة مولوية تُهدئ من النفس، والحديث يدور بينهما. نزل المهدي من فوق دولابه، جلس للراهب، صارحه بما رآه عقب صلاة الاستخارة. ابتسم الراهب، كان من البديهة والذكاء، بحيث عرف أن المعلم الفخراني أراد جرسا بمجرى ملتفٍّ حوله، يمتلئ قمحا وبُرغلًا، فتأكل منه طيور تأوي مطمئنة على شط النهر بعد رحلة طويلة.

أتم المعلم المهدي ما طُلب منه على وجه السرعة، وحمّل بضاعته على عربة، توجه للدير عند العدوية على شط النيل، انتظر

انتهاء راهب الدير من خلوته، وجلس ينظر بديع صنع الخالق في شجرة تبعد عن الشط بضعة أمتار، يتأمل جذعها المرتفع بنحو ثلاثة أضعاف طوله، متجعدا كالزمان، تفترق عنه جذوع ممتدة طويلة، ومن كل جذع يخرج أبناء وبنات، وتتفرع وتمتد فتصير خيمة مرتفعة سامقة خضراء. تعجب لماذا يسمونها «ذقن الباشا»؟ «هل زرعها الباشا؟» هي أقدم من أعمار كل الباشوات، لا فضل لأحد عليها. قد تكون بذرتها سَبَحَتْ وهي تُسَبِّحُ خالقَها مع الفيضان من بلاد الأحباش، ثم استقرت طيبةً على النهر، واستظل بها من استظل، شربت من ماء قريب، ثم امتدت عمقا، كما استطالت لفوق، فوصلت لنبع الماء في الأرض، وكادت تكون أول من يستقبل الأمطار الشحيحة.

«لا فضل لأحد عليها، ليتني شجرة، وليت لي من البنين والبنات مثل ما لها من فروع، هل أموت وحيدا؟ لا أثر ولا ورثة، لطفك يا لطيف». قال: «لو أستطيع، سأصلي على النبي الكريم بعدد تلك الأوراق».

غلبته سِنةٌ من النوم، ولا يدري أين ولا كيف نام بعمق لفترة قصيرة؛ فرأى: «امرأة وضيئة جميلة غير متنقبة ولا هي سافرة، مسافرة وخائفة وعائذة بجاه النبي الكريم أن تنجو. تصلي بصلوات مرتبة مسجوعة، حتى غشيت محلي وكنت واقفا، فأشرتُ لناحية الدير، فدلفت داخله، ومن ورائها عشرات من العسكر على خيول مقتحمة حولي كل مكان. سألوني عنها، فسكتُّ وقفلوا عائدين حتى اختفوا واختلط ذعرٌ بغبارِ خيلهم، فناديت على المرأة أن تخرج فهي آمنة، فركبتْ معدية وهي تشير إلى مكان قدمي، قائلة: احذرْ، فأنت تقتفي خطوات التي أحصنت فرجها فَنُفِخَ فيه، قد التقيتها وهي عنك راضية. وحق رسول الله،

أوصيك أن تُبلغ النسوة والناس من ورائهم أني بريئة مما ارتكب زوجي، فلم تكن بيدي حيلة لأوقف الضرائب والاغتصابات. وسيدتنا تقول: إن بَركةً مسّتك لمّا تتبعت خطاها، فلا تترك ذكر الله، وأطعم المساكين والطيور، فليس لبركة ربنا منتهى، وعقبك سيرثون من بركةٍ مررتَ بها.

«من أنت» سألتها؟ قالت: «ابنة أحمد كتخدا وزوجة عثمان بك البرديسي متولي كشوفية برديس. يا هاربا وليس مذنبا، كُن آمنا».

انطلقت المركب، ورنّت بأذني هتافات حشد من نسوة فقيرات، يضربن على دُف وطبول يُغنين: «إيش تأخذ من تفليسي يا برديسي».

كعصفور غفا، وصحا فإذا دفوف وزغاريد على معدية راسية تحتفل بنقل أثاث عروس جديدة. حيّاهم، وقام يمسح بيديه محل نومه، متسائلا: «هل من هنا مر سيدنا المسيح وأمه السيدة العذراء؟ وكانت امرأتي عاقرا، أو تراها بذرتي ميتة». سجد، قبّل أرضا حُبلى برائحة نيل عفي كفحل، وهمس: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

انتبه، فاليوم السبت، ما نسي سبتا يوما. انطلق حيث المكان المحدد قبل أسبوع. كل سبت يختارون مكان الحضرة التالية، يطوفون بين المساجد والبيوت حسبما تيسر، طيور هائمة بالوجد وبالعشق، يقرءون من كتاب واحد، منذ سنوات أربع وما أتموا غير صفحات. يبدءون بعد صلاة العصر، ويرتاحون قبل المغرب، فيأكلون من طعام لا يفوته لحم ومَرَق، والحلوى تؤجل ساعتين تخترقان العتمة، ثم يذكرون الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى، يكررونه مع تسبيحات وثناءات تُردد من مئات السنين، ويختمون بالصلاة على نور الوجود ومصطفى المعبود واختيار الحق من قبل أن يُخلق الوجود، وينصرفون

وقلوبهم تُمني نفسها بالتحليق في فضاء الرؤى، والتماهي مع النجوم التي تبدو كل ليلة قريبة.

انطلق مشغولا بما رأى، هل يحكيه؟ بعض الرؤى أسرار، فسادُها حكيُها، ونفاذها حفظها كجوهرة ثمينة. يملؤه سرور، ويُنعشه، وطفل يرجوه يملأ خياله: «لو شاء الله، فأنا نذري عليّ واجب، سأجدد هذه المئذنة، وسأذبح لأهل الله والمساكين».. بدا مسجد «ساعي البحر» بمصر عتيقة، عرضه دون رشاقة طوله، تصطف سلاسل أربعة من أعمدة رخام مشوب بتعاريج صفراء، تحمل سقفا تنظر من باطنه عروقُ خشب سنطٍ بُنيةٌ قويةٌ، تُرصعها قناديلُ يريد زيتها أن يبتسم للذاكرين الله كثيرًا.

توجه المعلم المهدي حيث القبلةُ شرقا فحيّا بركعتين، مال باتجاه الجنوب متأملا ضريح الشيخ محمد ساعى البحر «أبي الشفقة» شريفٍ من نسل طاهر. قبل قرون نقص النيل وما فاض في موعده، فارتعد الناس من ذكريات القحط وسنوات الجدب وليالي الشدة. ارتفعت الشكوى وضجت المحروسة بالأنين. فخرج ساعي البحر إلى شاطئ النيل مقابل الفسطاط، وبكى ودعا الله أن يفرج الكرب ويغيث الأمة ويكشف الغمة ويفيض النهر. ومضى لبيته، ورأى من يُلِحُّ عليه بالبحث عن خطاب قديم حمله الصحابي «حاطب بن أبي بلتعة» من أمير المؤمنين عمر إلى المقوقس حاكم مصر قبل فتحها، حتى وجده وحفظه إلى جواره. وفي الصباح انطلق للنيل وألقى فيه كتاب عمر، ففاض الماء وروى الناسُ أراضيَهم المُشققة الثكلى، وما حكى ما فعل إلا بعد إلحاح تلامذته، فقال: «إن عمر بن الخطاب جاءه وأمره بذلك في المنام». حمل كساعي بريد رسالة حاكم عادل إلى نهر تأخر وعدُه، فعرفه الناس بـ«ساعي البحر». وسلّم المهديُّ على عجل،

قرأ الفاتحة لصاحب المَقام وأطال المُقام. لم يعتد ما تفعله العامة من تمسح لا يليق. كُلُّ ما دار بخَلَدِه ارتباطُ الشيخ صاحب المقام بالنيل مع ما رآه هو على بعد ميلين على نفس الشاطئ الشرقي للنهر.

انتظمت دائرة الحضرة، الشيخ حسن الأعرج في الصدر على كرسي يقرأ من الفتوحات المكية لابن عربي، ويتوقف في كل ورقة مرتين أو ثلاثا، فيسأل، أو يتلقى خواطر الحضور. على غير العادة، لم يتكلم المعلم المهدي طوال الحضرة. وبعد صلاة العشاء سأله الشيخ: «سلامتك يا معلم، لست معنا، قلبك ما معك ولا معنا». الحقيقة، أن المعلم طوال الحضرة من العصر وحتى المغرب، وقبلها بليلتين، لم تفارقه رؤياه، وما حملته من بشرى غلام وبركة. وبصعوبة جمع عليه نفسه والشيخ حسن يقرأ: «والصلاة على سر العالَم ونُكتته، ومطلب العالِم وبُغيته، السيد الصادق المُدَلّج إلى ربه الطارق، المخترق به السبع الطرائق، ليُرِيَه مَنْ أسرى به ما أودع من الآيات والحقائق، فيما أبدع من الخلائق، الذي شاهدتُه عند إنشائي هذه الخطبة في عالم حقائق المثال، في حضرة الجلال، مكاشفةً قلبيةً، في حضرةٍ غيبيةٍ..»

توقف الأعرج وتنهد مُعجبا بلغة ابن عربي، ومثنيا على صلواته الفريدة البديعة، مُظهرا مكانة الحقيقة المحمدية التي هي سر العالم ونكتته، أي أثره الحاصل وعلامته اللطيفة الخفيّة. سألهم الشيخ عن خواطرهم. تكلم اثنان قبل أن ينبري المعلم قائلا: «اللهم صل وسلم وبارك على نور الدنيا.. إن الإمام ابن عربي يستهل خطبة كتابه بصلاة تشبه حاله. فهو في طوافه بالكعبة عاش في معراج إلى السماوات السبع، فذكر رحلة النبي واختراقه صلوات ربي وسلامه عليه السمواتِ الطرائقَ، فأراه الله تعالى في ملكوته من بديع صنعته. ولذلك سبقت صلاة ابن عربي على النبي ﷺ بهذه الصيغة كلامَه عن

حاله هو عند تأليفه كتابه، فقد التقى بالرسول الكريم في مكاشفة قلبية، وفي حضرة جلال غيبية».. صدح الأعرج: «اللهم صل وسلم وبارك عليه».. فصلّى الحاضرون وراءه وتمايلوا.

ثم استمر قارئا: «ولمّا شهدته ﷺ في ذلك العالم، سيدا معصومَ المقاصِدِ، محفوظَ المشاهِدِ، منصورا مؤيدا، وجميعُ الرُسلِ بين يديه مُصْطَفُّون، وأُمّتُه التي هي خير أمةٍ عليه مُلتفون، وملائكةُ التسخيرِ من حول عرشِ مقامِه حَافُّون، والصِّدّيقُ على يمينه الأنفسِ، والفاروقُ على يسارِه الأقدسِ، والخَتْمُ بين يديه قد جَثَا، يخبره بحديث الأنثى، وعَلِيٌّ يترجم عن الخَتم بلسانه، وذو النورين مشتملٌ برداء حيائه، مقبل على شأنه. فالتفت السيدُ الأعلى والموردُ العذبُ الأحلى والنورُ الأكشفُ الأجْلى، فرآني وراء الختمِ، لاشتراكٍ بيني وبينه في الحُكم، فقال له السيد: هذا عديلك وابنك وخليلك، انصِبْ له مِنبرَ الظرفاء بين يديّ. ثم أشار إليّ: أن قُم يا محمد عليه، فأثن على من أرسلني وعليّ. فإن فيك شعرةً مني، لا صبرَ لها عنّي. هي السلطانة في ذاتيتك، فلا ترجع إليّ إلا بكُلِّيتِك، ولا بد لها من الرجوع إلى اللقاء، فإنها ليست من عالم الشقاء، فما كان مني بعد بعثي شيءٌ في شيءٍ، إلّا سَعِدَ، وكان ممن شُكر في الملإ الأعلى وحُمد. فنصب الختمُ المنبرَ في ذلك المشهد الأخطر، وعلى جبهة المنبر مكتوبٌ بالنور الأزهر: «هذا هو المقام المحمدي الأطهر، من رقى فيه فقد ورثه، وأرسله الحقُّ حافظا لحرمة الشريعة، وبعثه». ووُهبتُ في ذلك الوقتِ مواهبَ الحكم، حتى كأني أوتيت جوامعَ الكلم، فشكرت اللهَ عز وجل. فلما وقفت ذلك الموقف الأسنى، بين يدي من كان من ربه في ليلة إسرائه قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى، قمت مُقَنّعا خَجِلا، ثم أُيِّدتُ بروح القدس، فافتتحت مرتجلا:

يـــا منزل الآيـــات والأنبـــاءِ أنْـزِلْ عليّ معـالـمَ الأسماءِ
حتى أكـونَ لحمـدِ ذاتـك جامعًا بمحامـدِ السّـرّاءِ والضـــرّاءِ

ثم أشرت إليه ﷺ:

ويكـون هذا السيد العلـمُ الذي جـرّدْتـه من دورة الخُلفـاءِ
وجعلته الأصـل الكريـم وآدمٌ مـا بين طينـة خلقـه والمـاءِ

ثم شرعت في الكلام بلسان العَلّام، فقلتُ وأشرت إليه ﷺ.. حمدتُ من أنزلَ عليك الكتاب المكنون الذي لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. ثم قلت: «وكانَ عَرْشُهُ عَلَى ذلك الْماءِ قبل وجود الأرض والسماء وليس في الوجود إذ ذاك إلا حقائق المستوَى عليه والمستوِي والاستواء، فأرسل النَّفَسَ فَتَمَوّجَ الماءُ من زعزعه، وأزبد وصوّت بحمد الحمد المحمود الحق، وقال «أنا أحمد» فخجل الماء، فهو مخضة ذلك الماء الحاوي على أكثر الأشياء، فأنشأ سبحانه من ذلك الزبد الأرضَ مستديرةَ النشء مدحيةَ الطول والعرض».

انشغل المريدون بالكلام البديع، قال أحدهم: «إذن الحقيقة المحمدية أنها أصل الماء المحتوي على أكثر الأشياء». قال آخر: «إذن فالفتوحات كلها، جاءت مكاشفة أمام النبي ﷺ، وبين يديه الخلفاء الأربعة والمسيح عليه السلام، فارتقى ابن عربي، وراح يكتب ويؤلف ويُنشد». ختم الشيخ حسن الأعرج الكلام قبل الذكر والانتهاء بالصلاة على الحقيقة المحمدية بكلام رائق، انتهى فيه إلى حديث «كُنتُ نبيا، وآدم بين الماء والطين»، حين عقّب أحدهم: «إني سمعت في خطبة الجمعة من قاضي القضاة بجامع عمرو هذا الحديث بصيغة أخرى «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد». قال الأعرج: «يا بني، لا تَعارُضَ، وإن كانت صيغة حديثنا محققة بالكشف والتلقي، فالماء سر الحياة، والطين منه الجسد».

في الطريق مع الشيخ حسن الأعرج كانت المسامرة حول فرج الله ودعاء زكريا. الشيخ الذكي مسّ ما يفكر فيه المهدي، ولم يجرحه. دخل مباشرةً إلى مباشرةِ امرأةٍ أخرى. مع أنه حموه، هو يحبه ويحزن لهمِّه، وزواج مع وعد إبقاء على ابنته وحسن عشرة خيرٌ من عيشة غير هنية. فلا حرج في سنة الله، وهو في عنفوان رجولته، وميسور الحال. غيّر المعلم مسار الكلام، كأنه خَجل من مناقشة زواج من أخرى مع والد امرأته، وتطرق لحكاية الجرس الفخار الذي صنعه للدير:

ـ أنا متيقن من اقتراب الفرج.

ـ الفرج ختام مسكٍ لشرابٍ مُرٍّ. أجمل ما في الفرج، هو أننا لا نعلم كيف يأتي ولا من أين يأتي. لا تعلم أين الخير؟

ـ الخير في ولد يرثني.

ـ الله يُعوِّض عليك، فاشكره على المحنة، تأتيك ألف مِنحة.

ـ الله غالب.

ـ لا عجب فيما رأيت عند الدير، فالعذراء، التي نُفخَ فيها من روحه، هي آيةٌ تُثبت لنا أنه سبحانه إذا شاء فلا أسباب. وأن المسيح هو ابنٌ لأُنثى فليس مُستغربا أن يحمل رسالة المحبة.

ـ الله محبة، كم أحببت هذه العبارة.

ـ حامل رسالة المحبة مهّد لسيِّد المُحبين صاحب رسالة الرحمة.

قبل أن يودعه الأعرج، أودعه أبياتا لابن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه دانِ
وقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبانِ
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآنِ
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

مضى المعلم مشتجر التفكير بين أمنيات بولد وذرية، وبين شُغُل

في تخيل الحقيقة المحمدية، كما سمّاها ابن عربي. الحقيقة أنه لم يفهمها جيدا. قال لنفسه: «وهل تحيط الأفكار ببديع صنع الله، أم كيف تشتمل العقول على ما كان من عظمة اجتباء اصطفاء خلق سيد الخلق أجمعين؟».. سرح في أبيات الشعر مندهشا من البيت الثاني تحديدا، ليس لغرابته بل لارتباطه بما رأى قبل أن يصنع الجرس. ثم على طهارة نام فرأى وتخيل بقية ما يليق برؤياه، وقبل الفجر جلس يُكمل الورقات الأولى من كراسته «سماع المعلم لروح يتكلم».. وقد اخترت لهذه الفقرة عنوان:

إشارات

خُيّل إليّ أن ابن عربي قال لي: ثمة إشاراتٌ، واقعةُ الصيد وسريانُ أمانِي النفسيِّ إلى نَفْسِ الغزلان، ثم مرضي الذي شارفَ الموتَ ورؤيتي لسورة يس، وطواف روحي في جنبات مكة، التي جعلها الله تعالى محلا لبيته العتيق مباركة ومباركا. بعدها وجدت هاتفا يأمرني بقراءة القرآن منفردا. منفردا بكل ما تعنيه الكلمة. معتزلا الناس وصاحبي القرآن ورفيقي. سعيدا بما تَبَدّى لي من معانٍ خفيةٍ، وشفافا أمسيتُ كقارورة من زجاج يضطرب داخلها فتيلٌ مشتعل. أمرُّ بالآية، فلا أملك إلا أن أتوقف وأعيدها مرات، ثم أغمض عيني، فأرى في ظلامهما الحروفَ كائناتٍ حيةً تخاطبني، وتقول لي من أسرارها، وأتعجب كيف لبعضها مقامٌ فوق البعض. أنام فتأتيني تأويلات ما أعياني فهمه، في اليقظة تصبح المعاني على قدح تفكير مني، فإذا نمتُ اشتعلتْ. أحيانا كنت أرى ما لا يمكن لأحد، لو حدثته، أن يصدقني، سيرمونني بالكفر، والطيبون من بني البشر سيقولون إني مجنون. هل أنا مجنون؟

لن أخفي أني في بعض الأحيان القليلة، كنت أواجه نفسي بهذا

السؤال، لأني بالفعل صرت أرى ما لا يراه الناس، بل وصل بي الحال إلى أن أقرأ ما وراء العيون الصامتة. وصامتا أبقيت ما في نفسي يجول. لكني شعرت من فيض تجليات الرؤى، أنني مُعَدٌّ من قِبَل الخالق اللطيف أن أقوم برسالة ما، وأن أبلغ آفاقا ما، وفيها أُبلِّغُ ما أرى. وعلمت أن أمامي طريقا مُدغلة، أحراشها أشواك وانحناءاتها خطاطيف، وأنه لا بد من تربية شاقة حتى أصبر على ما لا طاقة لي بتخيله. هل تخيل موسى عليه السلام أنه سيجد على النار هدًى؟

نبي الله موسى رافقني في مناماتي. فهمت كيف أنه كان بحاجة لرحلة طويلة من مصر إلى الشام ثم إلى طور سيناء لتكتمل التربية، ويتهيأ لساعة أن يتلقى خطاب ربه، لولا تربيته الطويلة الملخصة في كلمتين: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ما تحمل ما عاين وسمع.

هل عاين موسى؟ كيف؟ وقد صُعِق. غيرُه إن لم يُصعق، فلسوف يُجن. بصناعته على عينه سبحانه تبدلت لموسى حقائق الأشياء، وهي من المعجزات. ومما رأيت في حكاية موسى كما روتها الآيات، أن الحروف هي موسى، وأن الألف هي عصاه. إن للألف مقاما فوق مقام حروف موسى، فقلت:

إِنَّ الوُجُودَ لَحَرْفٌ أَنْتَ مَعْنَاهُ ... وَلَيْسَ لِي أَمَلٌ فِي الْكَوْنِ إِلاَّهُ

الْحَرْفُ مَعْنًى وَمَعْنَى الْحَرْفِ سَاكِنُهُ ... وَمَا تُشَاهِدُ عَيْنٌ غَيْرَ مَعْنَاهُ

أيقنت في عزلتي أنه سبحانه هو الذي يفيض علينا الوجود من وجوده. فالعبادة الحقة هي ما تحقق فيها الافتقار المطلق من جانب العبد، والغنى المطلق من جانب الحق. وقيل لي في حال هروب من عالم الخيال على لسان العرش: «أُقسِمُ بعليِّ عزته وقوي قدرته لقد خلقني، وفي بحار أحديته غرَّقني، وفي بيداء أبديته حيرني، تارة يطلع من مطالع أبديته فينعشني، وتارة يدنيني من مواقف قربه

فيؤنسني، وتارة يحتجب بحجاب عزته فيوحشني، وتارة يناجيني بمناجاة لطفه فيطربني، وتارة يواصلني بكاسات حبه فيسكرني».
وكلما استعذبت من عربدة سكري قال لسان أحديته: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾.
فذبت من هيبته فرقًا، وتمزقت من محبته قلقًا، وصعقت عند تجلي عظمته كما خر موسى صعقًا. فلما أفقت من سكرة وجدي به، قيل لي: أيها العاشق، هذا جمال قد صُنَّاه، وحُسنٌ قد حجبناه، فلا ينظره إلا حبيبٌ قد اصطفيناه.

ومع ذكر خُطوات موسى في رحلاته الزكية، دعوتُ من هو قادرٌ على أن يتولاني، أن يتولاني. ألم يقل في حق موسى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾. فالذي تولاهم أوَّلًا هو الذي تولاهم في عموم أحوالهم أو أكثرها، وليس إلا اسمه الوهاب. على اسمه الوهاب نمتُ واستيقظتُ، ومرضت وهو يشفين. وسلّمني اسمه الوهاب إلى رحموته، وليس لرحموته محيط. وإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه كلّ شيء.

وأقول لك: بعد عودتي من رحلة الصيد ومروري بالدير والتهابي بالحمى، تكشفت بوابةُ أنوار. هل كان لا بد من حمى وهذيان قبل الدخول؟ قمت من مرضي مُدركا أنني مُعَدٌّ من قبل حقٌّ أريدُ الوصولَ إليه، وإن كان لا قِبَلَ لي بما أُعددتُ لأجله، ولأجله أيقنت أن الطريق معبدة بجروح الجسد وشفافية الروح. ما بلغتُ بعدُ عامي العشرين، وقد علمت أن حياتي مشوارٌ من نواصي البحث الموصول بالأحلام، وبِتُّ ألتحفُ بالذكر اللطيف تحفزا وتربية لما سوف يأتي من الأسرار.
لكن السؤال، هل عليّ أن أبثَّها؟ أم أني أخطأت في إذاعتها؟

لكن لا بد قبل ذلك أن أشرح ما أسميها «حال اليقظة الأقرب للحقيقة»، والتي تبتعد بك عما تعتقده يقظة وهي أقرب للخيال، أو

كما قلت سابقا: نحن نعيش في خيال، والآخرة هي الحقيقة. نحن عدم، ولا شيء في الوجود حقيقة غير صاحب الوجود. هي يقظة غير ما يتعاهده الناس، في تلك الحالة يخمد جسدك، وتخرج روحك عنك، وأنت تراقبها وهي تلقى ما تلقى وأنت مسلوب القوى. فرأيت، والله يعلم الصادق منا والكاذب، كأني أمام العرش الإلهي المهيب المقدس، والعرش محمول على أعمدة من اللهب المضيء المتفجر. وإذا طائر جميل بديع الصنع، وسبحان الخالق البديع، يطوف حول العرش ويقول لي: «أنت فيما أنت فيه لست أنت. الشرق مطلع الشمس ومطلعك، فارحل، وفي «فاس» يرافقك صاحب من خير الناس، وأنا معكما». أفقت من يقظتي ليقظة دنيا خيالي، فهرعت لشيخي أبي محمد عبد الله الشكاز في غرناطة، حكيت ما جرى دون زيادة ولا إهمال نقصان، فأمرني بالسكوت لحين الخروج وبالانصياع للأمر فورا.

قبل ذلك، هل قرأت ما ذكرته عن خالي أبي مسلم الخولاني يرحمه الله؟ لعله دون أن يدري ومن غير أن أُدرك كان هو أول من أوقفني على بوابة الطريق. كان يقوم الليل، فإذا أدركه التعب ضرب رجليه ويقول لهما: «أنتما أحق بالضرب من دابتي. أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يفوزوا به دوننا، والله لأزاحمنهم عليه حتى يعلموا أنهم خلفوا بعدهم رجالا». وكم قال لي في بداية الطريق: «اترك الدنيا عن قدرة، وامشِ بالطريق لأجل الوصول لا من دافع الهرب». فعلمتُ مما جرى لي أن الاعتزال عن الناس خطوة يجب أن أخطوها ويلزم ألا تتوقف. في الخلوات تتضح للعقل من الجلوات والكشوف، فهو سبحانه منك كحبل الوريد، فلا تنظر إلى سواه، فإنك إن نظرت إلى سواه لم تنظر إلاّ نفسك، ونفسك الحجابُ عنه فلن تراه.

اخترت الغابات المنزوية، فتنعمت ببديع صنعه، وزرت مقابر

القوم حيث لا حس ولا صوت، وأطلت الجوع واستبد بي السهر. هل تكشف لي بعضٌ من خفايا الكون؟ الحقيقة، أني خِفتُ أن أكون متوهما فحذرت نفسي من الإفراط في أي شيء، كشبع بتُخمة أو جوع شديد. فالأهم هو لزوم طريق اعتدال المزاج، فإن الإفراط مفسدة للمزاج، وتكون النتيجة الحتمية خيالاتٍ وأوهاما وهذيانا طويلا. فعُدت من عزلتي متفكرا ومتسلحا بذكر ربي الذي أردت الخلوة إليه والعزلة عند بابه والأُنس به سبحانه؛ فمسني طيب راحة قلب، فقفلت عائدا لعزلة أطول وجوع يرفع عن رتبة الحيوان الذي لا همة له غير اصطياد فريسته، فصُمت يوما وأفطرت مثله، وقللّت ما استطعت من الطعام، واعتمدت كسرات الخبز الجاف، وتجنبت اللحم والدسم، واكتفيت بجرعات من قربة ماء باردة كجو الأندلس، فطاب لي ما طاب لي. انفتح الكون وبُسطت صفحاته بين يدي، وتجلّت الحقائق. وأدركت أن رحلتي الحقيقية نحو الحق قد بدأت، وأن حياتي محطات من البحث الدءوب الموصول للوصول إلى الكمال. وكنت كلما طال اعتكافي منفردا متفردا في البراري، بانت الأسرار. لكن من الأسرار ما لو أُذيع لاتهمنا طيبون بالجنون، ولتصيد لنا حاسدون حد القتل. فقلت: ليكن عقدك عند دخولك إلي خلوتك أن الله ليس كمثله شيء، فلا تقع فيما جرى للمتوهمين ممن صورت لهم الخيالاتُ رسوما فحسبوها الله تعالى، والله ليس كمثله شيء. وليكن عقدك الثاني ألا تطلب منه في خلوتك سواه، ولا تُعلِّق الهمةَ بغيره، فمهما وقفت مع شيء فاتك، وإذا حصلته لم يفتك شيء.

وكما حدثتك، فقبل ذلك، كنت وصلت وأنا ابن ثماني سنين إلى إشبيلية وهي منورة برجالات طريق فتشوا عن الحق في واقع يسيطر عليه الظلم، وتتسعر بجنباته الحرب، ويسكن التهديد. قدّر الله لي

بتوفيقه أن أنجذب إلى السلوك والرياضة والتعاليم. وفي فتوة العشرين، كنت قد أدركت مهمتي في هذه الحياة، واخترت طريق الرجال الذين لا يعدلون بحب الذات العلية حُبًّا.. فاعلم يا صديقي، أن أول خطوات التوفيق في هذي الحياة تكون في إدراك مهمتك بها، وهدفك فيها.. إن ذلك مفتاح النجاح.

هل حدثتك عن أمي الروحية الوليّة فاطمة بنت المثنّى القرطبية؟ المرأة البهية الجميلة، والشيخة الجليلة، والمربية الرائعة، عليها رحمة ربي ورضاؤه؟ فمنها أخذت أول بيعات الطريق. خدمتها سنين، وهي تزيد في وقت خدمتي إياها على خمس وتسعين سنة. وجدتها من المحبات العارفات بإشبيلية، تحسبها بنت أربع عشرة سنة من نعمتها ولطافتها. وكان لها مع الله حال، وكانت تؤثرني على كل من يخدمها من أمثالي، وتقول «ما رأيت مثل فلان، إذا دخل عليّ دخل بكله، لا يترك منه خارجا عني شيئا، وإذا خرج من عندي خرج بكله لا يترك عندي منه شيئا». قالت لي:

ـ عجبت لمن يقول إنه يحب الله ولا يفرح به، وهو مشهوده، عينه إليه ناظرة في كل عين، لا يغيب عنه طرفة عين، فهؤلاء البكاءون كيف يدعون محبته ويبكون؟ أما يستحون؟

ثم تنظر إليّ وتقول:

ـ يا ولدي، ما تقول فيما أقول؟

ـ يا أمي، القول قولك.

ـ أما أنا، فإني والله متعجبة.

ـ ومن أين العجب يا أمي؟

ـ لقد أعطاني حبيبي فاتحة الكتاب تخدمني، فو الله ما شغلتني عنه.

ـ كيف ترين فاتحة الكتاب؟

- بل قُلْ: كيف ترين الباء في «بسم الله»؟
- كيف أيتها الطاهرة؟
- بتلك الباء ظهر الوجود، وبالنقطة أسفلها تميز العابد من المعبود.
يا ولدي، قيل للشِبلي رضي الله عنه: أنت الشبلي؟ فقال: أنا النقطة التي تحت الباء.
- إذن النقطة تحت الباء للتمييز.
- صدقت، الباء مصاحبة للموجودات من حضرة الحق، كأنه سبحانه يقول: «بي قام كل شيء، وظهر».
- سبحانه.
- يا ولدي، لو اكتفيت بالغوص في آفاق الفاتحة كَفَتْك، وأَعْلَتْ قَدْرَك.
- يا أم، إن كلامك سكن قلبي، لكن من العلماء من ينكر تذوقنا للحروف.
- عليك نفسك التي نفخها فيك الرحمن. لو تعلّقت بربك، فكيف تلتفت لغيره. دعهم في جمودهم، وأبحر في دنيا روحك. ثم يا ولدي، هؤلاء علماء رسوم محدودة بمعاجمهم وما تناقلوه عن شيوخ ماتوا، وأين عالم الرسوم من قول علي بن أبي طالب حين أخبر عن نفسه، أنه لو تكلم في الفاتحة من القرآن لحمل منها سبعين وِقرا. هل أقول لك ما لن يصدقوه؟
- أنا أُصدقك.
- أنت ولدي، أنا منذ سنين لا أعُدّها استغنيت عن الخلق بفاتحة الكتاب. إني أفرح به حيث اعتنى بي، وجعلني من أوليائه، واصطنعني لنفسه. ومن أنا حتى يختارني هذا السيد على أبناء جنسي؟ وعزةِ من له العزة وحده وبه العزة وحده، لا ألتفت إلى أحدٍ سواه.

في ذلك اليوم عرفت مقام هذه المرأة، أمي فاطمة تلك التي هي عذراء هيفاء، شيخة الحرمين، تُقَيِدُ النظرَ، من العابدات السائحات الزاهدات. وكنت كلما وقفت بين يديها، احمرّ وجهي حياء وأنا صغير، فكنت أُحس بهالة سماوية تُحيط وجهها المريح القسمات، كأنها وهي في تلك السن الطاعنة، لم تجاوز تفتح الشباب.

وبعد سني التعلم التي لا بد منها، عملت في شبابي المبكر كاتبا لأكثر من حاكم في ولايات مختلفة، وبدأت الولايات تستسلم لقدرها بروح مهزوم خانع لا يملك فعلا أمام غزو همجي مستعر. كنا في الأندلس نحاول أن نخفف من أزمة الواقع المرتقب المخيف بتجسس أخبار أهلنا في المشرق البعيد، لكن الأخبار لم تكن تسر بعد تنامي الأنباء بأن الزحف الصليبي صار على أشده. جيوش دول أوربية جاءت زاحفة بمباركة رجال دين متعصبين جهلة بحجة تأمين مسار الحجاج المسيحيين لبيت الرب، ومنع العرب من السيطرة عليه. عشت في عصرٍ غنيٍ جدًّا بالمعرفة والاتصال بين البشر من كل الملل والمعتقدات. عصر خطير ومرعب بما يحمل من أخطار حروب هادرة كموج البحر، قلت: «إننا في زمن الفتن التي تموج ويرقق بعضها بعضا» فقبل الحملات الصليبية على المشرق، كانت الحكايا القاتمة عن المغول وما فعلوه في العراق والشام بعدها. سيطرت الحروب على الأجواء، روائح الأجساد المقتولة كدت أشمها على البعد، تأتيني من كل مكان.

ما بال الإنسان، كيف ظهر فيه الضدان، منه الأولياء، كما فيه الأعداء؟ فلا تزال السياسات تُسَنُّ والغارات تُشَنُّ، فهم بين قتيل وأسير، وحسن مآب وبئس مصير. كشفت الحرب فيه عن ساقها، وظهرت الفتن في جميع آفاقها، آفاتٌ تَرِدُ، ورزايا تُعَدُّ. إنسانٌ تصرفاته

محدودة، وأنفاسه عليه معدودة، عليه رَقِيبٌ عَتِيدٌ وسائِقٌ وشَهِيدٌ. قلت في نفسي: لم يزل الآدميُّ مذ خلقه الله في التوكيل، وشرع له أن يقول: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، لينقلب بنعمة من الله ورضوان إلى دار الحيوان، لم يمسسه سوء ولا بؤس، ويلقاه عند وروده عليه السُّبُّوحُ القدوس، ويتلقاه عمله بوجه طلق غير عبوس. فزرت شيوخا أجلاء كثيرين، استفدت من كل واحد قدر المستطاع. وبحسب ما أفاء الحق على شخصي الفقير إليه في صحبتهم، وقد أوردت ذلك كله في كتاب أسميته «الإجازة» وفي مقدمتهم شيخي الجليل أبي بكر بن خلف كبير فقهاء أشبيلية، قرأت عليه القرآن الكريم بالسبع في كتاب الكافي. بعدها ما أخذت علما إلا من صاحبه، ولا استشرفت حالًا إلا من أهله، فتعدد المعلمون كما جاء في رسالتي «القدس». وكما قلت لك: وجدتني أنزح للخلوة والانعزال، لعلي أظفر ببعض من أحوال القوم؛ فكشف لي الانعزال عن الخلق فيضا من أسرار الحق. العقل يكشف لنا بعضا ويعجز عن بعض، لكن التأمل المحض في مراد الحق يُسفر كالشروق عن خفايا عظيمة.. هل حدثتك عن الفقيه الجليل ابن رشد؟

بوابة شهوة

تُحيي إذا قتلت باللحظِ، منطقها ... كأنها عندما تُحيي به موسى
أُسقُفةٌ من بنات الروم عاطلةٌ ... ترى عليها من الأنوار ناموسا

استيقظ المهدي مهديا بما رأى ودوّن، غفل ساعات قليلة، وبمجرد تفتح عينيه شعر بأنه نام دهرًا، فانتبه مسرورا بما دوّن في ليلته السابقة، مرتاحا ولا يعرف السبب، قد يكون لإنجازه بعضَ حظٍّ من كتابة. يقول لنفسه: «أنا ما كتبتُ، بل نُفث في روعي، وسمعت فاندلق حبري بما جاءني، وليس لي من فضل».. إنجازنا شيئا يمنحنا راحة طمأنينة، بأن أشياء كثيرة اقترب إنجازها، ووجب.

النهر اقترب فيضانه، فتعارك صحو وغبار. كيف للماء أن يزيد الحرارة. لدولابه مضى تاليًا فوق ظهر بغلته من أوراده الصباحية، مبتسما للكون وناثرا على وجه النهار تعويذة مصرية «اسْتَعنّا على الشقاء بالله». قضى أغلب الطريق مُحبا لطريق يفتش عنها. نصير محبين رائعين بهيامنا في المحبوب، باتخاذنا الحب شريعة، واعتمادنا الأمل ركوبة. ما نكتبه يصير دَيْنا في رقابنا، علينا تأديته، وعلى الكون، وإن لم نتكلم، الاستماع لرغباتنا. فقط علينا أن ننظف صدورنا من دخان الأحقاد ونحرسها من دغل الكراهية. ما علينا غير أن نزفر، نشهق، نحن، نئن، ونُخلص، ونقول لأنفسنا: إنها محبّة، لا أكثر ولا أقل، وضياء أيضًا؛ فيكسونا بهاء ونور.

مع بلوغ ضياء الظهر استقامته، دخلت عليه بطة، كذا قالت نفسه أول ما رآها. امرأة وضيئة، ليست مصرية ولا عربية، عرف المعلم

ذلك من لحن كلامها. قالت: «إن الناس دلوها عليه، أخبروها أنه ماهر في العلم كمهارته في صنعته، ليفك لها عملا». تبسم، أمسك ضحكةً ارتعشت لها وجنته وتراقصت كطبلة من لكنتها: «يا سيدتي لست ساحرا، ولا حتى أفهم في تلك الأشياء».

تخلل بكاؤها حكيَها، وبصره يراوحه بينها وبين سقف يسمح بتسلل شعاعات شمس تتناثر، فيتراقص غبارٌ يعرف فضلَه كلّ فخراني، ولا تزيد الحرارة. يُسرُّ بتسبيحاته متعجبا: «كيف أن من الضوء بردا، وسبحان من خلق الجمال، وأخفاه وأظهره، فمَشِقتِ الجاريةُ كغزالة وبضّت كبطّة. سرح: «هل ترضى بمصري وصانع فخار على باب الله، وهارب في ملكوته؟».

في الليل جلس المعلم يُكمل ما حكاه له روحٌ ساكنٌ في فصول الفتوحات، بحسب زعمه أو يقينه أو توهمه. تحيّر فقام لقضاء حاجة، توضأ والمرأة الوضيئة لا تفارقه، فيهرب منها لما قد تأتي به إشارات كثيرة مرت به وعطفت عليه، لكن أيًّا منها لم يقُده لمراده. سكنت خياله. نام ساعتين وقبل الفجر تسلّم أوراقه، حاول التدوين ما استطاع وقد ملكت فؤاده، تخيلها بلذة، وبوخزِ إثمٍ أيضًا: «يا مقلب القلوب، هل ذنبٌ ما أتخيله؟ فأتوبَ. أم أن أمري ليس بيدي، وكل أمري إليك يا واسعٌ، راجع؟».

الحب ليس ذنبا، بل هو ما خُلقنا لأجله، عائبٌ من يعيب عليك حُبًّا. وفي منامه القصير كان معها، وفي الصباح تعجب لمّا قام والغُسل واجبٌ. فاستغفر. نزح من بئر حفره قبل سنوات، توضأ، طار نشيطا لدولابه، ومع الغروب كان بحضرة لاهثة بالذكر، هامسة بالوجد، منشغلة عن الناس برب الناس. فذاب بينهم، شخصُه وسطهم وقلبُه في سرحانٍ هيمانٌ مربوطٌ بالبطة. تتوالى على ذهنه حلول لعلاج مشكلتها، ما إن يتضح حلٌّ حتى يجده سخيفا، لا ينفع.

يعود إلى الحلقة العامرة، فيغمره من كلامها ما ينتشل بعضَ رُوحِه. ظل على حاله ساعتين، حتى قطع الصفاءَ شابٌّ مُعَمَّمٌ، بدا فظا من أول وهلة، وظلّ ظِلُّه مخيما على الحضرة بعد رحيله. طالبُ علمٍ أزهريٌّ موسر، قدم من الحجاز بعد الزيارة والعمرة، كما لاح في تعريفه بنفسه، تقدم إلى حضرتهم، واقتحم ما كانوا فيه من صلاة على خير البرية، واتهمهم غاضبا بأن ما هم فيه هو عينُ الشِرك، وأن مجردَ الجلوس بهذه الزاوية إلى جوار قبر، هو إعلانٌ بأن مع الله إلها آخر ينفع ويضر. ثم صاح فيهم: «أيها القبوريون، توبوا إلى الله، واشهدوا ألا إله غيره». حاول بعضهم الرد وإسكاته، أشار الشيخ الأعرج بالصمت، قال له: «يا بني، نحن لا نعبد إلا الله تعالى، والضريح الذي تذكره هو لرجل صالح نأتنس بروحه، ونجلس محلَّ بركةٍ أنزلها الله تعالى على أهل مصر بسببه. إن كل ما نفعله هو ذكر وصلاة وقراءة في كُتب العلم. هذا كتاب الفتوحات المكية للشيخ ابن عربي». وكأن الفتى لسعته عقرب، فصرخ وراح يسرد ما سمعه عن تكفير ابن عربي. فلم يرد عليه أحد، ومضى هازئا مستهزئا ومنكرا.

في تلك الليلة، لم يقدر المعلم على تخطي ضيقه، حاول شغل نفسه بتسجيل بعض ديون عليه لبائع الطين والعربجي وجالب خشب الحريق، وحاسبا ما له عند تجار منتشرين بين سوق السلاح وبولاق ومصر عتيقة والإسكندرية. تسلَّم الريشة وحبرّها، وما كتب غير سؤال إلى ابن عربي:

«المعذرة يا مولاي، لكن هذه تساؤلات بعض الأنام، حيّرتني وضايقتني ومنعتني المنام. وأعتذر إليك، فهم يذكرون ولست الذاكر، وناقل الكفر ليس بكافر، وعفوا يا مولاي، فهم يقولون: إنك خلطت العقائد، وطاف سُمُّك بالموائد، وإن ما نحن عليه شِركٌ بواحٌ، كشروق

لاح بصباح».. طرح سؤاله، صلّى ركعتين داعيا أن يفتح الله عليه، وهو يحمد الله على كل حال. تنبه إلى غليان قهوته، ثم تسلّم دواته وكراسته، ووضع جواره جزءا من سِفر الفتوحات مفتوحا على صفحاته الأولى، وكتب. قال سيدي:

«اعلم يا مُعلم، أن شهوة الشهرة أشدُّ من شهوة العشق، وأنني قدمت فتوحاتي المكية بشرح عقيدتي الوسطية، ليس في كلامي عنها ما يؤخذ عليّ. وما تعديت ما قاله الأولون والتابعون. ثم يا بُنيّ، ما عليك؛ بنفسك اشتغل وعلى تهذيبها اتعب. لا تنشغل بعقيدتك، فيكفيك منها ما وجدت عليها أُمّك الطيبة، هل ادّعتْ أن خالقا غير الله أو معه؟ هل أنكرت بعثة سيد الأولين والآخرين وخاتمية رسالته وما أُنزل عليه من البرهان الذي هو القرآن الكريم؟ ابق يا صاحبي على دين العامة، فالعامة بحمد الله سليمة عقائدهم، لأنهم تلقوها من ظاهر الكتاب العزيز، التلقي الذي يجب القطع به، وذلك أن التواتر من الطرق الموصلة إلى العلم، وليس الغرض من العلم إلا القطع على المعلوم، أنه على حد ما علمناه من غير ريب ولا شك. والقرآن العزيز قد ثبت عندنا بالتواتر أنه جاء به شخص، ادعى أنه رسول من عند الله تعالى، وأنه جاء بما يدل على صدقه، وهو هذا القرآن، وأنه ما استطاع أحد على معارضته أصلا. فقد صح عندنا بالتواتر، أنه رسول الله إلينا، وأنه جاء بهذا القرآن الذي بين أيدينا اليوم، وأخبر أنه كلام الله. واعلم أن الذين يجلسون للناس بالمرصاد، لو صفت نياتهم، وانتصروا على شهواتهم، لاكتفوا بما قيّدناه في مقدمةِ كتابنا، وأننا نعتقد كلّ ما اعتقده التابعون من بعد الصحابة الكرام، وكل مقتضيات «لا إله إلا الله» لا أكثرَ ولا أقل. هل قرأت ما جاء في صدر الفتوحات؟ هؤلاء يا ولدي، خيّلت لهم أنفسُهم أنهم فوق الناس، وأن

انشغالهم يجب أن يكون في الناس، لا فيهم، فتركوا أنفسا رسخ فيها أنهم على الحق أبدا، ومعهم الحقيقة دوما، وراحوا ينصبون المحاكم تفتيشا على ما في الصدور. قولا واحدا يا بُني: ***من قال بالحلول فدِينُه معلولٌ، وما قال بالاتحاد غيرُ أهلِ الإلحاد***، وإن من يعتقد في غير الله تعالى أنه يضره أو ينفعه، فهو قد أشرك بالله. وأنتم ما فعلتم من هذا شيئا، بل كانت جلستكم وحضرتكم في مكان تنسمتم روائحَ البَركةِ وألوانَها، فالمساكنُ بساكنيها، كما الطريقُ بسالكيها. فيا ليت شعري، هذا الذي يطلبُ يعرفُ اللهَ من جِهة الدليل، ويُكَفِّرُ من لا ينظر، كيف كانت حالته قبل النظر؟ وفي حال النظر، هل هو مسلم أم لا؟ وهل يصلي ويصوم، أو ثبت عنده أن محمدا رسول الله إليه، أو أن الله موجودٌ؟ فإن كان معتقدا لهذا كله، فهذه حالةُ العوام، فليتركهم على ما هم عليه، ولا يُكفر أحدا».

قلت: يا سيدي، أنت تعرف انشغالي بعملي وتكاسلي في طلب العلم منذ مغادرتي أهلي، فهل أبارز أمثال هذا؟ ومن أجل هذا، هل عليّ أن أتعلم ما يحكون عنه من علم الكلام؟

قال سيدي: «إن علم الكلام مع شرفه لا يحتاج إليه أكثرُ الناس، بل شخص واحد يكفي منه في البلد، كالطبيب، والفقهاء العلماء بفروع الدين ليسوا كذلك بل الناس محتاجون إلى الكثرة من علماء الشريعة. وفي الشريعة بحمد الله الكفاية، ولو مات الإنسان وهو لا يعرف اصطلاح القائلين بعلم النظر، مثل الجوهر والعرض والجسم والجسماني والروح والروحاني، لم يسأله الله تعالى عن ذلك، وإنما يسأل الله الناس عما أوجب عليهم من التكليف خاصة. والله يرزقنا الحياء منه».

لم تترك له العبارة الأخيرة من كلام ابن عربي جنبا للنوم، خلّفَت مساحة من الارتباك، فلا هو يستطيع الكتابة، ولا النومُ صديقٌ. طوى

كراستَه، خرج ينظر لنجوم متوهجة لا يملك لها عدّا، ما زال بيتُه مقابل الدير موحشا لا أنيس معه وامرأته. فكّر لو أيقظها فصلّت من الليل ما يجلب البركة، أو تسامرا معا. كلامهما قليل وحديثهما لا يتطرق لغير شئون المعيشة العادية اليومية، يسألها ما تحتاج إليه فيرسل به الصبيّ قبل الظهر. ابتعد قليلا عن ابن عربي ونسي الشاب المتعصب. تلألأت أمامه المرأة الوضيئة مرة أخرى، الحقيقة أنها ما غابت، بل تدوينه الليلة لم يكن غير هروب منها، وإليها يعود بأحلامه. استعاذ بالله وعزم على إيقاظ امرأته بحجة الصلاة. مضى لغرفتها وهي تنام مكفيّة بلا غطاء في ليلة حارة. فقضى ما أراد، وما كانت إرادته التي ما استطاع إبعادها عن خياله، غير أن المرأة الأجنبية تحته، يودعها كل أسرار غربته المشحونة، ويلهبها بمواجعه المكبوتة، فتتلوى وتتغنج، ويكاد يسمعها تهمس: «ما أردت غيرك، لقد حلمت بك، كما تحلم الليلة بي».

ما أهنأ ماء باردا في ليلة ساخنة بالحرارة والإزعاج والأماني، يدلق من طشت نحاسي، علّ صدأ ما يتخيله ذنبا، ينمحي. يبالغ في الاغتسال ويبادر بركعتين فيما تبقى من ليل. استند لكراسته، فكر لو كتب عن حكاية ديوان ترجمان الأشواق الذي يعرف أنه من نظم ابن عربي، ولم يبلغه منه غير أبيات. انزعج لربطه تدوين العلم بخيال المرأة، وما كان عليه قبل ساعة من حلال مشوب بأماني ما لا يجوز، فعاد إلى قصة الشاب الأزهري السلفي، وراجع أين توقف في حديثه مع طيف ضيفه في الفتوحات، فتجدد قلقه، وانزعج لما ختم به ابن عربي كلامه بعبارة «والله يرزقنا الحياء منه». شعر أن الإمام الأكبر يعلم ما عليه حاله من تفكير في المرأة، فغمزه بجملة «الحياء». فأنشأ كاتبا:

«هل التفكير في شهواتنا التي نخجل من ذكرها انجراف الإنسان لتدني رتبة الحيوانية؟». قال ابن عربي: «وهل يملك البشري من أمره شيئا؟ بل شهواتنا أكبر من شهوة الحيوان، لقد رُزق الآدميُّ قوى أربعةً، خيالا ووهما وحفظا وذكرًا، هي في الإنسان أقوى منها في الحيوان، ثم خُصّ آدمُ، الذي هو الإنسان، بالقوة المصورة والمفكرة والعاقلة، فتميز عن الحيوان».

تأخر في نومه للضُّحى، مسح وجهه بيديه. هل مات ثم قام؟ ما تعود النوم لما بعد الشروق. تقول «عزيزة» دوما: «يا سيدي، تنام كديك يصحو على الأذان، ثم تنام ثانية كالعصافير، ما إن تُشرق الشمس حتى تزقزق، إنك تصحو ولك زقزقة من تسابيح وصلوات، تنام نصف ما أنام أو أقل». يقول لنفسه: «وكيف ينام من يحمل حمولي؟ أنا هارب على الدوام، وأشيل أحلاما وعجائب لم تزر كثيرين من البشر، أُحس أن في عنقي أمانة. كيف اختارني ذلك الروح؟ ولماذا يتقمصني كلما جنّ على الليل، فأرى كواكب لا يراها البشر، وأستطلع قمرا منيرا ينفث في روعي من حكمة ضيائه؟».

كثيرًا ما يعاوده الظن أن به مسّا من جنون، وأن فترة اعتزاله بالجبال أثناء فراره، تركت في عقله أثرا من جذب ولسعة من مسٍّ، وذبذباتٍ من أشباح مربكة. ثم يستغفر الله كلما عاودته رؤية تحمل إشارة، فيقوم وقد سجل منها مائة عبارة، أغلبها من نَصِّ كتاب الفتوحات المكية، وأقلها مما فُتح عليه به.

مضى لعمله غير مشغول إلا بعودة سريعة لغرفته وأوراقه، فلديه كثيرٌ مما يستأهل التدوين. والحقيقة أن حاجته الملحة أخيرًا في الكتابة هي هروب من شهوة كجذوة تأبى أن تظل خامدة. ملكت

عليه المرأة نفسه، الحق أنه رغبها ورغب الإمعان في دفع الظنون، فتسلَّم كراسته وكتب، ثم تأسف لمّا كشط ما كتب، فهو حريص دوما على التفكير قبل إطلاق القلم. وظل على تلك الحال ثلاث أو أربع ليالٍ كاملة، لم يكتب فيها شيئا. حتى كانت ليلة الحضرة، فهام مع المريدين، ثم قفل راجعا لبيته. وفي ليلته لم يطاوعه القلم، ركنه وطوى كراسته وأحكم غلق دواته، ونبضُه مضطرب بحُمّى عشق.
وأما البطة الوضيئة فقد حكت:

- بيتي مسكون، فيه غرفة عجيبة، كلما جاءها مستأجر، عزف عنها وهرب. في الليل أتسمع همهمات، ومع الفجر أشم بخورا، بل أرى عيدان دخانه الملتوية الدقيقة تتصاعد لأعلى. عمري ثمانية عشر عاما، وقيل إن عملا معقودا مدفونٌ في الغرفة. فتحناها مرارا وهوّيناها، وتركنا الشمس تعبث بغبار الكنس، وما إن يجف ماء المسح وينتهي الشيوخ من قراءة سورة البقرة ويمضون، حتى يعود ما كان أشد مما كان.
- وكيف أخدمك؟
- تقول عمتي إن العمل قصدني والسحرَ شربته، وسيفوتني ركبُ الزواج.
- بل ألف رجل يتمنى مثلك.
- أنا واقعة في عرضك يا معلم، فُك العمل، تصرّف في أمر الغرفة المسحورة.
- ومن الذي دلّك عليّ؟ من دلّس عليك بأنني خبير في تلك الأشياء؟
- أقول لك سرًّا تحفظه كما يليق برجل صعيدي؟
- تفضلي، الرجل لا يُفشي سر وليَّة.
- سمعت عنك، وحكى لي أحدهم من سيرتك ما طمأنني.

ـ الناس يبالغون، والله أعلم بحقائق الأمور وبواطن البشر.
ـ أمس رأيت في منامي دولاب فخّار يدور بفناء بيتي وماءٌ يجري، وفي الصباح حكوا لي عنك، فاستبشرت خيرا، فقررت زيارتكم على استحياء.

تركته وقفلت راجعة مستعجلة. بات ليلته ساهرا وقد مضت ليالٍ بعدها، وكان وعدها بالحل قبل انتهاء الأسبوع. ليس له في شغل العفاريت ولا يخافهم، وإن أحس وجود مخلوقات نورانية وكائنات من نار حوله في مرات عدة، ولم يخبر أحدا مطلقا. كل ما اعتاد فعله هو قراءة آيات من كتاب الله والتنبيه إن قُفّ شعر جسده بأن ينصرفوا لحالهم، فيقيه الله تعالى شرهم، كما تعلم في صغره. اقترب من زوجته بهدوء، فعافته معتذرة بأن رأسها يؤلمها. خرج ملتحفا بنسمات النيل البحرية، قاصدا شط النهر الواطئ القريب، وحاملا أرغفة خبز تعوّد أن يُقطعها ويرميها لأسماك يُسعده جدًّا مرأى تجمعها حول رزق الله، الذي كان بلا حول منه سببا فيه، مشغولا بما سيفعله من أجل البنت المسكينة. الحقيقة أنه يفكر فيها، لا في مشكلتها. بعد يومين، انفلق صباح طيب، فكان الحل بين يديه، أو بين يديها. ما قيمتنا إن لم نُقدم لحياة امرأة جميلةٍ قيمةً؟

في الليل عاد سعيدا لعادته، تسلّم أدوات كتابته، خاطب روحا لا يفارق مناماته، كتب بمخطوطه: «ونفث في روعي أن صاحبي معي، فسألته:

ـ حدثني يا مولاي عن الشهوات، لعلي أتقيها؟
ـ بل أنت تقصد شهوة بعينها، وما عليك لو قضيتها في حلالها. هل تعلم كيف خلق الله تعالى الإنسان؟
ـ علمي دون علمك.

ـ لو علمت، لعرفت من أين تأتينا الشهوة، وكيف تسكن؟

كتب المعلم المهدي متنقلا بين شهوته ورؤى خياله، وصفحات سِفرٍ مبسوط على منضدة قصيرة ذات قوائم أربعة يسندونها كأقطاب، ودائرية كالكون، يقول ابن عربي: «هذا بابٌ مخصوصٌ بابتداءِ الجسوم الإنسانية، وهي أربعة أنواع: جسم آدم وجسم حواء وجسم عيسى وأجسام بني آدم. وكل جسم من هذه الأربعة نشؤه يخالف نشء الآخر في السببية، مع الاجتماع في الصورة الجسمانية والروحانية. وإنما سقنا هذا ونبهنا عليه لئلا يتوهم الضعيف العقل أن القدرة الإلهية، أو أن الحقائق لا تعطي أن تكون هذه النشأة الإنسانية إلا عن سبب واحد، يعطي بذاته هذا النشء، فردّ الله هذه الشبهةَ، بأن أظهر هذا النشء الإنساني في آدم بطريق لم يظهر به جسم حواء، وأظهر جسم حواء بطريق لم يظهر به جسم ولد آدم، وأظهر جسم أولاد آدم بطريق لم يظهر به جسم عيسى عليه السلام. وينطلق على كل واحد من هؤلاء اسمُ «الإنسان» بالحد والحقيقة. ذلك ليعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم إن الله قد جمع هذه الأربعة الأنواع من الخلق في سورة الحجرات، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾، يريد آدم ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ يريد حواء، ﴿وَأُنثَىٰ﴾ يريد عيسى. ومن المجموع من ذكر وأنثى، يريد بني آدم بطريق النكاح والتوالد. فهذه الآية من جوامع الكلم وفصل الخطاب.

ولما ظهر جسم آدم، لم تكن فيه شهوة نكاح، وكان قد سبق في علم الحق إيجاد التوالد والتناسل والنكاح في هذه الدار، إنما هو لبقاء النوع، فاستخرج من ضلع آدم من القصيري حواء، فقصرت بذلك عن درجة الرجل، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فما تلحق بهم أبدا. وكانت من الضلع للانحناء الذي في الضلوع، لتحنو بذلك على

ولدها وزوجها. فحنو الرجل على المرأة حنوه على نفسه، لأنها جزء منه، وحنو المرأة على الرجل لكونها خُلِقت من الضلع، والضلع فيه انحناء وانعطاف. وعَمَرَ اللهُ الموضعَ من آدم الذي خرجت منه حواء بالشهوة إليها، إذ لا يبقى في الوجود خلاء. فلما عمره بالهواء حن إليها حنينه إلى نفسه، لأنها جزء منه، وحنّت إليه لكونه موطنَها الذي نشأت فيه. فحب حواء حبُّ الموطن، وحب آدم حب نفسه. ولذلك يظهر حب الرجل للمرأة إذ كانت عينه، وأعطيت المرأة القوة المعبر عنها بالحياء في محبة الرجل، فقويت على الإخفاء، لأن الموطن لا يتحد بها اتحاد آدم بها، فصور في ذلك الضلع جميع ما صوره وخلقه في جسم آدم، فكان نشء جسم آدم في صورته، كنشء الفاخوري فيما يُنشئه من الطين والطبخ، وكان نشء جسم حواء نشء النجار فيما ينحته من الصور في الخشب، فلما نحتها في الضلع وأقام صورتها وسواها وعدلها، نفخ فيها من روحه، فقامت حيةً ناطقةً أنثى، ليجعلها محلا للزراعة والحرث، لوجود الإنبات الذي هو التناسل، فسكن إليها، وسكنت إليه، وكانت لباسا له، وكان لباسا لها ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾. وسرت الشهوة منه في جميع أجزائه، فطلبها، فَلَمَّا تَغَشَّاها وألقى الماء في الرحم، ودار بتلك النطفة من الماء دمُ الحيض، تَكَوّنَ في ذلك الجسم جسمٌ ثالثٌ، على غير ما تكون منه جسم آدم وجسم حواء. فهذا هو الجسم الثالث، فتولاه الله بالنشء في الرحم حالا بعد حال، بالانتقال من ماء إلى نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظم، ثم كسا العظم لحما، فلما أتم نشأته الحيوانية، أنشأه خلقا آخر، فنفخ فيه الروح الإنساني ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وغرضُنا من هذا الكلام، هو الإعلام بأن الأجسام الإنسانية وإن كانت واحدة في الحد والحقيقة والصور الحسية والمعنوية، فإن

أسباب تأليفها مختلفة. ولما قال أهل الطبيعة: إن ماء المرأة لا يتكون منه شيء، وإن الجنين الكائن في الرحم إنما هو من ماء الرجل، لذلك جعلنا تكوين جسم عيسى تكوينا آخر، وإن كان تدبيره في الرحم تدبير أجسام البنين، فإن كان من ماء المرأة إذ تمثل لها الروح بَشَرًا سَوِيًّا، أو كان عن نفخ بغير ماء، فعلى كل وجه هو جسم رابع مغاير في النشء غيره من أجسام النوع».

انتهى من تدوينه وقد ثقل رأسه ودار فكره، كيف أن الإنسان واحد، لكن نشأته مختلفة، أربعة، آدم منه حواء، وحواء منها عيسى بغير ذكر، ومن كل آدم وكل حواء بقيةُ البشر. تأمّلَ الفرق بين شهوة الرجل الذي يشتاق على الدوام لجزء خرج منه، وشهوة المرأة التي إنْ ذَكَرَتْ موطنَها اشتاقتْه. الرجل يشتاق دائما ويشتهي، والمرأة تشتاق لو حركها موطنها وناداها. كلاهما، الذكر والأنثى يتحرك منهما القلب بكلمة أو لمسة أو نظرة، أو ذكرى، أو خيالات عارضة، بيد أن بالذكر موضعا واضحا واحدا صريحا للنشوة والإراحة. والمسألة مغايرة عند الأنثى ومعقدة، بل إنه سمع أكثر من مرة من حُذّاق الرجال المختالين بفحولتهم وخبراتهم، أن النسوان لسن سواء، فكل امرأة مختلفة عن الأخرى في مواضع إثارة نشوتها، وتفجير انتشائها، والرجل الماهر هو من يعرف ذلك ويكتشفه. يرتاح الرجل، وقد يُهمل شريكتَه فور انتهاء حاجته، بيد أن من النساء من تمتد بها السعادة ساعات، وتظل في حلمها الجميل مأسورة مسحورة. الرجل موطن المرأة الأصلي، بعض الأوطان فقيرة لا تُعطي غير الاغتراب، ولا تمنح غير الأوجاع. بعض الأوطان نخاف لو وصفناها بالأنانية. من الرجال أنانيون يمشون بحثا وتفتيشا عمّا فقدوه عند ساعة الخلق الأولى، فإذا تم لهم السكن، فرغوا مسرعين، وأفرغوا غير مبالين

بما يريد مواطنٌ مُشتاقٌ، لم يشبع من وطن ناداه. وليس في العلم حرج، الجهل عين الحرج وتجنب السؤال غرقٌ في الجهالة وعَرَج، وإن لم يتكلم المهدي أو يكتب، فإنه يدرك داخله أنه غير أناني، وهو حنون في عشرة النساء، وعطوف. من ذاق الاغتراب، يتسع حِضنه للبشر، فما بالك إذا أحب؟

المهدي وطن. في تلك الساعة شعر بأنه أسيوط بغيطانها، والمعادي بسهوبها، ومصر عتيقة بحواريها وخزائن حكاياها. إن قلبه نيل بؤونة الفيّاض. فقام ليحنو على عزيزة ولسان خاطره: «ليت حميدة تعرف ذلك».. لذتنا تجعل من لذة أخرى نبتغيها جنونا لا يسكن. فعلى من لا يحُب الوداع.

تسلل القمر من بين سحابات غطّت السماء، جاهد كثيرًا ليزيح السحاب، أراد أن يأخذ مكانه الطبيعي، ليبقى في السماء منيرا. تأمله المعلم نصف راضٍ. نعم، قد قضى من شهوته، لكن شهوة أخرى من امرأة أخرى لم ينلها، يفكر في وصلها ويحلم بقدها وفرعها وقسماتها. شهوةُ وَجْدٍ لم تنقضِ، وكيف تنقضي؟ وهي صاحبة أملاك وربيبة ملوك، وصغيرة نسبيا، وإن كانت أمثالها ومن كُن في عمرها تزوجن وأنجبن وتدانت قامات بناتهن منهن. وهو شيَّبته السنون وزادت لعمره أعمارا، فتغضن جبينه وانخفض صوته. يلازمه خوف. أصلع به قليل سمنة يبقيها قليلة بعمله اليومي بيديه ودوران رجليه المتبادلتين على طبلية دولابه الطنّان الفنّان. ميسور لكن على حد الكفاف، ولم يُرزق نسلًا، وغريب رغم طول عشرته بالحي العتيق، وهارب لا يدري به أحد، مشتاق أبدا لموطنه. الصعيدي يعيش في أي مكان، وعند أقرب لافتة حزن يستقيم لسانه فتستحيلُ «قاف» مفرداته «جيما»، ويذبحه الشعر وينزف بسيرة الراحلين. نام وقد انتقل من أحلامه لتسبيحاته

وأذكاره، فنقله الكلام للكلام. وعند نأي النوم وانشغال الخاطر تنهمر الخواطر، وتتوهمنا المخاطر، فتندفع الذكريات وتشتبك بالأماني. نقلته صلاته المحفوظة على النبي وآله إلى أسيوط بخياله ومواجعه وذبحه النازف. وقبل أن ينعس سرح فكان بين يدي الشاعر يحكي عن أبي زيد الهلالي:

صلى عليك الله يا علم الهدى ... يا نور العيون يا صفوة الرحمن

أبكي على الأيام بعين وجيعة ... عدم الخليفة هدّني بمكان

سمعت عزيزة غناءه فنامت راضية قريرة العين بأن جمالها يُرضيه وجسدها يُسعده. الحق أنه مرّ على كل انحناءاتها بأصابع فخراني يكلم طينته الدائخة الملتفة والملفوفة. أما هو، فبعد لأيٍ وملامٍ نام بعمقِ من لا يزوره النومُ إلا على تَمَنُّع، فرأى:

«رأيت أني أراقب عُمّالا وبنائين يضعون الحجر فوق الحجر، ويبنون بيتا يلامس النيل، أو يكاد، ويسطع من فنائه قمر منير، حتى انتهوا ولم يضعوا العتبة. فتقدمت وأخرجت من تحت عباءتي عتبة رخامية بيضاء مُعرّقة بضوء ساطع، حتى وضعت العتبة وثَبتّها في مكانها، وخطوت فوقها، وشعّ سطوع العتبة ثم انطفت. فوجدت الإمام ابن عربي جالسا يكتب وحوله من البخور والعود ما يفوق جماله الوصف».

في الصباح مسه انشراح، وبلغت رؤياه مقصدها في قلبه، فقصد دولابه لا يشغله غير شيئين، المرأة والتدوين ليلا.

ما خاب من استشار. فكيف لو أن المشورة نطلبها منه «هو» الذي بيده مقاليد الأمور وبين أصابعه قلوب العباد. استخار ربّه وعزم أمره، وقرر ما يحسب أنه يُسكن نار الشوق، ويلطف لهيب الاشتياق. ولعلها تنطفئ جمرة لم يكن له في إشعالها حكٌّ زند. وقضى ليلته

بين تفكير في خطوة قد يراها رفاقه القليلون متأخرة، وبين سرحان في أحلام كثيرة. حلم تحقيق بشارات رؤاه، فيوهبُ غلاما ذكيا بعد أن اشتعل الرأس شيبا. لقد رأى ذلك مرتين: مرة على باب دير العدوية ببشارة نقلتها امرأة هاربة على لسان السيدة العذراء، ومرة أو أكثر من طيف ابن عربي وكلامه أنه عما قريب سينقطع الدم. وأحلامه بسيطة وإن كانت عظيمة في عُرف عزيمة الرجال، يحلم دوما أن يتمم مؤلفه عن ابن عربي، وأن يستكشف خطوات طريق رجل لاقى من المحبة بقدر ما صادف عداوات، وارتحل من أقصى مغربها لمشرقها حتى استقر جثمانه على جبل بالشام.. راجع أين توقف في كراسته الأولى بعد أن ظلل بحبر أحمر ركّبه بنفسه وخلطه عنوان مدونته، ثم قلّب بين الفتوحات وتسلّح بقراءة الفاتحة عشر مرات من أجل أن يُفتح عليه، فيهتدي لما سيكتب:

«يا سيدي وصاحبي وخليلي، ما زلت في أمر الهوى والحب والعشق في حيرة، فهل الحب كله إثم؟ والعشق محض وهم في قلوب فرغت من الذكر، وعقول أضَلّت الفِكْرَ؟

إن سؤالك بالأساس مغلوط، فالتعميم داء قاتل للأمم والأشخاص، فلا نقول إن كذا كلّه حرامٌ، أو إن الشيء الفلاني كله لا يجوز، فما يجوز لنا قولُ ذلك، وإنما ذلك كذلك لمحدودي الأفق وضيقي العقول. واعلم أن الله تعالى خلق قوة العقل، وجعلها في النفس الناطقة، ليقابل بها الإنسان الشهوة الطبيعية، وليصرفها في مصرفها الطبيعي المشروع. وسبحان من وهبنا الحب فيه وله. الحب مقام إلهي، فإنه وصفَ به نفسَه، وتَسَمّى بالودود. ومما أوحى الله به إلى موسى في التوراة: «يا بن آدم، إني وحقي، لك محب، فبحقي عليك، كن لي محبا». الحب خلوص إلى القلب، وصفاء عن كدر العوارض،

فلا غرض للمحب ولا إرادة مع محبوبه. وإذا ارتقى وزاد الوجد فهو عشق، الذي هو إفراط المحبة، وهو قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، أي صار حبُّها يوسفَ على قلبها كالشغاف، وهي الجلدة الرقيقة التي تحتوي على القلب، فهي ظرفٌ له محيطةٌ. وأما الهوى فهو فوق ذلك وأشد، هو استفراغ الإرادة في المحبوب والتعلق به في أول ما يحصل في القلب، وقد يرتبط بغير النظر، كمجرد الحكاية. قال بعضهم في الحب الناتج عن الخبر:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وألطف ما وجدت في الحب هو أن تجد عِشقا مُفرطا، وهوًى وشوقا مقلقا، وغراما ونُحولا وامتناعَ نومٍ».

حفظ المعلم كثيرًا مما وجده من شعر صاغه ابن عربي في الحب، وتأمل كيف أن الذكي في الحب والمحظوظ هو من لا يشغله حبه عن محبوبه؟

دوّن عن الإمام الأكبر: «إن تعلقنا بالحب هو من أجل المحبوب، وكلما خفي عنا زاد لهيبنا، وكلما نأى بعيدا نأى بنا الشوق لما فوق جبال الشوق. ألا ترى كثيرًا من الناس إذا أحبوا قالوا شعرا ونظموا سحرا، فإذا ما نالوا الوصال هدأت منهم الغربة وقلّ الكلام. وهذا ألطف ما يكون من المحبة، ودونه حب الحب، وهو الشغل بالحب عن متعلقه. جاءت ليلى إلى قيس، وهو يصيح «ليلى، ليلى». ويأخذ الجليد ويلقيه على فؤاده، فتذيبه حرارة الفؤاد. فسلمت عليه وهو في تلك الحال. فقالت له: أنا مطلوبك، أنا بغيتك، أنا محبوبك، أنا قرة عينك، أنا ليلى. فالتفت إليها وقال: إليكِ عني، فإن حبك شغلني عنك».

سأل المهدي: وهل للحب حد؟

قال ابن عربي: «اختلف الناس في حده، فما رأيت أحدا حدّه

بالحدِ الذاتي، بل لا يتصور ذلك. فما حدّه مَنْ حَدّه إلا بنتائجه وآثاره ولوازمه. والأمورُ المعلوماتُ على قِسمين، منها ما يُحدُّ، ومنها ما لا يحد. والمحبة عند العلماء بها المتكلمين فيها من الأمور التي لا تحد، فيعرفُها من قامت به ومن كانت صفتُه، ولا يعرفْ ما هي، ولا يُنكر وجودَها. لكن اعلم أن سُمُوّنا ورُقينَا هو بالانشغالِ بالحق، وهيامِنا في جناب الحق، فالحبُّ الإلهيُّ هو الحبُ الحقيقي. واعلم أن كل حبٍّ لا يَحكُم على صاحبه، بمعنى أنه لا يصمه عن كل مسموع سوى ما يسمع من كلام محبوبه، ويعميه عن كل منظور سوى وجه محبوبه، ويخرسه عن كل كلام إلا عن ذكر محبوبه، وذكر من يحب محبوبه، ويختم على قلبه فلا يدخل فيه سوى حب محبوبه، ويرمي قفلَه على خِزانة خيالِه، فلا يتخيل سوى صورة محبوبه، إما عن رؤية تقدمته أو عن وصف ينشئ منه الخيال صورة فيكون كما قيل:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب

فبه يسمع وله يسمع، وبه يبصر وله يبصر، وبه يتكلم وله يتكلم. واعلم أنه لا يستغرقُ الحبُّ المحبَ كله إلا إذا كان محبوبُه الحقَ تعالى. وأما استغراق حبه إذا أحب الله فلكونه على صورته، كما ورد في الحديث الشريف، فيستقبل الحضرةَ الإلهيةَ بذاتِه كلها، ولهذا تظهر فيه جميعُ الأسماء الإلهية ويتخلقُ بها. فإذا تعلق بالله، وكان اللهُ محبوبَه، فيفنى في حبه في الحق أشدّ من فنائه في حب أشكاله، فإنه في حب أشكاله فاقدٌ في غيبته ظاهرَ المحبوب. وإذا كان الحق هو المحبوب فهو دائم المشاهدة، ومشاهدة المحبوب كالغذاء للجسم به ينمى ويزيد، فكلما زاد مشاهدةً زاد حبا وشوقا واشتياقا. وكلُّ حُبٍ يُبقى في المحب عقلا يَعْقِلُ به عن غير محبوبه أو تعقلا، فليس بحبٍ خالصٍ، وإنما هو حديثُ نفسٍ. قال بعضهم «ولا خير في حب يُدَبَّرُ بالعقل». وحكايات المحبين أكثر من أن تُحصى».

بعد العصر وكان الخميس، أعطى المعلم أجيره وصبيّه حقهما، ومال على صديقه وشيخه حسن الأعرج، فانطلقا لخطبة جارية سليمان باشا الفرنساوي الآنسة «حميدة»، أعتقها سيدُها امتنانا بإسلامه. وكما وصفتها تذكرة حريتها المحفوظة: «بيضاء، شعرها أحمر، متوسطة القامة، عسلية العينين، بيضاء الأسنان، روميّة». في ذلك الزمن كانت الأراضي المطلة على شاطئ النيل عند مصر عتيقة، والتي يحرسها المسجد الجامع من شرقيها، كلها مملوكة للضابط الفرنساوي سيف (سليمان الفرنساوي)، مؤسس المدرسة الحربية، والمصريون لديه أُجراء في إقطاعيته الكبيرة، فأعتق البعض من عبيده ومنحهم من أراضيه وبيوته الكثيرة. فمنح حميدة بيتا واسعا بديعا من دورين يحوطان بحوش كبير يبلغ ثلاثة قراريط، مقسّم لأحواض، ميّز المعلم منها حوضا للطماطم، سرح كيف أن الثمار المرتفعة ما زالت خضراء، والتي استوت واحمرّت لامست الأرض. كذا النفوس الكبيرة تتواضع. على جوانب الحوش قصاري زهور وتمر حنة وياسمين، والريحان طاغ برائحته واشتباكات فروعه بجوار الغرفة المسحورة، كما وصفتها حميدة. وقف المعلم أمام باب الغرفة، استأذن في فتحها. دخل فسلّم: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». هدأت نفسه كثيرًا وهو يمسح جدرانها بكفه، مستعيذا من همزات الشياطين، ومطمئنا أنهم لن يحضروا. قال: «إنها غرفة طيبة، أُصدق أن أحد الصالحين مر بها، وعوّد حيطانها على الذكر والتسبيح». ثم التفت لحميدة: «إنها سر سعادتك، لا سحر فيها بإذن الله».

عاد وطيّب من خاطر عزيزة، حزنت، لكنّ عدم الإنجاب لم يجعل لها سبيلا لإعلان الضيق، قال:

ـ تعلمين مكانتك، أنت بنت الأكرمين.

ـ ما كتب الله يكون.
ـ هذا شرع الله، وما أعلمك إلا راضية بشرعه.
ـ يا سيدي، هذا قدري، والصبرُ شُرِعَ لأمثالي شوكا. هل أملك شيئا؟ ليت أن أمر الحَبَل بيدي.
ـ هل تكرهين أن أُرزق، ولو من غيرك.
ـ لا سمح الله، الله غالب.
ـ هي مسكينة، وما أردت إلا الولد، ولعل في حل مشكلتها إشارة بالفرج.
«متنهدةً» جعلك الله حلّالا للعُقد!
ـ صدقيني، لعلها إشارة.
أحيانا نجعل شهواتنا إشارات لنتبعها، أو لعل من شهواتنا أوضح إشارة.

المعادي نهايات ١٩٧٩

عرضت ما دوّنته أو نقلته بتصرف آنفًا على زين، تناقشنا هل يمكن أن تكون الشهواتُ إشاراتٍ والرغبات علاماتٍ. علّق ساخرا، دعك من شهوة البطة، هي حكاية لطيفة، لكن عُد معي لقصة الشاب الأزهري، يا صاحبي، الشهوة الأخطر كما وصفها ابن عربي هي شهوة الشهرة، فما بالك لو أنها مصحوبة بغلظة وحُمق. ذلك الذي اقتحم حضرتهم وكفّرهم وزندَقَ ابن عربي، كذا تلعب الكراهية، فيتم تزييف الوعي منذ مئات السنين؟
قلتُ: عندي إحساس أخاف لو صرّحت به أن فقهاء كل عصر بعضهم، إن لم يكن أغلبهم هم أسوأ ما فيه.
ـ ولم تخاف؟ تلك حقيقة. انظر اليوم، كيف يشتمون ابن عربي، وما بلغوا عُشر علمه ومعرفته وفقهه وفلسفته ورؤاه.

- نحن بحاجة لبناء مستقبل عقلنا في الشمس، وغسل ما دَسُّوه في عقولنا بالليل.
- لأني خريج مدرسة العباسية، مجنون سابق ولاحق حتى يثبت عكسٌ لن يثبت، فلا حرج من أن ألعن هؤلاء.
- تسامح.
- فما بال من يدَّعون العلم لا يتسامحون. يحسبون أن لهم دينا، وأن تدينهم، كما السلفي في حكاية جدي، يرفعهم فوق مستوى التمسك بالأخلاق.
- وهل دين بغير أخلاق؟
- دينٌ بلا أخلاق أفضلُ منه عربدة وفسوق. المتدين الشرير شيطان يصد عن سبيل الله، يُنفِّرُ الناس من الدين، يحملهم على كراهية رمزيته. معادلة صعبة وطريق موحشة.
- حتى لو أن الطريق إلى المحبة موحشة، حتى لو أن العقول متوحشة والقلوب بيوت للضغينة، فلا أقل كما كتب جدُّك: «كن بين المحبين الحبيب المخلص. وبغير نفسك لا تنشغل».

وأنقل هنا ما جاء بمخطوط «سماع المعلم لروح يتكلم»، مما تخيلت أنه كُتب قبل البناء بالعروس الجديدة. كتب: «يا سيدي لقد تعبت من تتبع الإشارات، فمن الإشارة أتتني الحيرة».

قال ابن عربي: «لو صبرت لظفرت بما تريد. اعلم أن الله المجيد يبعث في كونه إشاراتٍ لعباده، ويُلهم من يشاء قراءة ذلك. والسعيد من يتبع ما تأتي به الإشارات في كونٍ يستمع إليك، تماما كما تستمع إلى أصواته ونغماته وكلمات مخلوقاته ولُغاتهم. يسمعك الكونُ فتأتيه الأوامر بأن يستجيب لما تقول. لو أخلصت للعلم سبحت في بحوره، لو أردت الوصول، أضاءت أمامك الطريق. فليس سوى أن

يريد المرء ما يريد، وعلى الله تعالى التوكل وبه الحُسبان. والأمرُ بين كاف منه ونون، كاف ونون لمّا اتصلتا ربطت بينهما وعطفت واو، فصارت «كُن» كونا فسيحا.

واعلم يا معلم، أن كل إنسان هو مرآة نفسه. ثم إن هذه المرآة تعكس العالم كلّه، فالعالم يبدو لنا كما تريد مرآةٌ داخلنا. فالإنسان نسخة جامعة للموجودات، والله تعالى جعل فيه من كل موجود حقيقة. فصورة الإنسان هي نفسُه، وإن مَن نسِيَ صورتَه نسي نفسَه، أو أنساه الله تعالى نفسَه. وأنا قد حكيت لك من خبر أمي الروحانية فاطمة بنت المثنى، فدعنا نكمل ما بدأنا، لعلنا نفهم من الإشارات ما ينير لنا الطريق.. ففي ذلك الزمان جاءتني الإشارات من أعيان الرجال بأني أسير نحو الطريق. ومن هؤلاء الذين التقيتهم وأثّر، فيّ وفيه، لقاءٌ قصير عميق، قاضي قرطبة ابن رشد الفيلسوف العاقل. كان صديقا لأبي، ولما وصلته أخباري، رغب في لقائي، وبلغه ما فتح الله به عليّ في خلوتي، فكان يُظهر التعجبَ مما سمع. وما أنا في ذلك الوقت غير فتًى أمرد صغير. فرتب أبي لقاءً يجمعنا بطريق غير مباشرة. فيه وقفت عند الاتفاق بين طريقي وسِكّتِه، فطريقي للروح، وسكته، يرحمه الله، للعقل. إن التصوف الحق، يشمل الفلسفة ويستفيد من تجارب البشر أجمعين. هل خلقنا الله تعالى شعوبا وقبائل، إلا لنتعارف ونتشارك ما في أيدينا من فهم لهذا الكون، مع اليقين الثابت بأن بعثة سيد الأولين عليه الصلاة والسلام هي الجامعة الخاتمة الكلية؟ حينما التقيت بأبي الوليد بن رشد، لم أكن ممن يُنكرون على العقل حقه في معرفة الوجود، كنت فقط أرفض ادعاء أي عقل باحتكار معرفة الوجود. فنحن كلما عرفنا، أدركنا أن ما لا نعرفه أكثر، فالمعرفة تقودنا على الدوام إلى يقيننا بعدم المعرفة.

وكان يرحمه الله، من أهل النظر العميق، ويراني من أهل الكشف ممن يبغون علمهم في المناجاة والقرب والإلهام. وأنا لم أكن، كما أوضحت لك، ممن ينكرون طريق النظر، لكنني أعارض الخلط بينه وبين طريق الكشف. وبين النظر والكشف، كما بين عقل محدود وروح موصول بالموجود، ولكل مقام مقال، ولكل علم رجال، كما لكل وارد حال. المهم يا معلم، أني دخلت عليه، وأنا صبي ما بقل وجهي ولا طر شاربي. فعندما دخلت عليه قام إليّ من مكانه محبة وإعظاما، فعانقني، وقال لي: «نعم». قلت له: «نعم»، ففرح واستبشر، لأني فهمت ما قصده، واستشعرت السبب الأكيد لما أفرحه. فقلت له: «لا»، فانقبض وتغير لونه وشك فيما عنده، وقال: «كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي؟ هل هو ما جاءنا به النظر؟». قلت له: «نعم»، ثم قلت: «لا». وبين «نعم» و«لا» تطير الأرواح من موادها، والأعناق من أجسادها. فاصفر لونه، وارتعد، وراح يحوقل. فهو ـ يرحمه الله ـ عرف ما أشرت به إليه، فقد قلت «نعم» أي أن الكشف جاء بما بلغ إليه النظر، ثم قلت «لا»، فبين النظر والكشف ما بين عقل محدود وروح بلا حدود.

وفي لقاء آخر اجتمعت بابن رشد وتناقشنا في مسائل وصل إليها بعقله وفكره المتعمق النافذ. كان يعرض عليّ ما عنده من أمور ومسائل، ثم يسأل إن كان ذلك هو كذلك الذي جاء به الكشف والوصل في الخلوات والاعتزال؟ أم أن هناك خلافا؟ وأوصاني في كلمات جزلة قلّت ودلّت، ثم عانقني وأوصلني بنفسه لباب بيته قائلا: «الحمد لله، أني في زمان رأيت فيه مثلك. لقد دخلت يا ولدي إلى خلوتك جاهلا، أخلصت فصفيتَ، وسموت فوصلت، وخرجت مثل هذا الخروج، من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة. إن هذه

حالة أثبتناها، وما رأينا لها أربابا. فأحمدُ الله كوني في زمان فيه واحدٌ من أربابها، الفاتحين مغالق أبوابها، والحمد لله الذي خصني برؤيته».

وبعد شهرٍ أو يزيد، فكرت في أن ألتقيه مرة أخرى، وتساءلت في نفسي: إن رجلا كابن رشد أولى بطريقنا، فلو اجتمع لمثله كشفٌ بعد عميقِ نظرٍ وبُعد عقل، فإن شأنه سيكون عظيما، ومنه سوف تستفيد البشرية كلها. ثم فكرت مليا، فرأيته وبيني وبينه حجاب رقيق، أنظر إليه منه ولا يبصرني ولا يعرف مكاني، وقد شُغل بنفسه عني. فقلت: إنه غير مُراد لما نحن عليه، وإن لكل منا طريقا، نتفق في غايتها، ونختلف في مسالك مؤدية إليها. وخرجت من لقائه فقلت:

للشـــرع نـــور وللألبـــاب ميـــزان   والشـــرع للعقل تأييد وسلطانُ
والكشف نـور ولكن ليس تدركـه   إلا عقولٌ لها في الوزن رجحانُ

وما اجتمعت به حتى صعدت روحه لبارئها سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراكش، ونُقل إلى قرطبة. وشهدت ذلك وأنا واقف ومعي الفقيه الأديب أبو الحسين محمد بن جبير وصاحبي أبو الحكم عمر وابن السراج الناسخ، في موقف عظيم ومنظر غريب، دابة تسير حاملة على جانبيها حِملين متكافئين ومتساويين تقريبا. كُتبه ومؤلفاته على جانب الدابة، وجثمانه يعادلها وزنا على الجانب الآخر. تابوته عادل تواليفه. فالتفت أبو الحكم إلينا، وقال: ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه؟ هذا الإمام وهذه أعماله يعني مؤلفاته العظيمة. فقال له ابن جبير: يا ولدي، نِعْمَ ما نظرت، لا فض فوك فقلتُ:

هـذا الإمـامُ وهـذه أعمالـه   يا ليتَ شِعـري هـل أتتْ آمالـه

مات الفيلسوف القاضي ابن رشد، وما أظن الناس عرفوا قدره ولا مقامه بين أهل النظر وأرباب العقل. ففي ذلك الزمن ضربت الفتنُ

جنباتِ الأندلس، وذابت ممالكُ العرب على أطرافها، وطغت غلبة الأعداء. وأما أهلنا في المشرق، فكانت الأنباء تأتينا بما لا يسُر حبيبا يترقب الفرج من جهتهم. فبقدر ما كانت الأخطار تُحيطهم، كانوا يقتلون أنفسهم بأنفسهم، وباسم العلم، وهو عين الجهل وذات الفتن. فقد حدثني قادم من مدينة «مرو» في زمن الوزير الخوارزمي مسعود بن علي، عن واقعة جرت هناك وامتدت لإصفهان بين أصحاب المذاهب الفقهية من حنابلة وشوافع، جرى فيها كثير من القتل والنهب والدمار، حيث بنى الوزير المذكور، وكان متعصبا للشافعية مسجدا لأهل مذهبه مشرفًا على جامع للحنفية، فغضب الحنفية وأحرقوا الجامع الجديد، واندلعت فتنة عنيفة مدمرة بين الطائفتين، حتى عم الخراب إصفهان. قلت: لو هذا حالنا؛ فكيف نتحدث عن نصر الله القريب؟ إننا بأيدينا نستحق ما وقع بأيدي أعدائنا. وأدركت أن الحب شحيح في نفوس هؤلاء، الحب ولا شيء غير الحب.

ولم يكن غوصي في المعاني وانشغالي بالرؤى يفصلني عن واقع الأندلس الأليم. كثيرٌ من رفقاء الطريق ساروا فيه لخوفهم من واقع الحياة وما يخبئه القدر. لن أُخفيك سرًّا، أنه مسّني ما شغلهم، لكنني جاهدت لأقصد الطريق من أجل الطريق، لا بسبب دافع المخاوف وظلال الحروب البادية وراء الجبال. رأيت أنها تضيق لتنفتح أبوابها، وتُهدي إلينا الآلام لنُفيق، وتنهدُّ فوق رءوسنا لنصبح في ضيافة سماء حانية. إنها ما ضاقت إلا انفرجت. وأقول لك عن انقلاب الزمان: فالإمامة علامة، وهي برزخ بين العطب والسلامة، فمن عدل غنم، ومن جار ما سَلِم. من أقسط نجا، ومن قسط كان على رجا. صاحب البيعة في نعمة المنعة، فلا يُوصل إليه ولا يُقدر عليه، فهو المنصور والواقف على السور، فإذا عُزل سُئِل، وإذا سُئل نُصِر أو خُذِلَ، وما

دام في سلطانه فلا سبيل إلى خذلانه. فالقائم بالحق إذا نَطَقَ صَدَقَ، والقائم بالسيف وإن عدلَ فهو صاحب حَيف، لأن الأصل معلول فصاحبه مخذول. لا يقوم بالسيف المسلول إلا الرسول. فلا تفرح بالتُرّهات، وهيهات هيهات، الأصل الفاسد يحرم الفوائد، المقتصد يستبد والظالم حاكم، والسابق لاحق.

وقدري أن أرى نهايات دولة المنصور القوية تضعف، تستحيل كيانا هشّا، لا أمان معه أو فيه. بتنا في دولة الناصر، لم تعد قرطبة دولة مُهابة صلبة عصية على الطامعين، عشنا أسوأ ما يمكن لخيال مهزوم أن يتصوره، هزائم متتالية، وقاسية. موزاين القوة انقلبت، شالت كفتنا ورست كفة الفرنجة. لم يتوقف الأمر عند حد خطر الهزائم، بل تعداها لوجودنا في أرض لم نعرف غيرها، وبعقيدةٍ كل يوم يزداد غروب تعايشها بين خصوم غلاظ لا رحمة في قلوبهم. لم يكتف الحاكمون بما نحن فيه من غم، وبما يقترب إلينا من قلق شهدنا هبوب ريحه العاتية، بل راحوا يضيقون علينا ما كان واسعا. وقالت لي قلوب مُشفقة: إن سلطاننا الجديد الأمير المنصور يصل مسامعه عني كل سوء. قالوا له: إنني خطرٌ على ما تبقى له من مملكة، جولاتي بين حواضر الأندلس، وغشياني مجلس العلماء، ولم أكن غير شاب لا يعرف لفظ «تحريض» اللهم إلا تحريضا يحمله للبحث عن الحق، والوصول إلى الحقيقة. اعتذرت إليه عن قبول وظيفة لديه تطمح إليها أفئدة علماء رسوم وفقهاء ظاهر. قيل له: كيف يقبل ذات الوظيفة عند أبيك ويرفضها عندك؟ وتطاير الشرر، لكنه لم يدفعني للخروج من حاضرة تشرخها الانقسامات، وتضغط على زجاجها الهش تهديدات الفرنجة. وكل ما حول قرطبة من ممالك، حالها كذلك وأشد. تعكر ماء الأحوال وبهت لون المقام وانحبس صوت

المقال. أصبحنا وحدنا في مواجهة تهديد اقتلاع، ونذير موت، وشبح قبول واقع أقسى من الموت، وباب خضوع للأقوى الشرير، أو بالنهاية بوابات اضطرار لنزوح، وكل ساعة تُغلق دوننا منها بوابة. فدبّت آمال حزينة بالهجرة، بادر بها من كان عنده فضل بصيرة، وتأخر عُميان أسميناهم وسمّاهم التاريخ بعدنا وبعدهم بـ«المدجنين». أقليات اختارت المكان، فخاصمها روح المكان، فخضعت وخنعت وسكنت، ظنا منها أن في سكونها بقاء مساكن يرضونها، وبساتين يزرعونها، وذكريات لا يريدون لها أن تصير مجرد ذكريات. لكن طبيعة جواري الفلك حكمت عليها بالذوبان والانتهاء صبرا وقسرا، أو انصهارا لا يُبقي أثرا لحقائق لن تعود حقائق وسط عادات الأعداء وتقاليدهم. ربما سوف تلمحهم في شعر أسود، أو عيون كحلاء.

قرأنا ما كتبه من عاش قبلنا، وطالعنا كل ما سطّره من عايشنا، فوجدناه كله خيالا. وجاءت الحقائق الكبرى من التقاط رموز الكون حولنا، همس الريح، وعزف الزمن، وأسرار محيطات الأجواء. لم يكن التصوف هروبا، وإن كان كذلك فيما لمحته بهجرات رفاقي التي بنتها لحظات خوف وليالي إرهاب وقلق، اتقاء لما رأوه من مصائر مغلقة. لم أخرج طلبا لتحصيل علوم المشرق، فلم تعد حقائق بالكتب. الحقيقة في الوجود، لا يُقدمها لك غير التأمل في الموجود، الحقيقة بُغيتي في طويل رحلتي.. الحق أخرجني للحق».

قرأتُ على زين كعادتنا ما كتبته، استحسنه. عرضت عليه الخروج للمقهى، فلا بد من تغيير الأجواء، اعتذر. لكنه رغب في الحديث عمّا أسماه قدره الغريب، حقًّا غريب. زين شاب من أبناء جيلي، بدأ بأمل فوصل ليأس، جرّب، شرب ودخّن، أدمن السهر، عرف شارع

الهرم، وأحب ابنة عمته، انتظرها وهو يغازل أخريات ويرافقهن. حتى كانت الليلة التي قرر فيها أن يكف عن كل شيء إلا حُبها والبحث عن عمل. واحد من جيل تابع حوادث كثيرة، أوضحها موجة التدين، وطوفان خلطة السياسة والدين. تَدَينَ قليلا بحسب ما ورث من سيرة المهدي الكبير، وندم على ذنوبٍ كـ﴿اللَّمَمَ﴾، بحسب التعبير القرآني. وكما يقول كتاب الصدفة، الذي ألفه عابر فوضوي يعشق الجغرافيا ويجهل معالمها، ويكره التاريخ بعد أن تعلّم كل دروسه وقصصه ومآسيه ومباكيه.

إنه في ساعة كذا جلست أُدَوِّنُ ما يُمليه «زين العابدين المهدي» عن ذلك اليوم من يناير عام سبعة وسبعين وتسعمائة وألف:

«نفق الملك الصالح غير هادئ، السيارات تمرق سكرانة مسرعة إن تمكنت، وهاربة ما استطاعت. لا يحترز سائق باحتكاكات آخرين، فيما قبل ذلك بساعات، كاد الاحتكاك بين سيارتين أن يُنتج مشاجرة وعراكا. الساعة لا يملك أحد رفاهية الخوف على طلاء عربته وهو يتقي حجارات ترجمه من فوق سور النفق. شباب وصبية مجانين ينتظرون ساعة الفوضى انتظار الهشيم لشرارة تافهة. مجموعات عشوائية تحتل النفق من الجهتين، ويتسورون مدخليه متنمرين، الحجارة بأيديهم وزجاجات مياه غازية فارغة. مسابقات دون ترقب إذن بالانطلاق لرجم السيارات العابرة. غيوم الشتاء شاهدة على أني لم أكن معهم. كنت إلى جوارهم أتابع مشهدا عجيبا في يوم عيد ميلادي السابع والعشرين. ما أهمني غير الوصول بسرعة للبيت بعد مقابلة توظيف أُلغيت بسبب الاضطرابات، ولم يهتم أحد أن يبلغني بالإلغاء.

ليلة عيد ميلادي اعتدت رؤية أشياء غريبة بإشارات أفهمها وحدي، وفي ليلة التاسع عشر من يناير، رأيت أن ذبابا يطِنُّ فوق

رأسي، فأدوخ وألف، وأرقص كالمولوية، وزاد الدوران حتى طرت بين السحاب. قلت: سيصيبني مكروه وسآسف على كرب شديد، ثم يكون فرج وارتفاع.. لا أُحدث أحدا بما أرى إلا في مرات معدودات، لأسباب ثلاثة، أولها أود لو أحتفظ به لنفسي، والثاني أن معارفي سوف ينقسمون كعادتهم في تقدير مواقفي وتفسير شخصيتي. الأغلب سيكرر اتهامات بالخبل لم تعد تضايقني، وأقلهم سيَرْثَوْن لحال لم يفهموها، وأقل القليل سوف يعتبرني مكشوف الحجاب، شفّاف النفس. أما ثالث الأسباب، أو آخر قوائم الأثافي التي يستند عليها قِدرُ رؤايا التي تغلي، فهي الوسوسة من أن مجرد التفوه بما أرى، سيؤكد حقيقته، ويُحَتِّمُ وقوعَه. يعني السبب الأخير هو التشاؤم، وإن كان السكوت لا يغني من شر أمر أحلامي شيئا.

في اليوم السابق، كان الشعب على عادته يشكو ضيق الحال وارتفاع الأسعار. الشكوى في السنوات القليلة الأخيرة صارت مختلفة، فالناس الذين عانوا بعد العدوان الثلاثي صبروا أو تصبروا، أو أُرغموا على الصبر من أجل الثأر لهزيمة يونيو. فدخلنا حرب الاستنزاف، وبات ما تحتاجه المعركة أو الاستعداد للمعركة محرّمًا على البيت. انتظرنا طويلا حتى عبرت قواتنا المسلحة ـ كما في البيان الشهير ـ قناة السويس واجتازت المانع المائي واقتحمت خط بارليف وكبدت العدو خسائر فادحة. وانتهت الحرب وتناسينا خسائرنا أيضًا الفادحة، وانشغلنا باندهاش عدونا. سكتت البنادق، ولم يسكت عبد الحليم حافظ. انتهت الحروب، دخلنا مرحلة الاستعداد للسلام والبناء والرخاء بعد تدهور مقبول ومشروع في الاقتصاد بزمن القتال. وترقبنا وعود الرئيس المؤمن ببيت وسيارة لكل شاب، مع انتظارنا خطابات القوى العاملة. بنينا آمالا بيضاء، ونسجنا أحلاما من غزل ملون،

وانتظرنا كالمفاليس أماني كاذبات، فصدمتنا صحف الصباح، مع أن كثيرين كانوا يعلمون قبلها بيومٍ القراراتِ الجديدة، لكن لم نصدقها في ساعتها، بل لم نتخيلها. فخرجت الصحف سوداء بقرارات على لسان الدكتور عبد المنعم القيسوني نائب رئيس الوزراء للشئون المالية والاقتصادية، أفظعها المساس بما لا تملك بطنٌ جسارةَ توقعِ مسِّه، رفع سعر رغيف العيش خمسين بالمائة، والسكر والشاي والأرز والزيت والبنزين وعشرات من سلع هي بدائل أساسية، في زمنٍ صارت البدائل أساسا للفقراء ومحدودي الدخل ومقطوعيه ومحتسبيه، ممن هم تحت خط الفقر أو لا يدركون أن هناك خطا يمكنهم تجازوه أصلا. شددنا الحزام، حتى استهان ببطوننا الحزام وهاجرها لكروش وقطط سِمان ارتدت الأحزمة من جلودنا.

علمت بعد ذلك بسنتين يوم بدء الحكاية، أن الانتفاضة ولها اسمان، واحد حكومي هو «انتفاضة الحرامية»، الذين حُسبتُ زورا منهم، وآخر يساري هو «انتفاضة الخبز»، الذي أنا من قطعان آكليه، أنها بدأت عفوية بدعوات فردية متناثرة، فخرجت الحشود من المصانع الكبرى حيث التجمعات العمالية التي ما زالت على أمل عودة السادات لخطى عبد الناصر، فاشتعلت حلوان وشبرا الخيمة والمكس بالإسكندرية، وفي كل محافظة تقريبا، حتى مقر استراحة السادات نفسه في مشتاه بأسوان. احتشد الغلابة، فانتهز الصبية الاضطراب، ومارسوا التخريب كلعبة مثيرة.

قد تعلم ما جرى لي أو قد لا يُهمك ذلك، فأنا شخصيا أتجنب الكلام عنه. والمختصر الذي لم يكن مفيدا، أنني اعتُقلت بالخطأ، وعُرضت على النيابة بالخطأ. قلت: إني لم أُخرِّب ولم أُحرِّض، ولم أُشارك، ولم أفعل شيئا غير المرور إلى جوارهم، وما جاريتهم فيما

كانوا يفعلون. بل الاعتراف الذي أقسمت عليه، أنني لا يعنيني أمرهم، ولم أُبدِ اعتراضا أمام أحدٍ ما على سياسات الدولة الأخيرة، ولا حتى أملك بطاقة تموين. من أين أتى المحققُ بكل هذا الغباء؟ وكيف صدّق تقارير لا أعرف كيف كتبوها ولا كيف أدرجوا فيها اسمي؟ قال لي: «يا زين، جامعي مثلك درس فلسفة، لا يملك وجهة نظر؟». فجاءت وجهةُ نظره إحالةً للجنايات، كذا جنوا عليّ وما جنيت على مخلوق. هل تملك أيدينا فعلًا تجاه قدرٍ قاهر؟

بعد قرار إحالتي لمحكمة الجنايات أودعوني والمئات معسكرا للأمن المركزي «صنف جديد من بشر غلابة، اقترب عددهم من حجم الجيش». هناك، في معسكر المغول رأيت كابوسا. شرح لي أحد فلاسفة ديننا الجديد المستورد من بلاد النفط وكان معي محبوسا، أن الذي عاينته يُسمّى في عُرف العلاج بالقرآن «جاثوما». ودون فلسفات، رأيت أني خرجت من جسدي مقيدا بسلاسل من القدمين إلى العنق، سلسلة من بينها بدت كثعبان مُرقّش أو مُمَوّه كلبس الصاعقة، كلما أردت لحلحة القيد نظر إليَّ الثعبانُ بغضب، ثم سحقتني دوامة من ريح أسود رمت بي على شاطئ نهر، فرأيت جنودا ضيِّقي العيون صُفر الوجوه، غلاظا شدادا. تابعتهم مفزوعا وهم يعصرون خصية غلام ناهز الحُلُم، ثم ينزعونها ويحشونها بلحم دجاجة مزارع بيضاء، ومن ورائهم قضاة شرعيون يضحكون. قمت مفزوعا والعرق يغسلني، فصرخت وظللت أصرخ: «التتار على الأبواب، أيها الناس، انتبهوا. الموت إن لم تستيقظوا، ستقتلون أنفسكم بأنفسكم».

انتبهوا لي، وصل الخبر بعد «بروجي» الطابور إلى ضابط عظيم، فتكلم معي بهدوء وحكيت له. وتوقف مليا عند تحذيري من القتل.

وبعد يومين كنت ثانية أمام وكيل نيابة آخر، فحكيت له الكابوس أو الجاثوم، وشرحت له الخلافات في التحليل النفسي لما يراه النائم، فقرر إحالتي للطب الشرعي بعنبر ثمانية، وما أدراك ما «ثمانية غرب العباسية». هناك قضيت عامين أو أقل قليلا. وفيهما حصلت على البراءة، وبقي قرار لا أملك فيه خيارا، غير طلب الشفاعة بالعرض على طبيب».

لم أقدر أن أُخفي تألمي لما حكاه زين، بدا على صوته إرهاق ونام بين عينيه أسى. سألني:

ـ هل أنا مجنون؟

ـ أنت روح رائع.

ـ ومجنون.

ـ كل رائع به مسٌّ من جنون، أنت تملك كثيرًا من المحبة.

ـ وكثيرا من الجنون.

ـ طيب، سأتمشي مع قناعتك بذلك. إن جنونك، لو كنت مجنونا، غير مؤذٍ، حتى لنفسك، فهو يغسلك من أجل أن تتهيأ لصلاة الحياة الوادعة.

ـ دعك من تعابيرك الشعرية.

ـ أتكلم بجدية، إن ما تراه جنونا، هو مجرد حزن تطور معك وتضخم فيك. لو خلعته عنك، لأثبت لنفسك أنك سيد العقلاء. الحزن جنون عابر، والغضب لوثة وستزول.

ـ إن لم أكن مجنونا، فالجميع حولي مجانين. حتى أنت (قالها بضحك يرققها).

ـ وما أدراني؟ أحيانا أشعر بأن تصديقي لكل ما جاء بحكاية

المهدي ومخطوطه يثبت أني مجنون. روح يتكلم، وفخراني يتعلم ويؤلف.

ـ فلماذا تستمر في تحقيق المخطوط؟

ـ لأني أؤمن بأن أعظم الكتابات يقترحها جنون ويسجلها عقل. لأني بدأت معك ومع المهدي ومع ابن عربي طريقا شاقة صعبة صاعدة، لا بد من إكمالها ولو بشق الأنفس، عدمُ المُضي فيها أو اختيار غيرها هو ضرب من الجنون. طريق الحب هي التي تنقذنا من الجنون. أنا تعودت أن أكمل كل ما أبدؤه، أغلب الفشل من تجارب لم تكتمل، جمل غير مكتملة.

حاولت تغيير الموضوع، قلت: نُكمل حكاية الست حميدة مع جدك، واضح أنه كان فحلا. ضحك زين: «حكاية البطة والذّكَر».

إذا كان الحاضر مُرًّا، فانثر على أطباقه بعضا من حلاوة الماضي وعسله، فيستطيب يومك بأمل في غد حنون.

وانفك عمل الآنسة حميدة، ولم يكن من عمل ولا سحر، فحكايا حارات «مصر عتيقة» عتيقة مثلها، تختزن بتراكم الروايات وتنشط بالسؤال. الغرفة سكنها شيخ مغربي أو أندلسي قبل قرون، وفيها اعتزل الناس في رحلته العابرة بعد وفاة اثنين من رفقاء عبور سبيله، وبعد اضطهاد قضاة زمانه ممن رموه بالكفر والزندقة. لكن شواهد كثيرة تقول إنه رجل مبروك، بدليل بركة أو راحة يُحسها كل مارٍ بجوار حجرته المطلة على حديقة فناء البيت الكبير، وروائح ذكية خفية المصدر وشجية. «هل كان الرجل المبارك هو نفسه صاحبي زائر الرؤى، وطيف الضوء المحوط بالبخور والمُندّى بألوان العود الفوّاحة؟»، لا يدري المعلم: كيف استقر هذا بنفسه واعتقده.

لإتمام حلم التفرغ للتدوين، لا بد من منح الجسد بعض راحة، أو لعل مقصده من توفير الراحة إتمام العدل بين امرأتين. فكّر لو استعان بصنايعي «صانع» يخفف عنه العمل الشاق، ويكفيه كثيرًا من الأعمال العادية، وتتبقى له أعمال مخصوصة لا يُحسنها غيره من قدور راسيات يتعدى قطرها مترا وطولها قد يزيد على ضعف ذلك أو أقل قليلا. ثم أرجأ الأمر، مخافة أن يُبتلى براحة جسد قد تفتح طاقات أمراض. أجسادنا كما عوّدناها، بالرياضة والعمل تصِح، ولكن الرياضة تكون وبالا لو أعقبناها براحة طويلة، فلن تقل كميات الطعام، وحرقها سيقل كذلك، والسمنة بالمرصاد، ومع عادات وجبات اللحم اليومية، سمينها المشوي، وأحمرها المقلي فوق لِيّة ضأن تمنح الجسم طاقة، ومطبوخة في قدر ومدفون معها حبّات من بلح جوزة الطيب. لو اخترت الحركة، لا تتركها، فتُهملْك.

وفي ليلته الأولى قضى حاجته مرتين من حميدة. تركها، اغتسل ومضى للقراءة. تعجبتْ منه، وحاولت استبقاءه فحدّثته عن إمضاء مُعتقها «سليمان باشا الفرنساوي» ليله في القراءة. دهشته غالبت غيرته. نعم إن سليمان بك الفرنساوي قد أسلم، لكن حديثها عن حياته قبل إسلامه وبعده أثاره. لقد غزى أهل ذلك الفرنساوي البلاد، ووصلته حكايات عجيبة عن قوتهم ونيرانهم ونظامهم في كل شيء، فراح يُدَوِّن في مخطوطه سماع المعلم لروح يتكلم:

«كتبت ما أملاه علي إمامنا وشيخنا وسيدنا بعد أن طرحت تعجبي من ضعف المسلمين وبأس الكافرين، وأن هجماتهم التترية والفرنساوية لم تكن لغير استئصال شأفتنا ومحو ديننا الذي هو دين الحق. فهل يمكن أن نلتقي دون حرب ونار؟».

قال لي: «حتى إن أرادوا القضاء علينا فلن يستطيعوا، فقدر الله

أن تكون نهايات دولنا من داخلها أو بيد أشقائها من نفس الملة. وأما ما أنتجه غيرنا من علوم فنحن به أولى. يا صاحبي، نحن مختلفون نحمل رسالة بالحضارة، المتشددون لا يرضون بغير قناعتهم وحدها. الربانيون يدركون مغزى الاختلاط، ويتقون ربهم بتعارفهم إلى حضارات الناس ليتم مراده سبحانه ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾.

وصل الأجداد لجنوبٍ هو منتهى شمالهم، عبروا البحر وما سكنوا، ولا سكن بهم برٌّ أو بحرٌ. صعدوا شمالا، لم يقصدوا غزوا، بل فتحا وانفتاحا على ثقافات كلٍّ من مروا بهم. الرومانية لم تزل قائمة، وللقوطيين حكمتهم وفلسفاتهم، بل من عاداتهم ما لا نرفضه. امتزجت القبائل بالقبائل، وتجانست الشعوب بالشعوب، فأنتجت الأندلس شكلا جديدا عبقريا سَمْتُه الإسلام وروحه الجميع. أفدناهم، فعمّتنا الفائدة. صار منا المولّدون، خلطاء دم السكان الأصليين مع الفاتحين العرب والبربر، وانساب بيننا المستعربون كسرحان نهر الوادي الكبير في إشبيلية. المستعربون هم أبناء الأندلس المسيحيون، الذين أقررناهم على دينهم، فاطمأنوا وغرفوا من لغتنا وثقافتنا، بل ملابسنا وعاداتنا. لا حدود جافة كصحراء جزيرة العرب تفصل ما بين الناس، لامسنا دول اللاتين ولامسونا، أخذنا منهم، وقبلها هم قد أخذوا منا. لكن يظل نبعك داخلك وإن تعددت روافد معرفتك وجَرَتْ جداول علومك. نبعك هو أنت، فلا تحصر نبعك في أفواهٍ بعينها أو كُتبٍ لا فرق بين أكثرها. الحكمة ضالتك، خذها أينما وجدتها وعند أيٍّ اكتشفتها. الحكمة قد تأتيك من قول عالم، أو من هذيان مجذوب، من طفل تحسبه لا يدري، أو شيخ أعطب ذاكرتَه نسيانٌ. الفقهاء والفلاسفة، الناس بأسواقهم، البشر بهمومهم، التاريخ بدوله، المتسع حولك بنجومه وهضابه وجباله، الكل يقول

لك شيئا، ستجد أن الكون كله بأجمعه يشكلك ويمنحك إشاراته، دورك الاتباع حيث أشار قلبك، فليس ثمة هوى عندها.

ستجدني صادعا ما استطعتُ بكتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، ظاهره وباطنه، محاولا تلقي إشارات الأسرار. وستفاجأ بأني ما اكتفيت بالجملة والآية والكلمة، بل مسّني كل حرف، فسقاني إلهي من نبع سر الأبجدية. وفي الأندلس التقيت برهبان وأحبار وفلاسفة بارزين أو معتزلين في أماكن موحشة. سُقيتُ فلسفةَ الرواقيين والمشائيين والمتكلمين من المسلمين وغير المسلمين. عند كلٍّ منهم وجدت بضاعة دلتني إلى طريق أكملتها في رحلتي، فوقفت عند الكلام، ولم يعنيني صاحبه.. هل تتخيل أن أحدا من هؤلاء أنتج الشر المحض فقط؟ لا، ولا حتى الخير الصافي. بل كلٌّ يؤخذ منه ويُرد، والأعمار التي أنفقوها في الوصول إلى حقيقة أرادوها لا تخلو من حقيقة، وإن انتهت خلاصات بعضهم إلى ضياع. لا بد من قول جميل: كل حياة هي قصة وتجارب، بعضها يُصقل البعض، فتنتج الحكمة. لم يخلق الله تعالى العقول سُدى، وعقل يرى في كل العقول من خصومه ومخالفيه ضلالا فقط، هو عقل ضال لم يمشِ وراء مراد الله تعالى، الذي منحه عقلا».

قلت له: لكنهم قد قضوا على دولة الإسلام في الأندلس كما سمعت؟

قال: «نحن الذين قضوا على «نحن» بأيدينا لا بأيدي اللاتين ولا القوطيين ولا كل الممالك والإمارات التي ما رضيت بنا يوما. الفاعل نحن، نائب الفاعل والمفعول به كذلك. في عام أربعمائة واثنين وعشرين أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور انتهاء دولة الأمويين، فاستعر انتشار الانتهاء الذي بدأ سلفا قبل عشرات السنين، واستقل كل أمير

بما في يديه. فرح الجهلاء منهم على نُذُر مائدة كانت حافلة عامرة. كنا أسرة واحدة قوية في دولة واحدة، فبتنا مغرورين وأصبحنا أكثر من عشرين أسرة حاكمة ضعيفة. وسقطنا. أول الإمارات الساقطة كَبِدُ الأندلس التي نسميها «طُليطلة». فزع الناس، وولوا وجوههم للجنوب مستنجدين بقائد المرابطين بالمغرب «يوسف بن تاشفين» فهبّ وهزم الإسبان هزيمة كاسحة في موقعة الزلاقة، واستعاد مدنا كثيرة، إلا طليطلة. لو ذُقت ماء نهر «تاجة» لوجدته مالحا، ملّحته دموع عجزة أضاعوا أنفسهم قبل أن يأكلهم أعداؤهم.

دروبها الضيقة ضاقت علينا، ومنازلها الصخرية لم تحتمل انقاسامات أهل البيت الواحد. دخلها ألفونسو السادس من باب «بيسجارا»، كنا نسميه باب شرقي. أليس الشرق مطلعنا، فكيف سمحنا لعدونا بأن يدخل من بابنا. نحن الفاعل والمفعول به. قدرنا الأبدي أننا نُضيّع أنفسنا بأنفسنا. طليطلة فتحها طارق بن زياد ببضعة ألوف، وضاعت منا ونحن مئات الألوف، طليطلة حصن تحوطه الجبال بلا حيلة منا، فخذلنا جبالا تخاف علينا. كانوا يعلمون أنها واسطة العِقد، لو تعرّت انكشفت كل عوراتنا، وانفرطت إماراتنا الرائعات، قرطبة وبطليوس وغرناطة وإشبيلية. انفرط عقدٌ حسبناه لا ينفرط».

انتهى المعلم من تدوين خواطر روح عن سقوط واسطة عقد الأندلس. شعر بأنه يسير في دروب حانية حزينة. هل لمح، وهو مغمض العينين، جموعا تنتحب وعائلاتٍ تستبق الهروب؟ كيف يمكن لمُلك أن ينهار بهذا الشكل المخزي؟ تذكر شقفات خزف وجدها أثناء حفره لإرساء قواعد دولابه على حدود خرائب الفسطاط، شقفات خزف أندلسية كما قال له تاجر سكندري رآها.

شيء بارع الإتقان صُنع بهدوء نفس، تساءل: كيف انتهى مصير الفخراني الذي صنعه؟ هل احترق كخزفه؟ هل ترك دولابه وراءه وولّى مستنشقا ضباب بحر يحمله لبر أمان؟ قال: «أنا نفسي تركت خلفي ما أملك ووليّتُ هاربا في جبال أسيوط».

لأسبوع كامل تقول حميدة إنها خائفة، فأقنعته شهوته بالمبيت وإرجاء العدل بين المرأتين. تفنن معها، مختلفة عن عزيزة. لعن في سره صديقا قال إن النسوان كلهن واحد. الجواري لهن أسرارهن. الركوبة مختلفة. فرق بين امرأة تنام هامدة كوسادة فوق سرير، وأخرى لا يستقر لها سرير. امرأة تنتظر الفعل، وأخرى تباغت بالرقص والضحك المثير. وهل تتساوى بغلة بفرس؟ علاها وقد أسرته، فظل دون ملل يراوح بين شفتيها. هل ذكّره بعسل أسيوط؛ فأغراه بالجري بين غيطانها الفوّاحة؟ نام. ثم قبل الفجر نشط يتابع رحلة ابن عربي من الأندلس حتى تونس. احتشم قبل أن يكتب على لسان روح مولانا شمس العارفين أو استلهاما من فتوحاته:

«في ذلك الزمن دعاني أمير الموحدين المنصور إلى المغرب لأتولى تربية ولده الناصر وتعليمه، وأسند إليّ توقيع المراسيم وإنشاء الرسائل. استجبت على خوف، فالاقتراب من السلاطين شائك ومفتن، وما هو مقدور كان. فسرعان ما وقعت الجفوة، ومصدرها على الدوام الحسد، فأشرُّ ما يكون لحاكم هو بطانة فاسدة، فرجعت للأندلس. لكنني بالمغرب أنعم الله تعالى عليّ بالاتصال بشيوخ عظام ورجال ذوي همة عالية، كأبي مدين الأندلسي الأصل. وقبل رجوعي لإشبيلية دعاني الحنين للطريق لمواصلة السير باتجاه تونس. هناك جداول تُسبح مياهها بحمد ربها، ومجارٍ تسير مأمورة راضية فتسقي الأرض في نظام شديد الذكاء والتنسيق في وادي الجمال.

وادٍ تتقاسمه ستة جداول، تتشعب عنها سواقٍ لا حصر لها، ولا حد لحسابات دورانها، تصب في قنوات محفورة في الصخر، يأخذ منه كل فلاح بقادوسه كمية ليس بها إسراف لسقي بستانه. جمال ناعس مطمئن وافر بالحياة. أنّى توجهت نفسك اطمأنت، والروح ترتاح. كذا ارتاحت نفسي في كل محل مررت عليه بتونس. وهل ترتاح الروح أو هل يمكن أن تهدأ عن التقلب في أفلاك لا يتوقف سعيها إجلالا لخالقها؟».

لكن ينبغي أن أحدثك عن شيء غريب. فأعجب مما رأت عيني من جِنان تونس وبساتينها الحسنة، هو ما عاينته بنفسي بعد عودتي منها إلى إشبيلية. جرى أمرٌ علمت منه ما يكون لبعض رجال الله من الولاية والخوارق. وصُوِّرَ لي أنه لا بد في كل جماعة من ولي خفي لا يعلمونه، ينقل بروحه من كلامهم الطيب إلى غيرهم. فحدث في عصر ذاك اليوم المعلوم عندي والموثق كتابة، أني دخلت جامع تونس، وصليت ما شاء الله لي، ثم انحزت إلى شرقي المسجد، حيث مقصورة ابن المثنى، فجرت على لساني أبياتٌ من شِعرٍ نظمته في تلك الساعة:

مقصورة ابن مثنى ... أمسيت فيها مُعَنّى
بشادن تونسي ... كالغصن إذ يتثنى
فذبت شوقا ويأساً ... ومت وجدا وحزنا

وقفلت بعد يومين عائدا فوصلت إشبيلية في نحو ثلاثة شهور، وهي مسيرة القافلة، فاجتمع بي إنسانٌ لا يعرفني ولا أعرفه مصادفة، وسمعته يُنشد نفس ما قلت من شعر في جامع تونس. فسألته: لمن هي هذه الأبيات؟ قال: قالها رجل يُدعى ابن عربي وسَمّاني. فقلت: متى حفظتها؟ فذكر لي التأريخ الذي عملتها فيه والزمان مع طول هذه

المسافة. قلت: ومن أنشدك إياها حتى حفظتها؟ قال: كنت جالسا في ليلة بشرق إشبيلية في مجلس جماعة على الطريق، ومر بنا رجل غريب لا نعرفه كأنه من السياح، فجلس إلينا فتحدث معنا ثم أنشدنا هذه الأبيات، فاستحسناها وكتبناها، فقلنا له: لمن هذه الأبيات؟ فقال لفلان وسماني لهم. فقلنا له فهذه مقصورة ابن مثنى ما نعرفها ببلادنا! فقال: هي بشرقي جامع تونس هنالك عملها في هذه الساعة وحفظتها منه ثم غاب عنا. فلم ندر ما أمره؟ ولا كيف ذهب عنا؟ وما رأيناه.

بتونس أكرمني ربي بالدخول إلى منزل الأرض الواسعة، وأول ما دخلت وقفت أصلي خلف إمام بصلاة جماعة، فوقعت مني صيحة ما لي بها علم أنها وقعت مني، وسمعها من كان معي، بل سمعها الناس القريبون في بيوتهم، ثم أفقت، وانتهت الصلاة. فنظر إليّ الناس واجتمعوا حولي، فقلت: ما شأنكم؟ فقالوا: أنت ما شأنك؟ لقد صحت صيحة عظيمة. قلت: «والله ما عندي خبر».. كل ما أذكره أنني شعرت بالغياب في منازل الحكم الإلهية والاستعداد والزينة والأمر الذي مسك الله به الأفلاك السماوية. وقتها علمت وتأكد عندي ما كنت قد أحسست به سلفا، من أنّي مُعَدٌّ للوصول، وما ذلك على الله بعزيز. ونُفِث في روعي أنني به مبتلى، وأنه لا يجوز أن أتكلم عند من لن يفهم عني ومن لم يذق بعضا مما ذُقناه. فقررت فيما سوف يأتيني من مؤلفات، لا دور لي فيها غير إمساك القلم وتسويد الأوراق، أنه ينبغي لي الإيجاز والرمز وأحيانا الإلغاز، حتى تصل رسائلي لمن هو مستعدٌّ لها.

في تلك الأيام، كانت الأخبار شديدة على النفس، فملك قشتالة ألفونسو الثامن قد بلغ شره كل مبلغ، ولم يكن من حل سوى الاستنجاد بدولة الموحدين في المغرب، فهبّوا للنجدة، ودارت المعارك، وكم

كنت أدعو الله في سري وجهري بالنصر، حتى صحتُ صيحتي تلك. وما إن أفقت حتى أفشيت الأمر للناس، قلت لهم: إن الله بالغ أمره، وإن جيش الموحدين بقيادة السلطان الموحدي «أبي يوسف يعقوب المنصور» انتصر اليوم في معركة الأرك، ولسوف يطلب «ألفونسو» بعدها الهدنة. ما لم أقله وقتها: أني قبلها كنت أتأمل غزوة مؤتة وكيف نقلها روح القدس فجعلها أمام سيد الخلق ﷺ، فرأيت رسول الله وخلفه قلعة الأرك، عالية أسوارها، مهيبة حجارتها، والمعركة دائرة، صيحات وتكبيرات، وفداء بالنفوس، ونفسي سائرة بين الجنود، والجيش مقسوم لأربع فرق، الأولى للأندلسيين، وثانية للعرب والبربر، وثالثة للجيش الموحدي وهو قلب الجند، والرابع لمن أراد التطوع وكانوا في المؤخرة، وكنت بينهم، وظللت حتى أدركت أن نصر الله جاء، فصحت صيحتي التي أخبرتك بها في تونس.

قضيت شهورا في إشبيلية بين التفكر والتدبر، مختليا بنفسي أياما وليالي، أو زائرا لأساتذة عظام. أحيانا كان ينتابني الحنين للشوارع والأزقة والبيوت والمساجد والجبال والعيون والغابات، لعلمي أن كل ذلك عمّا قليل سوف يكون ذكرى، فقد أزمعت الرحيل والدخول للأبد، حيث بوابة القلب.

وأقول: ابن عربي اختار الرحيل، بينما الرحيل هو من اختار المعلم المهدي، أما زين فقد اختار الانعزال واختاره الانعزال. تأملت حال أبطال حكايتي الثلاثة. تساءلت: لو خُيِّرتُ بين أن أختار مصيري، أو يختارني مصيري؛ فأيهما أختار؟ أختار أن أختار، أم أختار ألا أختار؟ الواقع أن ما هو مقدور سيكون. فقلت: ما أجمل تدوين المهدي عن ابن عربي «أن أبقى طائرا يحرك جناحيه، وعلى الريح

التوجيه». شرحت فكرتي لزين العابدين، عليه أن يتحرك، ألا يركن إلى حالة جسدية عابرة، أو كآبة مؤقتة وإن طالت. المهم أن يتحرك الماء، وسيشق طريقه المقدورة. لو سكن فسد، لا يروي عطشا، أو يطهر جسدا. الركود موت، والركض والحركةُ طلبٌ للحياة بحسب سنن الحياة.

قال زين حزينا: أمس فتحت كراسة من كراريس جدي، قلت لعلي أساعدك. فقرأت عبارة نقلها عن ابن عربي، تأملتها وبكيت وعلمت أن ما كان مفتاحا لما سوف يكون، وأننا مجرد مساكين يواجهون ريح قدر عاتية. حتى جهادنا لتوجيه الشراع هو عبثٌ في رأي الأقدار.

داريت فزعي من سوداوية أفكاره. قلت: أيُّ عبارة..

قرأ:

أصلُ كلِّ ما سوى الله: الاضطرارُ والإجبارُ، حتى اختيارُ العبدِ.

قلتُ:

إذن دع الاختيار لريح الأيام، ولا عليك سوى اغتنام أيام سعدها.

بوابة قلب

وما «أنت» ذاتـي، لا ولا «أنا» ذاتكم فإن كنتَ لي عينا فلا تُبده الآنـا

رغم نظرة زين التي ما زالت متشائمة فحديثي عن الحركة أثّر فيه. لأول مرة منذ استضافتي له، نزل بنفسه، اشترى الجرائد وطبق فول وخبزا. أعد بنفسه الفطور. ثم جلسنا أراجع عليه آخر ما فككت من مخطوط سماع المعلم لروحٍ يتكلم:

قال الإمام ابن عربي: «قلتُ أنا السالك: خرجت من بلاد الأندلس، أريد بيت المقدس، وقد اتخذت الإسلام جَوَادًا، والمجاهدة مهادا، والتوكلَ زادا، وسرتُ على سواء الطريق، أبحث عن أهل الوجود والتحقيق، رجاء أن أتبرز في صدر ذلك الفريق. فلقيت بالجدول المعين وينبوع أرين، فتًى رُوحانيّ الذاتِ ربانيّ الصفات، يُومئُ إليّ بالالتفات. فقلت: ما وراءك يا عصام؟

ـ وجودٌ له انصرام.

ـ من أين وضح الراكب؟

ـ من عند رأس الحاجب.

ـ ما الذي دعاك إلى الخروج؟

ـ الذي دعاك إلى طلب الولوج.

ـ أنا طالب مفقود.

ـ وأنا داعٍ إلى الوجود.

ـ فأين تريد؟

ـ حيث لا أريد. لكني أُرسِلتُ إلى المشرقين، إلى مطلع القمرين، آمرًا من لقيتُ بخلع النعلين.

ـ هذه أرواح المعاني، وأنا ما أبصرت إلا الأواني، فعسى حقيقة القرآن والسبع المثاني.

ـ أنت غمامةٌ على شمسك، فاعْرِفْ حقيقةَ نفسِك، فإنه لا يفهم كلامي، إلّا من رقى مقامي، ولا يرقى سوائي، فكيف تريد أن تعرف حقيقة أسمائي؟ لكن يُعرجُ بك إلى سمائي.

أنا القرآن والسبع المثاني وروح الروح لا روح الأواني
فؤادي عند معلومي مقيم أشاهده وعندكمُ لساني

ـ فأخبرني أيها الصديق، أين تريدُ؟ أُرشدْك على الطريق، ومن أين أقبلت، وإلى أين أمّلت؟

ـ خرجت فارًّا من ذلول، أريد مدينة الرسول، في طلب المقام الأزهر، والكبريت الأحمر.

ـ أما سمعت قولي:

يا طالبا لطريق السر تقصده ارجع وراك ففيك السر أجمعه

بينك وبين مطلوبك أيها السر اللطيف، ثلاثة حجب من لطيف وكثيف. الواحد مكلل بالياقوت الأحمر، وهو الأول عند أهل التحقيق، والآخر مكلل بالياقوت الأصفر، وهو الثاني الذي اعتمد عليه أهل التفريق، والثالث مكلل بالياقوت الأكهب، وهو الذي اعتمد عليه أهل البرزخ في الطريق. فالأحمر للذات، والأكهب للصفات، والأصفر للأفعال، وهو حجاب الانفصال. ولكن قُل لي: من كان رفيقك في السفر؟

ـ الصحيح النظر، الطيب الخبر.

ـ هو الرفيق الأعلى، فهل أوقفك في الموقف الأجلى؟

ـ لست أعلم هذه الأصول، لكني ابتغيت الوصول، فجعلت همتي أمامي، والطور إمامي، فسمعت، لا يراني إلا من سمع كلامي، فخررت صعقا، وتدكدك جسمي فرقا، وبقيت طريحا بالوادي، وذهبت النعلان وبقي زادي، فلمّا لم أر كونا آنست عينا.

وبعد كلامي مع «عصام» أريد أن أقول لك يا معلم: إن الرحلات كنزٌ مخفيٌ عن القاعدين. النفوس تفوز بالانتقال، كما الماء لا يصلح له غير التنقل. عبرت البحرَ للمغرب، فأطلت المقام بـ«سبتة» وراجعتُ صحيح البخاري على سيدي عبد الله الحجري، وجالست ابن الصائغ وابن قزمان وأبا أيوب الفهري. وبدأتْ المسيرةُ، فاسترحنا بتونس، وحرصتُ على لقاء صالحيها. وأهديت سيدي ابن المهدوي رسالةً في تراجم أهل عصرنا من السائرين على الطريق، أسميتها رسالة القدس. ثم قلت: إن مقصدي بيت الله الحرام والقدس، لعلي أسعد فأُوفق للسير على حصًى شرُفَ بأثر قدم النبي المعصوم فوقه. ومضيت إلى المغرب، حيث تعلم، ومنها إلى تونس كما تتبعتَ سيرتي، وقابلت مُدعين للولاية، كما صادفني أولياء أنقياء أتقياء. حاربني أهلُ الظاهر من المعاني، واستفدت من الجميع. لأنني وضعت نُصب عيني هدفا واضحا، هو الوصول إلى ما لا يُدرَك، وهو يُدرِكُ كلّ شيء، سبحانه.

في تونس ابتدأت كتابي «إنشاء الدوائر والجداول» وفيه ذكرتُ كيف أن العوالمَ أربعةٌ، العالم الأعلى وهو عالم البقاء، ثم عالم الاستحالة وهو عالم الفناء، ثم عالم التعمير وهو عالم البقاء والفناء، ثم عالم النسب. وهذه العوالم في موطنين في العالم الأكبر حيث الحقيقة المحمدية وفلكها الحياة، وهو ما خرج عن الإنسان، وفي العالم الأصغر وهو الإنسان. فقلت لنفسي: أيها الإنسان، ارحل

حيث روحك تشير عليك، فمضيت قاصدا كعبة ربي وبيته العتيق. وذقتُ من صعوبة الطريق، مدركا أن ما صار لدي من علوم مكتسبة وإشارات موهوبة وحقائق لدنية، إنْ أنا لم أنثرها نثرا لطيفا، فهي بوابات متاعب وجبال أحقاد؛ فرمزت وأشرت واقتربت، وجئت إليهم من بعيد، وكَنّيْتُ وجازيتُ، وأظهرت وأضمرت، وأَبْنْتُ وأخفيتُ، وسُقت كما قلتُ لك عقيدةَ العامة التي أعتقدها في مقدمة ما فتح الله تعالى علي من فتوحات بمكة الشريفة. ولم تهدأ نفسي، فألغزت عقيدةَ الخاصة وخاصة الخاصة، وهي مكتوبة بشيفرة لن يفهمها إلا هؤلاء. أما من يكتفي من الكلام بما أمامه من ظاهر الكلام فلا يعنيني، وإن كنتُ لا ألومه ولا أُضمر تجاهه حنقا. نثرت عقيدة خاصة الخاصة، وأما التصريح بها، فما أفردْتُها على التعيين، لما فيها من الغموض، لكن جئت بها مبدَّدة في أبواب هذا الكتاب، مستوفاة مبيَّنة، لكنها كما ذكرنا متفرقة. فمن رَزَقَه الله الفهمَ فيها يعرف أمرها، ويميِّزها من غيرها؛ فإنها العلم الحق والقول الصدق، وليس وراءها مرمى، ويستوي فيها البصير والأعمى. تُلحِقُ الأباعد بالأداني، وتلحم الأسافل بالأعالي، وأما رعاع الناس فلا كلام لنا معهم. أيًّا كان قولك جميلا، فإن بالمرصاد حاسدين. قل كلمتك وسِر على هديها.

شغلتني «بوابة قلب» ابن عربي عن المعلم صاحب الرؤى والتدوين، الذي رشف من عسل حميدة، وقد اشترطت بدلالٍ الإقامة في بيتها بمصر عتيقة، وما أهملَ القديمةَ، متوزعا بحسب الحال بين البيتين. فكان لا بد بعد ذلك من أن يعود لما بدأه من سمره وخياله مع سيده ابن عربي في فتوحاته، وهو في الحقيقة لم يتركه كُليّةً، بل

دوّن في بعض الليالي صفحات. قال المهدي: «بعد الاستقرار، تتفتح الأوراق وتبتسم الأزهار».

تهيأ له أن يبدأ فقرة جديدة تنفع كمبتدإ كلام ومفتتح إلهام، بعد أن أرجأ تتبع رحلات ابن عربي المنثورة باقتضاب في فتوحاته، والمبتورة في كثير من محطاتها. رحلات لم يترك التاريخُ لنا الكثيرَ عنها. فعقلُ الرجل وإنتاجُه ألهى المؤرخين وناسخي تراجم الرجال عن رحلاته، مع أن رحلته، يعتقد المعلم المهدي، بوابات فهم لكلماته. فابن عربي في نشأته غير ابن عربي في خلواته وانعزالاته وتفاعلاته مع عصر كانت حروبه هي ظاهرته الأكثر وضوحا وقتامة. عصرٌ تأريخُه دمه. وروحُه مذابحُه. قال وهو يتفكر في الله تعالى: «كيف عرف ابن عربي ربّه؟»، ثم أنشأ يكتب:

- يا سيدي ومولاي، كيف أعلم أنه «هو»؟ كيف أدرك ما لا تدركه الأبصار؟ فأستقرَ، أم أن الأفضلَ السكوتُ، فأعود عن طريق وجدتني فيها مُسيّرا مُحيّرًا، لا سائرا مُخيّرًا؟

- *لو علمته لم يكن هو، ولو جهلك لم تكن أنت، فبعلمه أوجدك، وبعجزك عبدته، فهو هو لـ«هو» لا «لك»، وأنت أنت لـ«أنت» وله. فأنت مرتبط به، ما هو مرتبطٌ بك. الدائرة مطلقةٌ مرتبطةٌ بالنقطة، النقطة مطلقة ليست مرتبطة بالدائرة. نقطة الدائرة مرتبطة بالدائرة. كذلك الذاتُ مطلقةٌ ليست مرتبطةً بك. أُلوهية الذاتِ مرتبطةٌ بالمألوهِ كنقطةِ الدائرة.*

- داخلي يموج بالكلام، كلما أردتُ الحديثَ سَكَتُّ. أهِمُّ بسرد ما أرى على من أرى من البشر، فيضيق صدري وأخاف أن يكذِّبون؟

- آهٍ يا صديقي، لو اصطفاك العليم لعرفت كم هو رائعٌ السكوتُ،

وأليم. واللهِ، لو تحدثنا بكل ما يأتينا لما اكتفوا بتكفيرنا، بل سلقونا في الماء الساخن، وذوبوا أجسادنا في الرصاص المصهور. كمْ خُوطبتُ في سرى بأمورٍ لا يمكنني إذاعتها، ولا تلتبس عليّ بضاعتُها. اعلمْ أن من الناس من يكون هُدهديّ البصرِ، ومنهم من هو خُفاشيُّ النظر، فإن الأمرَ إضافيٌّ والحُكمَ في الأشياء نسبيٌّ. وأين حالُ قولِه ﷺ في رؤية ربه: «نورٌ، أنّي أراه». وبين قوله في رؤية ربه: «ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر». وليس المرئيُّ سواه، سبحانه. فأثبتَها لنا الرسولُ الموصولُ، ونفاها عنه لِمَا عَلِمَ منه. ولم يقل «نرى» بحرف النون، وفيه سر مصون، ومن ذلك إيثارُ السكوت، وملازمةُ البيوت. واعلمْ يا خليلي، أن السكوتَ حِليةُ الأبدال، وملازمةَ البيوت ضربٌ من الخلوات والاعتزال. ثم إن السكوتَ من المُحال، فلا بد من نُطقٍ على كل حال. وليس من شرط البيان حركةُ اللسان، فإن لسان الحال أفصح، وميزانَها في الإبانة عن نفس صاحبها أرجح. وملازمة البيوت عينُ النطق بلسان الحق.

قال بعضهم: «سألت أستاذي: من أحادثُ من الناس، وإلى منْ أسكن؟ فقال: عليك بمحادثة من لا تكتمه ما يعلمه الله منك، واجعل للناس ظاهرَك ولله باطنَك، وعاشرهم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ».. كما حَكى بعضُ أهل الولاية: «كنت جائزا في بعض سياحاتي في أرض الشام، إذ مررت بنهر، يقال له نهر الذهب، فرأيت في ظهر قرية من قرى ذلك النهر صومعةً فيها راهبٌ، فناديته: يا راهب، أجبني. فلم يُجبني فناديته الثانية، وفي الثالثة قلتُ: أجبني، يا رباني. فاطّلع، فرآني، فقال:

ـ ما حاجتك؟ وما الذي تريد؟

ـ عظة، أو وصية، أنتفع بها.

- تركتَ الدنيا؟
- نعم.
- إذن، كُلِ القُوتَ، والزم السكوتَ، وعلِّل النفسَ فإنك تموت، وذَكِّرْها الوقوفَ بين يدي الحي الذي لا يموت.
- زدني أيها الراهب.
- إذن، كُل مما كسَبته يمينُك، وعرقَ فيه جبينُك، فإن ضَعُفَ يقينُك؛ فسلْ ربّك، فإنه يُغنيك».

واسمع مني هذه القصة الصغيرة، فقد تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات، كأنما رميت عن قوس واحدة. قال كسرى: «أنا على رَدِّ ما لم أقُل، أقوى مني على رد ما قلتُ». وقال ملك الهند: «إذا تكلمتُ بكلمةٍ ملكتني، وإن كنت أملكها». وقال قيصر ملك الروم: «لا أندم على ما لم أقل، وقد ندمت على ما قلتُ». وقال ملك الصين: «عاقبةُ ما قد جرى به القولُ أشدُّ من الندم على ترك القول».

يا صديقي الحكمة لا جنس لها، هي لدى كل طائفة وفي كل مكان، والسعيد هو من يتنقل بين الأزهار كنحلة، فيأخذ ما ينفعه، ويمنح البشرية كلها ما تحتاج إليه.. ولذلك قلتُ كما سبقَ وأخبرتُك: أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبُه.

أغلق المعلم كراسته، ردد: فمرعًى لغزلان وديرٌ لصلبانِ. عاد بفنجال قهوة تركية مغلية، واستلم قلمه، وراح يتتبع ما اختلط فيه خاطره بالفتوحات المكية، فكتب بأريحية: أين الله؟

أعرفُ أن قصدك ليس نيلَ إجابةٍ سهلة، فالله في السماء سبحانه، كل يوم هو في شأن، لكن اعلمْ، أنه عند المنكسرة قلوبهم فثمّ وجهُ الله. وأعود فأقول لك: اجعل للناس ظاهرك، ولله تعالى باطنك.

مسّته طُمأنينة، فآوى المعلم لفراشه مضجعا يراجع كتابه الذي لم يكتمل بعد، فتوقف عند حديث ابن عربي له عن فضل السكوت، واطمأن إلى أن قلبَه كما وسِعَ هروبَه، فبإمكانه الاتساعُ لسِره والسعادةُ به. لكن تفكيرَه بالأسرار جذبَ إليه مزيدا مما لا يُقال ولا يُحكى ولا يُذاع منه حرف. إن تفكيرنا يقود إلينا ما نحلم به، شريطة أن نُخلص ونتجرد ولا نُشرك في حُلمنا شواغلَ أخرى.

نام فرأى سمكا مُشرعا على صفحة النهر. وفي الصباح ولّى وجهه لدولابه متبرما من توَطُّنِ الأيام على نفس الحال. فهو يعمل من الشروق وحتى قبيل الغروب طوال الأسبوع إلا يوم الجمعة. في بعض الليالي يبيت في الفواخير للاطمئنان على طَبْخِ ما صنعت يداه والتأكد من استواء الفخار في أفرانه. ليلة «الحَمِيّة» التي يُعرفها الفواخرية بعملية الحريق المتدرج بإدخال قطع خشبية قليلة في بيت النار أسفل الفرن، ثم زيادة جرعات الخشب أو مصاصة القصب الجافة تدريجيا، ثم يقوم المعلم بنفسه بعد ساعات من البداية باختبار الدخان الخفيف المتصاعد من فتحات الفرن العلوية «الشواريق»، حتى يتأكد من جفاف الدخان بانعدام بخار الماء المتصاعد من الطين، ثم يتم الطبخ بدفعات نار كثيفة مع «العكر» أو التدوير المستمر بسيخ حديد قد يزيد طوله على أمتار ثلاثة. وتستمر عملية الحريق أو الحميّة نهارًا وبِضع ليلة. وفي حالة فرن القلل الضخم تتعدى عملية الحريق والحميّة أسبوعا كاملا. شُغْلٌ هرب منه إبليس كما يحكون.

هل هرب الشيطان من صنعة الفخار لأنها تُذكره بساعة ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ ولم يسجد لأول مخلوق من الطين؟ أم أنه يهرب لأنها شغلة شاقة مُضنية؟ ولها حكاية، قد لا تستقيم بغيرها حكاية المعلم المهدي، وقد دونها هو بنفسه في بعض أوراقه المتناثرة، نقلا

عن شيوخ مهنة سبقوه بعشرات السنين مما ذُكر عن أبي السعود الجارحي. فلغير سبب يدركه، طلب من أصدقائه أن تلتئم حضرتهم القادمة بدولاب فخار تحول لمسجدٍ به مقامُ أبي السعود الجارحي على طريق قلعة الجبل شرقي مصر عتيقة.

هرب إبليس من صنعة الفخار، فلا عجب لو تعبٌ مسّ المعلمَ، وقد ركبته ديون بعد انهيار فرن قلله وهبوطه لزيادة نارٍ غفل مُوقِدُها. اغتمّ، فلجأ لتاجر سيئ طالبًا قرضا مقابل وعدٍ بسداده من إنتاج الفرن القادم. ساومه التاجر:

ـ أعطيك على شرط أن يكون كل شغلك لمدة عام لي وحدي.

ـ كيف؟

ـ كل ما تحرقه في فرنك آخذه، وأنا من يوزعه بين بقية التجار.

ـ هذا احتكار.

ـ أنا أسعى لأكون من يحدد أرباح الصانعين والتجار، ذلك يزيد ربحي، وأيضا هو مفيدٌ لك، فسوف أكشف عنك ما أنت فيه من كربة وديون.

ـ إنما الله كاشف الكرب ومفرج الهم. اعلمْ، أنه لا إله إلا هو.

ورفض المعلم متعجبا ومستنكرا كيف يختار العبد ما هو حقٌ للرب وحده، فالله تعالى موزع الأرزاق والأرباح. وقال: «أصبرُ يومين»، لكن الأزمة طالت والفرج تأخر، فلزم بيته بعد أن صار مللٌ لعاداته اليومية، كل يوم من الصباح وللغروب عمل، ويوم للحضرة، وفي الليل يتنقل بين بيتين، بإصرار على مداومة الجماع، حتى لذته الليلية التي يقضيها متنقلا بين مراقبة السماء والصلاة والغوص في كتاب الفتوحات، ثم التدوين، صارت عادة.

العادة، حتى لو كانت في الطاعة والعبادة، لا تُشبع ظمأ روح

تبحث عن متعة مختلفة. الحقيقة أنه أحس في ساعات الضيق بأن حالته الروحية قد تكون وهمًا. هو نفسه وهم، هارب لا يحمل اسمه الحقيقي، زوجٌ لاثنتين لا تعرفان عنه الكثير، يجري وراء خيال في كتاب ويطارده في منامات. وفي ساعات تشاؤم، يفكر أنه جاء للدنيا حيث المحروسة مخلفا تاريخه وراءه، ومنتزعا جذوره الأصيلة في أسيوط، وأنه سوف يُدفن غريبا في أرض غريبة، لا ولد ولا وارث، يُورثُ كلالةً ومجهول. تماما كما قطعت المحنة جذره الصلب العتيق في صعيد الأرض الطيب. اشتكي لشيخه وصاحبه حسن الأعرج، فأوصاه بالراحة، ثم اقترح عليه السفر للصعيد:

ـ يا معلم من يوم عرفناك، لم نسألك لماذا لا تزور الصعيد كما يفعل بلدياتك؟

ـ رحلوا الأحباب، وما بقي لي في الصعيد أحد يا شيخي.

ـ ما أريد أن أشق عليك، ولكنك تشق على نفسك، فإن لبدنك عليك حقا.

ـ ولروحي عليّ ألف حق.

ـ الروح ملك خالقها، يتصرف فيها كيف شاء، ما علينا غير غذائها، وغذاؤها ذكر وتسبيح، وما عرفتك بغير ذلك.

ـ لا أملك الجرأة لأقول: إن الغذاء صار بلا طعم، أردده كما أمضغ لقيمات لا يُقمن صُلبي.

ـ ارفق بنفسك، فمنذ عرفتك زارتني البركات.

ـ أفكر، لو اعتزلت الدنيا قليلا، أو طويلا.

ـ أنت نورٌ بيننا، كم اهتديت بك في الطريق، من يوم عرفتك نسيتُ أني كفيف.

ـ لولا الملامة، لصرخت: إني أتمنى الموت.

ـ أعوذ بالله.
ـ لا جديد في الحياة، ورائي ما لا أنساه، وقُدّامي ما أجهله، وبين يدي لا صوت ولد، ولا بكاء صبية.
ـ نحن منهيون عن تمني الموت.
ـ حتى لو كانت الحياة مماتا؟
ـ إن هول المطلع شديد.
ـ أعوذ بالله.
ـ علمت أنك مديون، لي بيتٌ، هو لك، خذ حُجّتَه وبِعْه.
ـ بارك الله لك في بيتك.
ـ عليك بالصلاة على النبي.
ـ خِبتُ وخسرتُ، إن لم أصلِّ عليه في اليوم والليلة ألف صلاة وصلاة.
ـ استعن بصيغ جديدة. أحكي لك قصة: «لزمت تاجرًا ديونٌ متفرقة لأشخاص مختلفين، هذا له مائة، وآخر له مائتان، وثالث ورابع، فكان جملة ما عليه ثلاثة آلاف دينار. فأشارت عليه امرأته، وكانت صالحة، أن يلجأ لتاجر يعرفه في بلدة قريبة، ويقترض منه جملة ديونه، فيسدد ما عليه للناس، ثم يصير همُّه همّا واحدا. استملح رأيها، وزار صديقه في البدة الأخرى، واقترض منه ثلاثة آلاف دينار بصكٍّ لأجل، فسدد ما عليه للآخرين. ثم حان الأجل، فبعث إليه الدائن الوحيد، فاعتذر الفقير طالبًا أجلا ثانيا، ثم ثالثا ورابعا. ولما تعسر ذهب للدائن طالبا أجلا جديدا، فرفض الأخير، وأصر على اصطحابه للقاضي، وقدّم له الصك، فسأله القاضي:
ـ لماذا لم تدفع؟

ـ مُعسرٌ يا سيدي، وما عندي شيء.
ـ السداد فورا، أو الحبس حالًا.
ـ الله المستعان، ما عندي شيء.
ـ إذن، تُسجن عاما، خذوه.
ـ يا سيدي، أنا غريب عن البلدة، فهل لي أن أذهب فأخبر امرأتي، وأعود في الغد.
ـ ومن يضمنك؟

ثم نظر القاضي في الحاضرين: هل يضمنه أحدكم؟ فلم يُجب أحد. وهنا قال المدين المحكوم عليه: رسول الله يضمنني.

نظر القاضي، وقد كظم استنكاره: وكيف ذلك؟

ـ أُشهدك، وأُشهد الحاضرين، أني إنْ لم أعد في الغد، فأنا خارج من ملة رسول الله، ومطرود من زمرة من يشربون من يده شربة هنية.

ضجت القاعة بهمهات تراوحت بين غضب واستغراب واستهزاء، فأشار القاضي بالسكوت، وفكّر مليًّا، ثم قال: وأنا قبلت ضمانة رسول الله ﷺ. اذهب وأنتظرك في الغد، فلا تخيب فيك ظني، ولا تستهن بما ألزمت به نفسك.

ذهب المحكوم عليه لبلده، حكى لامرأته ما جرى. بكت، ثم لملمت وجعها وقالت: طالما قبلوا ضمانة رسول الله ﷺ، فلنقضي ليلتنا طولها في الصلاة عليه.

اغتسلا واستمرا في الصلاة حتى قبل الفجر، ونام الرجل فرأى سيدي رسول الله في المنام، يقول له: «في الصباح، اذهب لفلان أمير بلد القاضي، وقل له: رسول الله يأمرك أن تعطيني من فضل الله ثلاثة آلاف دينار، وإن سألك عن علامة، فقل له: إنك تصلي في اليوم

والليلة عليّ ألف صلاة، إلا ليلتك السابقة، أنقصتها ثلاثين، وبشراك، فقد قُبلت وحُسبت ألفا، والله يضاعف لمن يشاء».

في الصباح ذهب الرجل لبيت أمير البلدة المجاورة، وطلب مقابلته، وأصر حتى التقاه، وقال له: رسول الله يأمرك أن تعطيني من فضل الله ثلاثة آلاف دينار، وأخبره بالعلامة. فبكى الأمير، وأعطاه ما طلب، وقال له: هذه لسداد دينك، ثم أعطاه مثلها، وقال: وتلك لتبدأ تجارتك من جديد.

فرح الرجل، ومضى مسرعا لدار القضاء، فوجد القاضي مستبشرا، رغم ما يبدو عليه من أثر سهر وعلامات أرق. وما إن دخل عليه، حتى قام القاضي وقال: أهلا بالعبد المبروك، إن من بركتك أني رأيت رسول الله ﷺ في منامي، وأمرني بالسداد عنك. ثم أخرج القاضي كيسا وقدمه لصاحب الدين.

فقال التاجر الدائن: وأنا لا أقبل منه شيئا، اشهدوا يا كل الحاضرين، أني غير دائن لهذا الرجل. فبكى كل الحاضرين، وعاد التاجر حُرًّا، غنيّا، فانفرج هم، كان يظنه لا ينفرج».

انتهى الشيخ حسن الأعرج من حكايته، وهو يُحسُّ بدموع منسابة عطرة على خد المعلم، الذي صدح بالصلاة على النبي. ثم قال الأعرج: ربما ينقصك نوم عميق.

- وكيف يحنو منامٌ بهارب؟

- هارب؟

- يا شيخي وسيدي، أنت لا تعرف عني شيئا، سأحكي لك.

- بل أعرف عنك ما لا تعرفه عن نفسك، ويكفيني ما عندي، لا تحكِ شيئا، امض مبروكا معافًا طيبا، والصباح رباح.

نام ببيت عزيزة، وفي صدره يشعر بأن الضيق قاب قوسين أو أدنى

من الرحيل، وأن الفرج قريب، متعجبا من حكاية التاجر المديون وبركة الصلاة على النبي، ومغتاظا من تجرؤ التاجر الذي ساومه وأراد الاحتكار.

في الليل استلم كراسته فكتب نقلا من الفتوحات بتصرف: «ما أجمل الفرج بعد الشدة، لولا الشدائد ما تذوقنا حلاوة زوالها، ولولا الكربات ما تجرعنا عسل كشفها. ما أنت إلا من خَلْقٍ تكفل الخالق بأرزاقهم، فذلل الأرض ذلولا للناس، والعبد هو الذليل، والذلة لا تقتضي العلو، فمن جاوز قَدْره هَلَك. ويُقال: ما هلك امرؤٌ عرَفَ قَدْرَه. واعتمادك الرزق على خالقك عين العبودية، وليس للعبد في عبوديته نهاية يصل إليها، ثم يرجع ربا، كما أنه ليس للرب حدٌّ ينتهي إليه، ثم يعود عبدًا. فالرب ربٌّ إلى غير نهاية، والعبد عبد إلى غير نهاية. فلذا قيل: لا يعرف لذة الماء إلا الظمآن، كما لا يعرف لذة الاتصاف بالعبودية إلا من ذاق الآلام عند اتصافه بالربوبية واحتياج الخلق إليه، مثل نبي الله سليمان حين طلب أن يجعل اللهُ أرزاقَ العبادِ على يديه حِسّا. فآتاه الله ذلك، وجاءت إليه أقوات الخلق فتجمعت بين يديه في ذلك الوقت، فخرجت دابةٌ من دواب البحر، فطلبت قُوتَها. فقال لها: خذي من هذا قَدْرَ قُوتك في كل يوم ما يكفيكِ طوال العام، فأكلته في يوم واحد حتى أتت على آخره، ثم جاءت سليمان وقالت: نفد قوتي فزدني، فما وفيت برزقي، فإن الله يعطيني كل يوم مثل هذا عشر مرات، وغيري من الدواب أعظمُ مني وأكثر رزقا. فتاب سليمان إلى ربه، وعلم أنه ليس في وسع المخلوق ما ينبغي للخالق تعالى. فإنه طلب من الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فاستقال من سؤاله حين رأى اجتماع الدواب عليه تطلب أرزاقها من جميع الجهات، فضاق لذلك ذرعا. فلما قبل الله سؤاله وأقاله، وجد من اللذة لذلك ما لا يقدر قدره».

في ليلته كتب المعلم: «مستني شدة، فشكوت، ولمّا اقتربتُ من مرمى شدة أخرى، عرفت سبب المرمى الجديد، إنها الشكوى. أيها المشتكي، من تشتكي لمن أيها الجاهل؟». في الصباح، أقسمت عليه عزيزة بنت الأعرج أن يبيع خلخالها وأسورتها، فهو صاحب الفضل. بعد طول إلحاح مضى بذهبها، وراح دولابه منتظرا دائنيه، فلم يأت أحدٌ حتى انتصف النهار. وقبيل المساء دخل عليه نفس الراهب الذي طلب منه جرسا للكنيسة، فنقده عربونا كبيرا الثلاثة آلاف قصرية زرع بيضاء، مقاسات مختلفة. مبلغ العربون زاد فوق ما عليه من ديون، وبقي منه ما يكفي لشراء طين وخشب حريق ومصاصة قصب، وأجور متأخرة. وعاد في المساء لبيت حميدة بما حمله في الصباح من ذهب عزيزة. فركبها مستعينا باللذة على ما ركبه من أفكار. وفي صباحها المنعش فتشت حميدة، فوجدت مصاغ جارتها بجلباب بعلها. الحق أنها لم تميزه، فما رأته على عزيزة. فرحت حميدة وحسبته لها، فكشفت عن ساقيها، وأحكمت الخلخال في اليمنى، وفي يدها اليسرى تحلّت بالإسورة. ثم لمّا همّ بالشرح، قاطعته وحلفت ألا تخلع شيئا، وتدللت وهي تغافله فخلعت ثيابها، والتفت وراءه تدعك رقبته، وتمس بشفتيها المنتفختين، فيلتهب، وتفور داخله حياة. راقه تلؤلؤ الخلخال على ساقها الأبيض كحلقة نار حول سطل حليب، لا يهدأ ولا هو يفور. على مهَلٍ فار حليبه.

ما إن اغتسل، حتى حلف على الجديدة بالطلاق، إن رأت القديمةُ ما عليها من ذهب. ثم ذهب يفكر كيف يخرج من الورطة؟ وقد نقله انتعاش اللذة للتفكير في سحر الأنثى، فنقل لمخطوطه بقيةً من كلام ابن عربي:

«لما تكلمت عن المرأة والرجل، الأنثى والذكر، المُقبِل والقابل،

ما قصدت غير الوصول لما وراء حجابات العقل الظاهرة. إن الأنثى حاضرة في أبعاد الوجود، كل شيء في الوجود له ذات «مذكر» بوجوده، وله علة «مؤنث» من وجوده. وعن الأنثى كان الوجود، كان آدم، ثم منه جاءت حواء، وأيضا كانت مريم الأنثى، وداخلها دبت الحياة في المسيح الذكر. ولقد خلق الله الرجل إنسانا، ثم اشتق له منه شخصا على صورته سماه امرأة، فظهرت بصورته فحنَّ إليها حنين الشيء إلى نفسه، وحنت إليه حنين الشيء إلى وطنه. فحُبِّبتْ إليه النساء. ولما أحب الرجل المرأة طلب الوصلة، أي غاية الوصلة التي تكون في المحبة، فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح، ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها، ولذلك أُمِرَ بالاغتسال منه، فعمت الطهارة كما عم الفناء فيها عند حصول الشهوة. فإن الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره، فطهره بالغسل ليرجع بالنظر إليه فيمن فني فيه».

زاحم رأسَه خيالٌ في الملكوت مع بقايا انتعاش من لذة نالها. وفيما تبقى من ليل اختلطت أفكار عن مجمل ما قرأ في الفتوحات وبعض كتيبات قليلة منسوبة لشيخه. انهمارات الخواطر شغلته عن تدوينها، خاطب نفسه، وقد أسلم جنبه لمضجعه منتشيا. لاحت له «فكرة الاثنين»، كل شيء في الكون مُثنى، ليل ونهار، صبح ومساء، بكرة وعشية، سماء وأرض، ذكر وأنثى، ظاهر وباطن، فناء وبقاء، نور وظلام، جنة ونار، هو وحميدة.

هل كذا يتجلى الوجود كما أراده الموجود في صور شتّى تستمر في تدفقها وتنساب في انهمارها، ولا توقف، ولا سدود ولا ضفاف ولا حدود، فتنتفخ غيطان الحياة، وتدور الدوائر في تناغم دائم وتفاعل.

حتى الملل والنحل وما اختلف فيه الناس من أديان ومعتقدات، إنما أصلها واحد، صراع بين نور وظلام. الله واحد سبحانه، كذلك الدين واحد، وإنما الانشقاق بشنق الناس أنفسهم على حبال الاختلافات والأهواء. ثم نام فرأى: «أن نخلات ثلاثا طالت بفناء بيت حميدة، اثنتان أصلهما مشترك، وثالثة منفردة دونهما في الطويل وعليهما تميل». وفي الصباح تعجب لما مر عليه صاحب مشتل يطلب قصاري زرع، ويعرض عليه إما السداد بالأجل على مهل، وإما تعويضه بزرع وشتلات نخل طيبة. قال: «بلحها زغلول يا معلم». بعد العصر حفر بيده في فناء بيت حميدة مقابل الحجرة المبروكة، وشكّ الشتلات الثلاث. قال لحميدة: «هُنّ عمّاتي». وفي ليلته نال ما نال من بنت الروم، فاغتسل، وأنشأ كاتبا أو ناقلا من الفتوحات:

يـا أخـت بل يا عمتي المعقولـة ... أنت الأميمة عندنا المجهولـة
يـا عمتي قـل كيف أظهر سـره ... فيك الأخـيّ محققًا تنزيلـــه
حتى بـدا من مثل ذاتـك عالـم ... قد يرتضي رب الورى توكيلـه

اعلم، أن الله تعالى لما خلق آدم الذي هو أول جسم إنساني تكون، وجعله أصلا لوجود الأجسام الإنسانية، وفضلت من خميرة طينته فضلةً، خلق منها النخلة. فهي أختٌ لآدم، وهي لنا عمة. وسماها الشرع «عمة» وشبهها بالمؤمن، ولها أسرار عجيبة دون سائر النبات. وفضل من الطينة بعد خلق النخلة قدرُ السِمسمة في الخفاء، فمد الله في تلك الفضلة أرضا واسعة الفضاء، إذا جعل العرش وما حواه والكرسي والسموات والأرضون وما تحت الثرى والجنات كلها والنار في هذه الأرض، كان الجميع فيها كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وفيها من العجائب والغرائب ما لا يُقَدّرُ قَدْرُه ويبهر العقولَ أمرُه، وفي كل نفس خلق الله فيها عوالم يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ والنَّهارَ لا

يَفْتُرُونَ. وفي هذه الأرض ظهرت عظمة الله، وعظمت عند المشاهد لها قدرته، وكثير من المُحالات العقلية التي قام الدليل الصحيح العقلي على إحالتها هي موجودة في هذه الأرض، وهي مسرح عيون العارفين العلماء بالله، وفيها يجولون. وخلقَ اللهُ من جملة عوالمها عالما على صورنا، إذا أبصرهم العارفُ يشاهدُ نفسَه فيها، وقد أشار إلى مثل ذلك عبد الله بن عباس فقال: «هذه الكعبة، وإنها بيت واحد من أربعة عشر بيتا، وإن في كل أرض من السبع الأرضين خلقا مثلنا، حتى إن فيهم ابن عباس مثلي». وصدقت هذه الرواية عند أهل الكشف. فلنرجع إلى ذكر هذه الأرض واتساعها وكثرة عالمها المخلوقين فيها، ومنها، ويقع للعارفين فيها تجليات إلهية.

أخبر بعض العارفين بأمر أعرفه شهودا، قال: «دخلت فيها يوما مجلسا يسمى مجلس الرحمة، لم أر مجلسا قط أعجب منه. فبينا أنا فيه إذ ظهر لي تجلٍّ إلهيٌّ لم يأخذني عني، بل أبقاني معي» وهذا من خاصية هذه الأرض، فإن التجليات الواردة على العارفين في هذه الدار في هذه الهياكل، تأخذهم عنهم وتُفنيهم عن شهودهم من الأنبياء والأولياء وكل من وقع له ذلك، وكذلك عالم السموات العلا والكرسي الأزهى وعالم العرش المحيط الأعلى، إذا وقع لهم تجل إلهي أخذهم عنهم وصعقوا. وهذه الأرض إذا حصل فيها صاحب الكشف العارف، ووقع له تجلٍّ لم يفنه عن شهوده، ولا اختطفه عن وجوده، وجمع له بين الرؤية والكلام. قال: «واتفق لي في هذا المجلس أمور وأسرار لا يسعني ذكرها لغموض معانيها، وعدم وصول الإدراكات قبل أن يشهد مثل هذه المُشاهد لها، وفيها من البساتين والجنات والحيوان والمعادن ما لا يعلم قدر ذلك إلا الله تعالى، وكل ما فيها من هذا كله حي ناطق كحياة كل حي ناطق،

ما هو مثل ما هي الأشياء في الدنيا. وهي باقية لا تفنى ولا تتبدل ولا يموت عالمها».

وليست تقبل هذه الأرض شيئا من الأجسام الطبيعية الطينية البشرية سوى عالمها أو عالم الأرواح منا بالخاصية، وإذا دخلها العارفون إنما يدخلونها بأرواحهم لا بأجسامهم، فيتركون هياكلهم في هذه الأرض الدنيا، ويتجردون. وفي تلك الأرض صور عجيبة النشء بديعة الخلق قائمون على أفواه السكك المشرفة على هذا العالم الذي نحن فيه من الأرض والسماء والجنة والنار. فإذا أراد واحد منا الدخول لتلك الأرض من العارفين، من أي نوع كان من إنس أو جن أو ملك أو أهل الجنة، بشرط المعرفة، وتجرد عن هيكله؛ وجد تلك الصور على أفواه السكك قائمين موكلين بها، قد نصبهم الله سبحانه لذلك الشغل، فيبادر واحد منهم إلى هذا الداخل، فيخلع عليه حُلّة على قدر مقامه، ويأخذ بيده، ويجول به في تلك الأرض، ويتبوأ منها حيث يشاء، ويُعتبر في مصنوعات الله، ولا يمر بحجر ولا شجر ولا مدر ولا شيء ويريد أن يكلمه إلا كلمه، كما يكلم الرجل صاحبه. ولهم لغات مختلفة. وتُعطي هذه الأرضُ بالخاصية لكل من دخلها الفهمَ بجميع ما فيها من الألسنة. فإذا قضى منها وطَرَه وأراد الرجوع إلى موضعه، مشى معه رفيقه إلى أن يوصله إلى الموضع الذي دخل منه، يوادعه ويخلع عنه تلك الحلة التي كساه، وينصرف عنه، وقد حصّل علوما جمة ودلائل، وزاد في علمه بالله ما لم يكن عنده مشاهدة. وما رأيت الفهم ينفد أسرع مما ينفد إذا حصل في هذه الأرض. وقد ظهر عندنا في هذه الدار وهذه النشأة ما يعضد هذا القول، فمن ذلك ما شاهدناه ولا أذكره.

قال لي بعض العارفين: «لما دخلت هذه الأرضَ، رأيت فيها

أرضا كلها مسكٌ، عطرٌ لو شمه أحدٌ منا في هذه الدنيا لهلك لقوة رائحته، تمتد ما شاء الله أن تمتد. ودخلت في هذه الأرض أرضا من الذهب الأحمر اللين، فيها أشجار كلها ذهب، وثمرها ذهب، فيأخذ التفاحة أو غيرها من الثمر فيأكلها فيجد من لذة طعمها وحسن رائحتها ونعمتها ما لا يصفها واصف.. الجسم والشكل والصورة ذهبٌ، والصورة والشكل كصورة الثمرة وشكلها عندنا.. وماؤهم ألطف من الهواء في الحركة والسيلان، وهو من الصفاء بحيث أن لا يخفى عنك من دوابه ولا من الأرض التي يجري البحر عليها شيء. فإذا أردت أن تشرب منه وجدت له من اللذة ما لا تجده لمشروب أصلا. وخلقها ينبتون فيها كسائر النباتات من غير تناسل، بل يتكونون من أرضها تكون الحشرات عندنا، ولا ينعقد من مائهم في نكاحهم ولد، وإن نكاحهم إنما هو لمجرد الشهوة والنعيم. وأما مراكبهم فتعظم وتصغر بحسب ما يريده الراكب، وإذا سافروا من بلد إلى بلد فإنهم يسافرون برا وبحرا. وسرعة مشيهم في البر والبحر أسرع من إدراك البصر للمبصر.. وتحل بتلك الأرض زلازل لو حلت بنا لانقلبت الأرض، وهلك ما كان عليها. وكنت يوما مع جماعة منهم، وجاءت زلزلة شديدة، بحيث إني رأيت الأبنية تتحرك، وما إن فرغت الزلزلة وسكنت الأرض، أخذت الجماعة بيدي وعزتني في ابنة لي اسمها فاطمة. فقلت للجماعة: إني تركتها في عافية. قالوا: صدقت. ولكن هذه الأرض ما تزلزل بنا وعندنا أحد إلا مات ذلك الشخص أو مات له أحد، وإن هذه الزلزلة لموت ابنتك، فانظر في أمرها. فقعدت معهم ما شاء الله وصاحبي ينتظرني. فلما أردت فراقهم مشوا معي إلى فم السكة وأخذوا خلعتهم، وجئت إلى بيتي، فلقيت صاحبي: فقال لي: إن فاطمة تنازع، فدخلت عليها، فقضت. وكنت بمكة مجاورا، فجهزناها، ودفناها بالمُعلّى».

انتهى المعلم من نقله وتدوينه، وديك الغسق ينادي بالنور، وهو، دون قصد، يضع شماله على صدره، تنبّه إلى أن دقات قلبه لها صوت يُحسه، وأن ضغطا يُطبق على قلبه، وتنميلة تسرح في عضُده وذراعه اليسرى، ودُوارا يلهو برأسه. أسرع إلى فراشه، وهو منشغلٌ غير مصدق لما نقله عن ابن عربي. قال: «أيُّ أرضٍ تلك؟ أرض السمسمة خيالٌ أم حقيقة؟». شعر بأن الأرض تهتز، فاضطرب قلقا وفزعا. ومن دون سبب هتف برأسه نذيرٌ مخيف بأن زلزالا قد يقع، ولا يدري كيف قفز برأسه إحساسٌ بأن حميدة قد تموت قريبا. ظل يستغفر ربه ويستعيذ من الشيطان والشؤم. ولام نفسه التي تتكلم فيأتيها كلامها واقعا.. استعاذ بالله حتى نام.

لو صدّقتَ أحلامَك أتتك..

المهدي أرهقته حكاية أرض السمسمة، هل مثل ذلك موجود أو معقول أو يمكن تصديقه؟ أنا نفسي وأنا مجرد محقق أو منسق لمخطوط المهدي، حصل لي صداع وإرهاق وحيرة من الكلام العجيب الغريب، فقلت: أرتاح قليلا. وقد خرجت مع زين وجلسنا لأول مرة منذ حادث انتحاره على مقهانا في مصر القديمة. هل ارتحتُ؟ الحقيقة أني تعبت أكثر، فبمجرد جلوسنا أخرج زين من جيبه ورقات، قال: «اعتبرها ورقة واحدة، فقد كتبت مثلها في العباسية عام ١٩٧٩».. وجدتها بالفعل أعجب من قصة النخلة أو أرض السمسمة. فكيف في ورقة واحدة يستطيع زين العابدين أن يُلخص سنتين، هما الأهم والأخطر والأكثر وكسا في حياته بحسب ما يرى. ورقة واحدة على وِشّها وظهرها. صفحتان تختزلان حبسا بلا جريرة، ونعتا بالجنون دون إمعان العقل في مواهب عقل أو مآسيه.

فقد حكي أو حدث أنْ ضَجِرَ الطبيبُ من الجلسة التي قد يُؤشرُ بعدها لزين بالخروج، أو يتعكر مزاجه فيبقى بالعباسية الشقية إلى يوم يرحمون. ضَجَرُ الحكيمِ وخوف المريض منحاه شجاعة ليطلب ورقا يشرح عليه حالته، وبعدها يقرر الطبيب ما يشاء. وافق الطبيب ومنحه نصف ساعة، وورقة فلوسكاب، وقلما على خوف وتردد. فالأقلام ممنوعة خوفا من إيذاء النفس والآخرين بها. طبعا ليس المقصود بالإيذاء الكتابة، ولكن سن القلم قد يتحول لسلاح مؤذٍ جارح. وجارحة هي سنتان من رؤى وخيالات يقظة وضلالات حسب التشخيص الطبي، واعتقال ثم إيداع بمستشفى الأمراض العقلية.

فكر زين من أين يبدأ؟ هل يبدأ من نفق الملك الصالح؟ قال: «لن أبدأ بكذب، فليس ثمة ملك صالح. إذن أبدأ من توقيفي بالغلط عند مروري جوار غاضبين لاهين لاعبين». لكنه عاد قبل أن يخط كلمة واحدة معتبرا أن بداية كتلك ستعيد كل كلامه أمام جهات تحقيق غبية انتهت إلى تحويله لما هو عليه وفيه، مع أنه علم وقتها من شهور أن القضاء قال كلمته بأنه غير مدان، يعني بريئا طاهرا. فكر لو يبدأ من البداية، بما يراه فيتحقق، أو يُهيأ له فيفهم ويرى ما لا يُصدّق. عاد وقال: «بداية كتلك ستثبت على الفور قناعات أول طبيب كتب تقريرا بحالتي، وأني بحاجة للإيداع هنا. ولو كتبت عن صاحب وحيد اعتاد زيارتي بين الحين والآخر، فلا يراه الحراس ولا يسمعه غيري. فسأقرر عند ذلك بنفسي أن نفسي مجنونة». ومجنونة تلك الفكرة العبقرية التي اهتدي إليها، فجاءت الورقتان كالتالي:

«سيدي المحترم المشفق على مرضاه. لن أقول لك إن أرواحا طاهرة تسكن شجرات مُسِنّة تخشى اقتلاعها دون ذنب، ولن أحدثك يا سيدي الكريم عن ضيق لازمني أياما بالمستشفى، ثم انفسح الفضاء رحيبا وأنا أنظر للسماء مستظلا بشجرة بلخ

عملاقة، قالت لي: إنها هنا منذ مائتي عام، وهي تكبر المستشفى بقرن كامل. لن أقول لك ذلك، لأني طبعا سأكون مجنونا لو كتبت لك عن أرواح وشجرات تتكلم. لكن يا سيدي الفاضل، اعتبر كل ما سوف أقول من باب تخيلات رجل يهوى الكتابة في الـ«ما وراء الطبيعة»، وأن كل ما سوف أكتبه ما هو إلا إبداع مجنون في زمن يدعي العقل، أو شطحات مدعٍ نبوة في زمن محتوم على أنبيائه القتل. فكرة المجنون السيئة هي ما أعنيه سيدي، فصورته منذ الصبا نمطية كما الأفلام، شخص مرعب مؤذٍ، الابتعاد عنه سلامة والاقتراب منه تهور. مع أن إسماعيل ياسين في أحد تلك الأفلام تلقى حكمة غالية من أن أسوار المستشفى لحماية العقلاء داخلها من مجانين مُطلقي السراح في المدينة وأشرار. بعض نظرياتكم تقول بأننا، الناس جميعا، مرضى نفسيون بدرجات. فهل تسمح لمن ذاق المرض النفسي والحبس بأن يُضيف: وأننا كلنا مسجونون بدرجات، هناك سجين بالمعنى التقليدي للكلمة، ومنا من هو سجين رغبة لا تفارقه أو فكرة لا يستطيع منها هروبا، أو حسرة على فائت يحاصره وفيه يقاسي الندم. كلنا مسجون ومجنون أيضًا.

سيدي، في دخولي غمرتني سحابات من الكآبة. سلمني شرطيٌ لتُمرجي، ومشى بي الاثنان في باحة واسعة كبحر، وضيقة كنفس مرهونة بتقدير الآخرين. باحة أو ممر فسيح طافح بالقمامة وببشر لم تلمس الماء جلودهم منذ أمد. تحنو عليها أشجار باسقة، وقاسية تُطل كعيون مخبرين أمنيين، مهيبة مرتفعة لتذكرنا بأن داخل السجن أو المستشفى سجونا في قلبها سجون. وبعد أيام قليلة أُتيح لي الخروج مقيدا، وبعد شهور قليلة صرت مريضا عاديا ومتهما سابقا حصل على البراءة، لكن لا يزال سجينا. وفي يوم أبيض شتوي صافٍ رغم غمامات رمادية، اختارتني شجرة

بلخ فحكت لي أسرارا، فسُررت لأنها اختارتني، واكتأبت لأني مجنون يستمع لشجرة عجوز. لكن يا سيدي، يمكن أن تفسر هذا بأني وحيد يفتش عن أي شيء يتكلم معه وإليه. ومما حكت لي صديقتي الشجرة، أن أرواح أولياء ممن ترونهم مجاذيب سكنت جاراتها من شجرات الكافور والصفصاف والنبق، وأن البشر أشر من الأبالسة، وأن مصيرها أن تكون جذوة نار، ومصير أغلب البشر أن يكونوا حطب جهنم. وأما إبليس نفسه، فهو من النار، فكيف يُعذب بالنار؟ ثم سكتت الشجرة أياما مذعورة من قدوم الحريف. آهٍ، هل تصدق أني اختصرت في السطور السابقة قرابة عام من حياتي؟ دعك مني، ولنبقَ مع الشجرة التي بدت، كما ذكرت، مذعورة كأن الخريف يحمل لها رائحة حفلة تأديب. وبالمصادفة كنت في تلك الأيام على موعد مع حفلة صدمات كهربية، وما إن التقينا، حتى سألتني الشجرةُ:

ـ من قال لك إن إبليس في النار؟

ـ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ـ صدق الله العظيم؛ يا عاقل، إن كلام الله يؤكد لنا حقيقة إبليس ﴿جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ جهنم من النار، وإبليس من النار، يعني: سأملأ جهنم من النار، وأما حطبها فهم أولئك الذين اتبعوا مخلوق النار.

وصفّرت هبّاتُ ريح، فلم تهتز الشجرة العملاقة، لكنّ غصنا يترنح بين اليبس والرطوبة أشار بوضوح باتجاه تمرجي غليظ الخلق والكفين. فكأني نظرت لرجلٍ الجحيمُ أولى به. مع أني أتعارك ونفسي لنسيان شره الذي كان قاب قوسين أو أدنى. يا سيدي، الكل هنا طيبون. لكن صنوفا من التمرجية ساديون يستلذون بضربنا وإيذائنا. سأقول لك سرا: في المرة التي كهربتموني فيها بسبب ضربي أحدَهم، يومها لم تسألوا عن سبب اعتدائي عليه، أو لعلكم عرفتم فكتمتم. هل فهمتني؟ نعم، هو ما

ذهب إليه عقلك، وأنا آسف على تأكيده. لقد حاول أن يعتدي عليّ جنسيا، يغتصبني. ولولا هياجي الشديد، وبعض قوة في جسدي، لفعل فعلة لا أحب، ولعلك لا تحب أن أذكرها. سيدي، ارحموا المساكين داخل الأسوار من وحوش صار الأمر إليهم. أنا درست الفلسفة وأحبها يا سيدي كحبك للطب النفسي، وكلها نتاج نفوس وعقول في رحلات نفوس وعقول. وكم تمنيت لو أرحتني وصدقتني من أن عزلتي بالحبس في طرة أو بالعباسية بريئة مما تعتبره هلاوسي وضلالاتي وانفصاماتي، وأنها، أي العزلة هي التفسير الوحيد لما أقول لكم إني أراه وأسمعه وألتقيه. ألسنا متفقين يا سيدي، أن المريض النفسي هو شخص عادي لم يقدر على تحمل الضغوط النفسية التي نتعرض لها جميعا.

سأقول لك عن بعض ما آلمني، وهو كثير يا سيدي: ألسنا متفقين، بل الشرائع كلها والقوانين أجمعها تُقر بأن المجنون مرفوع عنه القلم؛ فلا يُسأل عن دينه. فما بال العاملين بالمستشفى عاشوا مُصِرِّين على مضايقة سيدة طيبة، لأن أوراقها تقول بأنها يهودية؟ وأكيد أنك تعرفها، بل كل نزلاء العباسية يعرفونها.. السيدة الطيبة «عزيزة زاخر» من أقدم النزلاء، صاحبة بيت، إن صح التعبير، مرت أكثر من خمس وثلاثين سنة عليها بالمكان، ولم يشفع لها مرضها النفسي لتُعامَلَ مُعاملةً كريمةً. كلما التقاها أحدهم عايرها بما لا تفهمه: «يا يهودية يا بنت القرود والخنازير». فلا تفهم، لكن إصرارهم على الإهانة يضايقها، فتبكي وتصرخ، ولا يأبه بها أحد، أو يرأف.. أليسوا حطب جهنم؟

يوم دخلت السيدة «عزيزة» للمستشفى كانت وما تزال مصريةً مثلي ومثلك، سيادتك. تعيش بين أبناء دينها في حارة اليهود. وبالطبع يخشى أيُّ يهودي ممن تبقوا في القاهرة أن يزورها.. أين الرحمة؟

سيدي الكريم، كل ما أطلبه هو الرحمة. إن رأيتني مجنونا فلعلي غير مؤذٍ، وإن رأيتني عاقلا فلا أقل من توقيعك الكريم بتأشيرة خروج لدنيا الجنون.

زين العابدين عبد الصمد المهدي..

شريكك في الإنسانية»

قال زين إنه نمّق خطّه ونمنمه قدر المستطاع، وسلم الرسالة لتمرجي مترقبا انفتاح طاقة خروج. يقول: «ما ضره لو مهر بتوقيعه تذكرة حرية؟ كالتي منحها سليمان بك الفرنساوي للست حميدة التي أنجبت عبد الصمد، فأنجب محيي الدين، وتكرر الاسمان حتى تُوِّجت بي، أنا المجنون ابن المجانين».

في طريقه للعنبر أغمض عينيه. أخبرني أنه في تلك الدقائق الطويلة رأى صاحبه الذي لا يراه غيرُه مبتسما، يُعد راحلته استعدادا للحاق بسفينة عابرة باتجاه الشمال، قال: «فعلمت أن فرجا بالإفراج عني قريب، وكئيب». وفي العنبر حاول الانعزال واستدعاء صاحبه فما قدر.. «هل كان سعيدا بوجودي في السرايا الصفرا؟ هل لا يأتيني إلا في محل ابتلائي وضنكي؟ يا له من شبح غريب!».

فكرتُ كعادتي في أن أحول الحوار باتجاه نواحٍ مضيئة، قلت: أنت أديب وفيلسوف يا صديقي، جميل على الرغم من شهور القلق والعزلة.

ـ وأنا أنتظر رد الطبيب لم أكن قلقا أو متوجسا.

ـ كيف، أنا لو كنت مكانك لما نمت.

ـ بل نمت مطمئنا.

ـ كيف؟ غريب على طبيعتك.

ـ فكرت ببساطة أنني استنفدت كل الأسباب، فعلت ما عليّ فعله. وبالتالي فلا مجال للوم نفسي أيا كان رد الطبيب. طالما عملنا

ما ينبغي علينا، فما علينا لو نترك الريح تعبث بنا حيث تشاء، لعلها تُنعشنا بطيب تحمله، وماذا علينا بعدها لو حياتنا جملة من السعادة، أو حزمة من كوارث؟

ـ أحيانا، لا يمكن مواجهة الحياة، إلا باعتبارها حزمة من عجائب الكوارث. فإن كان لا بد من مصيبة، فلا أقل من التفكير في تجنب القنوط.

بدا زين مختلفا، زينا آخر، مبتسما، فيه من المهدي شبه مع أني لم أرَ المهدي. قلت:

ـ نفحاتك يا مولانا زين، وبركاتك.

ـ صدقني، كما مررت بساعات ضيق، فقد عشت لحظات اطمئنان. كم لعنتُ السماء، وكم شكرتها، أحيانا تحسب أنها تتخلى عنك، فتفاجأ بأنها تفتح لك أبوابا أخرى.

ـ إذن، يمكنني القول بسرور: إن فترة الشك انتهت.

ـ أو هي في عنفوانها.

وخرج زين العابدين من مستشفى العباسية للأمراض العقلية. لم يغادرها حُرًّا تماما، فقد رَحّلوه إلى مديرية أمن القاهرة، ثم أمضى ثلاثة أيام مُتنقلا بين أروقتها خافتة الضوء كثيرة الحكايا، قبل أن ينقلوه إلى قسم شرطة المعادي، تمهيدا لتسليمه لأحد من أقربائه كضامن! ضامن لأي شيء؟ الوثائق تثبت أن زين العابدين تمت تبرئته مع مئات آخرين في حكاية انتفاضة الحرامية، وأنه خرج بطريق رسمية من العباسية. يعني سليما غير مدان. لكن جرت العادة في بلادنا أن المحتفل ببراءته مشكوك في سيرته وغير كامل الأهلية، ويجب على أهله تسلُّمه. مضى لبيته مكسورا كمشكاة ساقطة من يد أحدهم بالخطأ. لزاما عليه أن يُلزم نفسَه البيتَ أياما، خرج ولم يستقبله أحدٌ غير عمته التي ضمنته في قسم الشرطة.

في الطريق قالت: «حمدا لله على السلامة»، ما قالت غيرها، وفي البيت نطقت، فذبحت ومضت: «يا زين كل شيء قسمة ونصيب، ابنتي ليست لك، والفاتحة التي قرأناها قبل الأيام السيئة، الله لا يُعيدها، كلانا في حِلٍ منها. وأرجوك، إن احتجتني أرسل في طلبي، لو ناديت سآتيك فورا، ليس بالبيت غير شقتينا، لا داعي للاتصال، ابنة عمتك هناك من تكلم عنها ويطلبها للزواج».

حاولَ زين النُّطقَ، شُل لسانه، بكم. لم تُمهله: «يا بني، أنت عندي غالٍ، لكن بصراحة لست الرجل الذي أتمناه لابنتي، وطبعا لا يجوز لك المرور عليها في الجامعة أو ملاحقتها». هنا صرخ، لم يصرخ تماما، خرجت الكلمات مختلطة بدمع مكتوم وريق ناشف ومُر: «ربما لا أصلح لابنتك، كما تقولين، لكن يا عمتي، أنا رجل، وأنت تعرفين. الله يسامحك على كلام حاد كأيامي ومُرٍّ كحريق. لأني رجل، فلن تري وجهي ثانية أنت وابنتك اللهم إلا عند الشديد القوي من الأمور. وآسف على تعبك معي».. تمشّت حتى الباب، وقفت، التفتت، التفت قلبه: «هل ستندم على كلامها وتعتذر، فيعودَ حلمٌ جميلٌ كان». هرولت نحوه وهو جالس، نهض، احتضنته، بكت وقالت كلمتين: «على عيني يا بني». قبل رحيلها أوصته أن يعرضَ نفسَه على طبيبٍ نفسي، ويواظبَ على المتابعة.

صفعَه بابٌ يشكو صدأ سَرَحَ في قُفْلِه والمفصلات، فجلس نحوا من ساعة، كلما همّ بالقيام، تساءل: «ولمَ العجلة؟». أحسّ أن مُقامه ببيته سيطول، فلا عجلة ولا نشاط ولا حياة ولا حبيبة ولا وطن ولا شيء. في شيءٍ لم يفكر غيرَ خيالات وهم، وأماني ماضٍ، وأن ما جرى حين دخولِه الشقةَ هو كابوسٌ. حاول ألا يُصدِّق، فكل شيء يمكنه تصديقه إلا تخلي ما تبقى من عائلة المهدي عن آخر ذَكَرٍ من ظَهْرِ

رجلٍ صالح تعدى خيرُه للطير والحيوان، وأن حبيبتَه ليست له. هي لم تزره مطلقا خلال عامين سوداوين، ربما منعتها أمها كما بدا ويبدو له اليوم. بالتأكيد، يُقنع نفسه أنها أرادت ومنعوها، همّت وأقعدوها كما تُقعده مفاجأة لم يكن مستعدا لها ولا لغيرها. فيكفيه من زمانه الفوضوي بوابةُ عبث انفتحت وابتلعته، ولم يكن له فيما كان له «حرف حاء» من فعل «حرّض». حرّض نفسه على النسيان، أو قبول ما لا يمكنه قبوله والتصالح مع واقع صار حقيقيا. قال مخاطبا باب شقته: «حلوة مني: التصالح مع واقع صار حقيقيا». الحقيقة أني متصالح مع غرائب ومتاهات ولوغاريتمات، وأسماها الأطباء ضلالات، وما هي بضلالات، أو ربما هي الجنون وأمه وأبوه وعمته وبنت عمته. أنا مجنون، ولو أنت يا زين غير زين، فلا يضرك إذن لو قتلت أي مجنون آخر يقترب من حبيبتك، ثم تقف وتصرخ: أنا ضد الصلح مع الكيان الصهيوني، وأكره هذا الانفتاح الذي خلط الماء الآسن بالجاري، فتعكر الجاري واستطال العفن».

يئن لشظايا انفجار اعتراف تلاه مسوقا بأغلظ الأيمان عشرات المرات فيما مضى من تحقيقات: «ما حرّضت ولا شاركت ولا فعلت». يبلغ الأنينُ حافةَ الألم وحدّ الشجاعة فيقولُ بصوت خطيبٍ محمول على الأعناق: «أيها الرفاق، أقولها لكم: قبل اليوم أنا ما اشتركت بفعل يشير لموقفي من قريب أو من بعيد. وأُعيد تصحيح ما نُقل على لساني، إنني منذ اليوم ضد كل هذا القبح وهذا الخلط الأعمى، أن يصبح العدو صديقا والصديق عدوا. سأقتل من بدّل وفرّط وباع وخان وآوى إليه القاتلون وآوى إليهم».

يهذي أم يواجه ضعفه؟ يتوهم أم يكافح واقع وهمه؟ يبكي، يحاول، فلا يقطر دمع، يتكلم ولا صوت، يراوح مكانه فلا فوت، يعاتب من لا

يجوز معاتبته. يقوم أخيرا، يفتح شباكا مطلّا على كسل مقهى يتجمد رُوّادُه على صوت المذياع. يؤلمه ما تقوله أم كلثوم: «نعم أنا مشتاق وعندي لوعة».. «عندي لوثة يا ست، كذا قالوا ويقولون. يا رب لماذا كل هذا؟ ولماذا هذا لا يجوز قوله؟ أنت تعلم ما لاقيت، بل لاقيت ما لاقيت بقَدَرِك، فلماذا؟».

في الخرابة هداية

في برمهات تتزين مصر وينشط الناس ويتأهب الشوق لصهر العاشقين. إلى جوار نخلاته الثلاث، وقد ارتفعن مبتهجاتٍ مُبهجاتٍ، جلس المعلم زوج الاثنتين ينقل بعضا مما قاله ابن عربي، ويُطَرِّزُ على هامشه، حتى وصل إلى ما قبل انطلاق رحلته بالاعتزال والخلوة:

«قال لي ابن عربي: فمن خلا ولم يجد، فما خلا فهي طريقٌ حُكمها حُكمُ البلا... فبين القبور تجد الهدوء، وسط الأطلال تشعر بدفء الأمن، ويغمرك الاعتبار بأن البقاء لله الواحد القهار. حمدت الله تعالى لما كشف لي أن المتأهبَ إذا لزم الخلوة والذِكرَ، وفرغ المحلَّ من الفِكر، وقعد فقيرا لا شيء له عند باب ربه، حينئذ يمنحه الله تعالى ويعطيه من العلم به والأسرار الإلهية، والمعارف الربانية التي أثنى الله سبحانه بها على عبده «الخضر» فقال ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾. فآخر عهدي بأرضٍ نشأت بها أن تلحفت بالليل، وتنسمتُ الأرواحَ في كل إشراق، ومشيت بما قاله السابقون. قيل لـ«الجنيد»: بما نلت ما نلت؟ فقال: بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة. وقال أبو يزيد البسطامي: أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. فرأيت بفضل الله، أنه يحصل لصاحب الهمة في الخلوة من العلوم ما يغيب عندها كل متكلم على البسيطة، بل كل صاحب نظر وبرهان

ليست له هذه الحالة. فإنها وراء النظر العقلي. فقصدت بابه وملكوته، وقلت: إذا نام الناس خلوت معه، فإنه سبحانه ينزل لعباده بالليل إلى السماء الدنيا، فلا يبقى بينه وبينهم حجاب فلكي. ونزوله إليهم رحمة بهم، ويتجلى من سماء الدنيا عليهم كما ورد في الخبر فيقول: كذب من ادعى محبتي، فإذا جنه الليل نام عني. أليس كل محب يطلب الخلوة بحبيبه، هو أنا ذا قد تجليت لعبادي، هل من داع فأستجيبَ له؟ هل من تائب فأتوبَ عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ حتى ينصدع الفجر. فأهل الليل هم الفائزون بهذه الحظوة في هذه الخلوة وهذه المسامرة في محاريبهم.

واعلم، وفقنا الله وإياك، أن الخلوة أصلها في الشرع: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه». وأصل الخلوة من الخلأ الذي وجد فيه العالم. فالخلوة أعلى المقامات، المنزل الذي يعمره الإنسان ويملؤه بذاته فلا يسعه معه فيه غيره، انعزال عن كل شيء، حتى عن نفسك. فلو اختليت بنفسك فما لك خلوة، أن تكون معه وحده وبه وحده وفيه وحده. قال بعضهم لصاحب خلوة: «اذكرني عند ربك في خلوتك» فقال له: «إذا ذكرتك فلست معه في خلوة». فلا يعتزل إلا من عرف نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربه. فانزويت وحدي أراقب ملكوته، فأُشرِبتُ منفردا حلاوة زلال مسك عشق خمر عتيق، ورأيت أنواره في كل حجر وشجر وماء جارٍ. سبحانه لا تحده حدود، ولا تدركه خيالات، ولا يصفه واصف، ولا يقوم بحق ثناء مجد حمد تعظيم ذاته ذاكرٌ. فلهثت بذكره بلسان الحال، فقرع كلُّ حرفٍ بواباتِ قلبي، فارتويت وجرت في دمائي قواربُ ذكره مطمئنة بغير شراع، فاضطرب قلبي لصمت الاطمئنان، وفارق نظم ضرباته وطرق دقاته، وامتطى الحروف

الساكنة والمتحركة، فعبرت الكلمات إلى أصولها، وذقت من كل حرفٍ حروف أسرار وأسرار حركات، فسكرتُ. هل في الحروف خمرٌ، أم في الحركات سِحرٌ؟ فبكيت لما علمت كيف اختار حرف «الباء» مفتتحا لكلامه، وما كدت ألمس الحرف حتى تعلقت بنقطته، وعلمت أن الذي بدأ بـ«بسم» قد علّم آدم الأسماء كلها، واستودع محمدا ﷺ أسرار الأسماء».

طوى المعلم كراسته وسِفرَه المحبوبَ، واستحال انبساطه ضيقا. هل لأن نسائم برمهات عرجت بروحه لأفق بعيد، وسرت بقلبه حتى مجالس السمر بأسيوط، يتذكر غدوته على حقل قريب، وتأمله لزهرة الرمان التي لا تتفتح إلا عند استهلالة الربيع، قال وهو يتأهب للنوم: «برمهات، اطلع الغيط وهات، ونُح على غربتك يا غريب حتى الوفاة».

ما أعجب الحياةَ، نغرقُ فيها فنعمى، نبتعد قليلا فيبرق وعي، تُغرقنا فيها إذا ما أعلنّا في وجهها أننا لا نريدها. الدنيا كامرأة متمنعة لا عليك سوى رد صدودها بهجرٍ أشد. لو صرفتْ وجهَك عن بابها لحقتك، غلّقت أبوابها لتبقيك فيها مُلوِّحة لك بكامل زينتها. من جديد انتعش عملُه وسُدّ دينُه، فزيّن امرأتيه بالمصاغ، فحمدتا الله، وشكرتا كرمه.

مرت الأيام وانعدل الحال، والواقع أن حالة الملل عاودت المعلم واستقرت، فاستقر بنفسه أن وحشة قلب قد لازمته بعد انفتاح الدنيا عليه، وأنه ما فُتح عليه قبل ذلك إلا بالاعتزال التام في جبال أسيوط، ولزومِه مغارةً وحيدا لفترة، ولا بد من تجديد الإيمان والاستعاذة من الشيطان، والابتعاد عن شواغل بني البشر، وهجر لذة المرأتين، خاصة

حميدة. يقول لنفسه: «مثيرة يا بنت الروم». فاهتدى لفكرة استفزه إليها تدوينُه عن «الخلوة»، واستغرقت منه وقتا حتى اكتملت. فمضى بعد العشاء، فوق كتفه بقجة بها زاد قليل، وبيده اليسرى إبريق ماء كبير، وباليمنى مسبحة طويلة من الكوك. قصد خرائب الفسطاط، حيث لا شبح غير الأطلال، قواعد بيوت قيل فيما قيل: إنها ذات يوم بلغ ارتفاعها ثلاثة عشر طابقا، ومن أسطحها تدلت جهنميات، ولنوافذها تسلل لبلاب، ولم تَكُفّ سواقيها ساعة عن الدوران، حتى أحرقها الوزير الفاطمي خوفا من استيلاء الصليبيين عليها. وفي ليلة قرار الاعتزال انتظر الفجر، قال: «أصلي بـ«مسجد عمرو»، ثم أنطلق خلفه حيث خرائب الفسطاط، مكث قبل انطلاقه ساعتين يُدوّن في مخطوطه نقلا عن ابن عربي: «إن في الخلوة لعجائب وأعاجيب غرائب وطربا ووجدا وما هو فوق العشق ودون التماهي. لقد علّم أبانا آدم اسم كل شيء، ثم شَيّئ كل اسم، فأتت الدنيا مُحمدا، فاختار الرفيق الأعلى، فهو الذي اقترب فكان قاب قوسين أو أدنى، فرأى ما رأى، وأخبرنا: «نورٌ؛ أنّى أراه».. بالجوع بت ساهرا، مسامرا راقيا فوق موجات تأملات الملكوت، صاخبا في صمتي، وصامتا في ذكري. الجوع يصفي النفوس، يخفف قيود الأرواح فتنطلق في برزخ يفصل بين الخيال والحقيقة، فترى ما لا يراه الممتلئون المُترفون. جَرِّب الجوعَ قبل النوم خاصة، واشبع من فيض الذكر واشرب من وجد الصلاة على من أنت مأمور بالصلاة عليه، ثم انظر. سترى عجبا. وأعود فأقول: إن بعض الناس وكثيرا من الجسوم قد لا تنتفع بالجوع الشديد، بل إنه مُضِرٌّ أكثر من الشبع، فيُخيل لصاحب الخلوة الجائع المفرط في الامتناع عن الأكل أعراضٌ غير حقيقية، فيحسبها من الكرامات التي انفتحت له في خلوته، وما هي كذلك. وإنما هي أمراض وعِلل قد

تقود للجنون. فتجد أحدَهم يخبرك بما رأى من أضواء وألوان، وبما سمع من أصوات تكلمه وتأمره بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان. بل أخبرنا بعضهم أن حاسّة شمِّهم رقّت فتنسمت روائح الجنّة، وما هو إلا الوهم. ومما يُغوي العوام أن الخارج بضلالاته من فرط الجوع في انعزاله لا يستقيم له لسان، فلا تكاد تجد له كلمات مترابطة موصولة، فيعتبر الناس ذلك من إشارات الأولياء، وما هي إلا محض جنون».

في خرائب الفسطاط خلف جامع عمرو قرر الاعتزال عن الناس والأُنس بالوحشة منهم، متفكرا في رب الجِنة والناس. سرحت بعقله من الشوارد ما لو اجتمعت لأضاءت وأحرقت. راقب القمر في انتصافه، ولمّا غاب غاب معه، تخيل نفسه متنقلا بين الأفلاك مرددا ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. نام فرأى قلبه خارجَه وشخصين عن يمينه والشمال، الثاني يعصره فيحس ألما ويقطر دما، حتى إذا صفى الدم ولم تبقَ بفؤاده منه قطرة، تسلّمه الأول وصبّ فيه عسلا ذائبا في حليب، وأعاد قلبه إليه وهو يقول: «إن الله تعالى لا يصفه الواصفون، ولا يبلغ قطرةً من عِلمه العالمون، ولا عَرَفَ مقدار ذرةٍ من حقه العارفون، سبحانه خلق الوجود، واصطفى محمدا وأودعه سرا غير محدود، واختار من أرضكم بيتا جعله كعبة وقبلة للزائرين، وأقرّ عرشه فوق ملتزمه، وما وسعه مما خلق شيءٌ غير قلب عبد مؤمنٍ صافٍ. إن غايتك أن تدرك الحقيقة المحمدية، وهي مما لا يُدرك. لكن ما لا يُدرك كُلّه، لا يُترك كُلّه».

في تلك الليلة ارتعد المهدي مما رأى، خاف أن يخبر أحدا بما لا يُصدّق. لقد رأى عجبا بل ما فوق العجب، لو حدّث أحدا لرماه بالكفر، وساقه من لم يذُق لقاضٍ يحكم عليه دون شك بالقتل، ويزُفّه الصبيان ويُرمى بالجنون. ففي لياليه الغريبة التقى أرواحا، أو تخيلها.

فالحكم القطعي بالحقيقة سيظل رهنا باستعداد النفوس للقبول، لا بقناعات العقول. التقى أبا هريرة الصحابي، فأعطاه كلاما منسابا كحليب من وعاء مخفي بأكمامه، وقال له: هذا لم أُحَدِّث به. ولو تحدثتُ به ما صدقوني. أحس بوجود الخضر وأشار له بأن غلاما سيزوره وعليه قتله فارتعد، وأيقن أنه مشرف على هلاك العقل، لكن رؤاه واضحة.

تكلم مع الجن، أو هكذا هيئ له، استعاذ بمن خلقها من نار، وأنار قلبَه بسماعه لتسبيحات الأطلال الخرِبة. هل سمع شيئا؟ وقد عجّت ريح وعوّلت من ثنايا الخرابة، فارتاع، صاح في فضاء خرابات أطلال مدينة كم سبّحت أركانها ورُتل في بيوتها القرآن: «يا موجود هل أنا موجود؟ وهل حقٌّ ما وصلني؟ أم أن القلم عني مرفوع كما رُفع عن الثلاثة، نائم وطفل ومجنون؟ يا منير الأكوان وخالق الإنس والجان، أعنّي على ما بي حلّ، وكُن لي لأكون لك، وارض عني، لأرضى عن نفسي. أنا نفخة منك، وابن من أبنائك، أليس الناس عيالك؟ فأنا بي منك روح، وأنت لي واجد، فأنا إن عبدتك، أديتُ حق نفختك في، وإن سبّحتُك، سبّحت بديع صُنعك فيّ. أنت في قلبي، أنا منك، أنا بك، أنا لك. فأرشدني، تاه عقلي، تشتت فكري، زاغ بصري، ثقل لساني، ضاقت روحي وانبسطتْ، فصرت أنا، وما صرتُ أنا، أنت أنت، وأنا ما عُدت أدري من أنا؟ فخذ بيدي إليك، أخذ الراغبين في همة السير إليك. ولن أتكلم حتى تأذن لي، فلو تكلمت خفت أن أقول ما لا يقال، وما تعجز عن صدمة صداه الجبال، فلك العتبى حتى ترضى، ولك الأمرُ في رضاك، ولي التسليم حتى أراك، والسكوتُ».

سعد وانزعج، فقد رفرف بقلبه خاطر وطبّل: بأنه بعضٌ من كل، وكلٌّ في بعض. وأيقن أن مطلق الإيمان يقاس بأسرار المحبة.

الركون في الخرائب والمشي على حصاها العتيق، منحه إحساس الدوس على السحاب البعيد. مجرد عودته تعطر بعرق العزيمة لإتمام مؤلفه، تواردت الخواطر مع القراءة، فكتب: «هل يا مولانا تعتقد، كما أعتقد، أن لبعض الأماكن ما لغيرها من بركات، بحسب الساكن؟ أم أن كل المكانات سواء، والكل في عين السماء أرض سواء؟ وهل كما فضل الله تعالى بعض البشر على بعض، فإن ذلك كذلك في منازل الأرض؟ وأن ذلك لغير البقاع الطاهرة، المعروفة والظاهرة في مكة شريفة المقام، وبالمدينة على ساكنها الصلاة والسلام؟

قال لي ابن عربي: كما تتفاضل المنازل الروحية كذا تتفاضل المنازل الجسمانية، لذلك فإن الوجود الأعم للقلوب بمكة الشريفة، وليس الدُرُّ كالحجر، والحق تعالى ميّز بين الأماكن، والحكماء يدركون الفرق بين مدينة يكون أكثر عمارتها الشهوات، ومدينة يكون أكثر عمارتها الآيات البينات. وأقول لك: مرة سألت شيخي وصَفِيَّ عن تركه المنارات المحروسة المأهولة بتونس، واختياره المكوث وسط المقابر؟ فقال: «إن قلبي أجده هنالك». وقد وجدت فيها أنا أيضًا ما قاله، وسبب ذلك، من أجل من يعمر ذلك الموضع إما في الحال من الملائكة المكرمين أو من الجن الصادقين، وإما من هِمَّةِ من كان يعمُرُه من الذين سبقونا بالإيمان. واعلم أننا هنا لا نعبد غير الله، ولا نختلي إلا به سبحانه، وإنما نأنس بروائح أرواح مريحة وطيبة. وهناك من عشرات الأماكن التي عرفتها وسمعت بها وغيرها كثير، كبيت أبي يزيد البسطامي، الذي يسمى بيت الأبرار، وزاوية الجنيد بالشونيزية، ومغارة ابن أدهم باليقين. وما كان من أماكن الصالحين الذين فنوا عن هذه الدار وبقيت آثارهم في أماكنهم تنفعل لها القلوب اللطيفة. ولهذا يرجع تفاضل المساجد في وجود القلب، لا في تضاعف الأجر.

فقد تجد قلبك في مسجد أكثر مما تجده في غيره من المساجد، وذلك ليس للتراب ولكن لمجالسة الأتراب، أو هممهم. ومن لا يجد الفرق في وجود قلبه بين السوق والمساجد، فهو صاحب حال، لا صاحب مقام. ولا أشك كشفا وعلما، أنه، وإن عمرت الملائكة جميع الأرض مع تفاضلهم في المعارف والرتب، فإن أعلاهم رتبة وأعظمهم علما ومعرفة عَمَرَة المسجد الحرام. وعلى قدر جلساتك يكون وجودك، فإنه لهمم الجلساء في قلب الجليس تأثيرا، وهممهم على قدر مراتبهم.. واعلم، أن النفس تحشر على صورة علمها، والجسم على صورة عمله، وصورة العلم والعمل بمكة أتم مما في سواها، ولو دخلها صاحب قلب ساعة واحدة لكان له ذلك، فكيف إن جاور بها وأقام، وأتى فيها بجميع الفرائض والقواعد؟ فلا شك أن مشهده بها يكون أتم وأجلى، وموردِه أصفى وأعذب وأحلى. ولكن معرفة هذا الفن، أعني معرفة الأماكن والإحساس بالزيادة والنقص، من تمام تمكن معرفة العارف، وعلو مقامه، وإشرافه على الأشياء».

خرج المعلم من عزلته شبحا خفيف الجسد كثيف الروح. لزم بيت مصر عتيقة يومين، فقد من وزنه الكثير. راح وشعره مسودّ إلا قليلا، وعاد والشيب مشتعل كرأس فرنه في ليلة الحريق والحميّة. وفي الليل فتح كراسته وكتب: «قلت له: كيف أعرف ربي؟»..

قال ابن عربي: ثبت أن العلم بأمر ما لا يكون إلا بمعرفةٍ قد تقدمت قبل هذه المعرفةِ بأمر آخر، يكون بين المعروفيْن مناسبة، لا بد من ذلك. وقد ثبت، أنه لا مناسبة بين الله تعالى وبين خلقه، من جهة المناسبة التي بين الأشياء، وهي مناسبة الجنس أو النوع أو الشخص، فليس لنا علم متقدم بشيء، فندركَ به ذاتَ الحق، لما بينهما من المناسبة».

كتب: «إن حالي كما القائل: جئتك يا عبد المعين تُعينني. أنا لم أفهم شيئا فكلامك بغير شواطئ وعقلي محدود.

قال ابن عربي: إنك لن تصل لمعرفة ربك إلا بربك، سبحانه. انظر ماذا قالوا عنه، جل وعلا وتعالى، وما قاله «هو» عن ذاته هو. قال تعالى عن اليهود إنهم قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾، أما هو سبحانه فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾..هل يمكن أن نسمع هذا «القول»؟ هو قد أصم آذاننا عن إدراك هذا القول إلا بطريق الايمان، وأعمانا عن توجهه على إيجاد الأشياء بما أبدع من الأسباب، فأنزل المطر، فنزل، وحُرِثَت الأرضُ، وبُذر الحَبُّ، وانبسطت الشمس، وطلع الحب، وحُصد، وطُحن، وعُجِنَ، وخُبِزَ، ومُضغَ بالأسنان، فابتلعناه، ونُضِجَ في المعدة، وأخذه الكبدُ، فطبخه دما، ثم أُرسل في العروق، وانقسم على البدن، فصعد منه بخار، فكان حياة ذلك الجسم من أجل ذلك النفس. فهذه أمهات الأسباب، مع تحريك الأفلاك، وسير الكواكب، وإلقاء الشعاعات على مطارح الأنوار، مع نظير النفس الكلية بإذن الله، مع إمداد العقل لها. هذه كلها حجب موضوعة، فيحتاج السمع إلى شق هذه الحجب كلها، حتى يسمع قول ﴿كُنْ﴾ فخَلَقَ في المؤمن قوةَ الايمان، فسَرت في سمع؛ فأدرك قول ﴿كُنْ﴾. وسرت في بصره؛ فشاهد المكون للأسباب.

قلت يا سيدي: إن الأسرار علوم، لكن بعضها لا يعقله بشر، وقد حسبتني مجنونا، فحدثني وترفق بي؟

قال ابن عربي: اعلم، أن علوم الأسرار فوق طور العقل، وهو علم نَفْثِ روح القدس في الروع، وهو أمر جليل فاق فهم البشر. انظر ما جاء في الصحيح عن أبي هريرة: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين،

فأما أحدهما فبشته، وأما الآخر، فلو بشته قُطع مني هذا البلعومُ». بل إن ابن عباس وهو من هو، لما تعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ قال: لو ذكرت تفسيره لرجمتموني، وفي رواية لقلتم: إني كافر.

واسمع مني ما قاله «الرضيُّ» وهو من حفدة علي بن أبي طالب:

يا رُبَّ جوهر علمٍ لو أبوح به ... لقيل لي: أنت ممن يعبدُ الوثنا

ولاستحلّ رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا

قلت له: يا مولاي، أنا فخراني غلبان، وأتوق إلى العلم وتدوينه، ولي امرأتان وبيتان، وأمور أنا بينها منقسم، فأي طريق أسلك؟ وأي صناعة أبقى بها وأعيش عليها؟

قال سيدي: أنزلَ الأرواحَ في الأشباحِ أمناء، وجعلَ هذه الأشباحَ المُنَزّلةَ إليها الأرواح في الأرض خلفاء، ولا عليك أن تختارَ شيئا، فالخيرةُ فيما جعلك فيه وقائمًا عليه. أنت طائرٌ في سماه، وهو بي وبك وبالعالمين عليم، كل شيءٍ بأمره وقدره، وما في الوجود طاعةٌ ولا عصيانٌ، ولا ربحٌ ولا خُسران، ولا عبدٌ ولا حُرٌّ، ولا بردٌ ولا حَرٌّ، ولا حياةٌ ولا موتٌ، ولا حصولٌ ولا فوتٌ، ولا نهارٌ ولا ليلٌ، ولا اعتدالٌ ولا مَيْلٌ، ولا بَرٌّ ولا بحرٌ، ولا شَفعٌ ولا وِترٌ، ولا جوهرٌ ولا عَرَضٌ، ولا صحةٌ ولا مرضٌ، ولا فرحٌ ولا ترحٌ، ولا روحٌ ولا شبحٌ، ولا ظلامٌ ولا ضياءٌ، ولا أرضٌ ولا سماءٌ، ولا تركيبٌ ولا تحليلٌ، ولا كثيرٌ ولا قليلٌ، ولا غداةٌ ولا أصيلٌ، ولا بياضٌ ولا سوادٌ، ولا رقادٌ ولا سُهادٌ، ولا ظاهرٌ ولا باطنٌ، ولا متحركٌ ولا ساكنٌ، ولا يابسٌ ولا رطبٌ، ولا قشرٌ ولا لُبٌّ، ولا شيءٌ من هذه النسب المتضادات منها والمختلفات والمتماثلات، إلا وهو مرادٌ للحق تعالى، وكيف لا يكون مرادا له وهو أوجده؟ فكيف يُوجِدُ المُختارُ ما لا يريدُ؟ لا رادّ

لأمره، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ. فلا مريدَ في الوجود على الحقيقة سواه، إذ هو القائل سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

سألته: كيف عرفت أن لك مهمةً في الحياة، وأن عليك ألا تهدأ حتى إتمامها؟

قال لي: منذ الأيام الأولى اضطرب بي قلق، لا أخفي أنني تقلبت بين الشك واليقين، بين الاعتقاد ونفي الاعتقاد. حال العرب في الأندلس والأخطار المحدقة دفعتني وغيري كثيرًا للتساؤل: هل نحن على الحق؟ فمع الأخطار تتوه العقول. رأى كثيرون وكان معهم شيء من الحق، أن العيب فينا لابتعادنا عن حقيقة الدين، فنادوا بالجهاد، واستدعوا فقه الجهاد المدون منذ مئات السنين كما هو، لم يكلف أحد منهم نفسه عناء تغير الزمان واختلاف المكان وانقلاب الحال. جعلوا أسنة رماح عقولهم مصوبة نحو أنفسهم، فكَفّروا كل من هادن، وفسّقوا كل من سعى لتأمين إمارته الصغيرة، أو أسرته الكبيرة. لم يراعوا ظروف الناس، ولا تساءلوا: ما الذي اضطرهم لما اضطروا إليه؟ لقد رضوا بالمُرِّ اتقاءً لما هو أَمَرُّ.

ستجد في كل زمان أقواما كلما انهزموا اكتسحت الهزيمةُ داخلَهم، فرجعوا وقالوا: إن علينا أن نبدأ كما بدأ الأولون. إن الرجوع للدين ضرورة لا تعوزها ضرورات، ولا يجب أن يكون باعثها مرارة الحال، بل إن واجبنا الأبدي هو العودة للنبع الصافي. لكن ليس بتلك السبيل من التفكير المعوّج المتشدد. إن حقيقة الدين وجوهره هي الغاية التي خلقنا الله من أجلها، تعمير الأرض بالوصول إليه سبحانه، فالوصول هو السبيل، والسبيل هو الوصول.. رأيت في تلك الأيام أننا والدنيا كلها ننزف كراهية، والحرب أبدا قائمة بين الحق والباطل، بين المحبة والحقد. رأيت أننا بحاجة لفهم، لا أقول جديدا، بل أقول: سليما

للدين ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾. لو لاحظت الملل كلّها، وجدت فيها أمورا مشتركات، الكذب والخيانة والظلم وأمثالها كلها منبوذة بكل العقائد، تساءلتُ: لماذا إذن نكذب ونخون ونسفك الدماء ونظلم؟ مع أننا كلنا بالنهاية ندرك أن في النهاية حسابا، عقابا ونعيما. كل ما أردته والبشرية يذبح بعضهم بعضا، أنه بالحب ينفسح للجميع المكان. إن كان البشر اختلفوا في اعتقادهم في الله تعالى، فلا أقل، كي نحافظ على الإنسان، ذلك القيمة السامية، من أن نتفق على مبدأين: الحب والجمال. لكني ما قصدت دينا بمعنى المعتقد والعقيدة، ثم إن الكلام الذي كفروني به في زمني وبعده، هو أبيات شعر. للشعر ذوق آخر في التلقي، لا ينبغي أن نصلبه على حجارة العقول. سأقول لك كيف تقرأ الشعر؟ الشعر شعر، لا هو كتاب فقه، ولا دستور أخلاق، ولا تفسير أو حديث. إنه شعر يفهم بحسب حالة الشاعر وقت قال ما قال. بل لا ينبغي لنا أن نجري وراء فهمه، إن لم تسِل الأبيات في شرايين القلوب، فلا قيمة لها، وإن سالت، فلا حاجة لنا في التشدق بتفسيرها. الشاعر يقول، والحاسد يتأول. لذلك أنشدتُ: أدين بدين الحب..».

كما تلين قطعة طين ملفوفة بين يديه فوق دولابه، لان قلب الفخراني، شعر بأنه يُنسِّمُ مخطوطَه من قارورة حب. استراح لِمَا وجد، فاستبد به وجْدٌ للصلاة على النبي.

بوابة عبد الصمد

«واحد اتنين سرجي مرجي، إنت حكيم ولا تمرجي؟
أنا حكيم الصحية، العيّان أدي له حقنة، والمسكين أدي له لقمة
حج حجيجه بيت الله، والكعبة ورسول الله
بِدي أزورك يا نبي، يالّلي بلادك بعيدة
فيها أحمد وحميدة، حميدة ولدت ولد، سَمتُه عبد الصمد
مشته ع المشايه، خطفت رجله الحداية
حد يا حد يا «بوز» القرد، إنت ولد ولا بنت؟
أنا ولد زي القرد..

حدوتة مصرية

مـر عام كامل مع «حميدة» وأعوام قبله مع بنت الأعرج، ولم تحبل أيٌّ منهما. عام لم يخلُ من منامات وإشارات ومخاوف وكآبات. أشدها على الدوام أن إحداهما لم تدب ببطنها حياة. وروح المهدي معلق بالمساجد ومنتشٍ بمجاورة الأولياء. هو من طلب من الشيخ حسن وبقية الرفاق المريدين أن يكون سبتُهم التالي ببيته في مصر عتيقة بجوار الغرفة الطيبة.. جاءت عزيزة من المعادي وساعدت صاحبة البيت. قطّعتا لحمَ جِدي كامل، أولمتا ما يكفي لاثني عشر ضيفا، ربما سيزيدون بفقراء عابرين يحبون الثريد ويغرقون بالمرق وبجوزة الطيب يعرقون.

كنستا الفناء أمام الغرفة ورشّتاه بماء ورد، وبخّرتاه بالعود ولبان الدكر. راع عزيزةَ أن صاحبتها أمهرُ منها في صناعة الحلوى، فقد

أعدّت حميدة صينية كبيرة من البغاشة، صنف شهي يحبه المصريون ولا يُجيدونه وتعمر به مطابخ المماليك والأعيان. قالت عزيزة:

ـ أخاف لو ظللنا على حالنا أن يطير البلبلُ لغيرنا.

ـ منذ متى وأنت على ذمته؟

ـ بنى بي في العيد الكبير، وقد مرت بنا أعياد كبيرة سبعة، والثامن قادم.

ـ قد يكون العيب فيه؟

هوّلت ما قالته الرومية، كما تسميها، فهي لا تجرؤ على أن تذكر سيدها بغير الأدب، فردّت بعد تردد:

ـ هو صاغ سليم، ألم تسعدي معه؟

ـ بلى.

ـ وقد يكون لا عيب على الإطلاق، لا فيه ولا فينا. أبي يصبرني كثيرًا بأن كل شيء بقدر وموعد، وحين يأتي قدر الله وفرجه، فالفرح بعد الصبر.

ـ قالت لي جارتي الحبشية.. إن البَركة يلزمها دم، وإنه لا بد من إقامة زار وذبح إحدى عشرة دجاجةً وديك واحد.

ـ لو فعلتِ، ذبحك المعلم مع الفراريج.

ـ لن يعرف.

ـ يا عيب الشوم، هل تجرؤ المرأة أن تستر عن سيدها أمرا؟

ـ لن نقيم زارا، ولن نخفي شيئا. فقط سنعطي جارتي الحبشية ما تريد، ونزورها في بيتها، ويبقى بيتانا بعيدين عن الطبل والدم.

ـ أخاف، وأبي يقول إنه حرام.

بينا تتهامسان غشيهما سيدُهما ضاحكا: «ما شاء الله، ونعمت الضرتان، عيني عليكما باردة، شهقتُ في الخارج، فعلمت أنكما

تنتفان ريشي، وتتجاذبان ثوبي. أنا سعيد لأن ما بينكما بخير، ومحظوظ».

هل كان ما بين الضرتين خيرٌ؟ وإن كانت الجديدة أشد وضاءة وأملح وجها وأهيف قدا؛ فإن الاثنتين متقاربتان في العُمر، حزينتان كحزن المعلم أو أشد لعدم الإنجاب. القديمة أشد حزنا لطول العهد، والجديدة طيبة لدرجة أنها قد لا تدرك مرامي كلامها، فلا يُخفي لسانها ما برأسها ولا تحسب عواقبه. وقد كان في تلك الليلة التي باتت فيها المرأتان ببيت الفرنساوي، أن أسرّت حميدة ليلا لسيدها وقد بلغ عشقه مداه:

ـ قالت لي إحداهن: إن الإنجاب منوط بإقامة زار.

كتم المعلم دهشته وكظم غضبه واجتهد مركزا على لذة يطلبها، سألها في تحنان: أي إحداهن؟

ـ إحدى جاراتي.

ـ وأين قالت لكِ هذا الكلام؟ متى زرتها؟

أدركت حميدة أن وراء الكلام المعسول شرا متربصا في فخٍّ.

ـ لم أزر أحدا، هي مرت بي تسألني كيلة طحين وبعض زيت.

ـ منْ سألتك فلا تحرميها، وأنت طالق لو زرتِ أحدًا دون علمي، وأنت طالق لو مررتِ بزار.

ـ طالق، طالق. لأني وحيدة وغريبة تفعل بي ما تشاء. لو بنت الأعرج لما قلت لها ذلك. هي معي فيما قلته لك، لكنك تهاب أباها وتعمل حسابًا لأهلها، أما حميدة فوحيدة لا سند لها، تتشطر عليّ وحدي.

علا صوتها، وسمعت عزيزة اسمها يتردد، فاسترقت السمع، تلصصت تكتم فرحها بأن الأمور ليست على ما يرام بين سيدها

وضرتها. ويبدو أن الكلام علا وانجرف بينهما، فهوى المعلم بكفه على وجه حميدة، وما درت ولا درى كيف سحبها من شعرها لفناء البيت، وهوى عليها بكفه، ثم فتح باب الغرفة الطيبة في غضب، ودفعها: «سأربيكِ وأُعلمك الأدب». وأحس بوجود عزيزة فناداها، تلكأت، دفع الباب، وكانت وراءه فسقطت مدعية أنها غُشي عليها، فصاح به الغضب وركبه، فدلق عليها من ماء بارد، سحبها من رأسها فحشرها إلى جوار صاحبتها. صاح في الاثنتين: «في الصباح، تأتيكما من لا تجاريان جمالها، سأتزوج يا بنت الكلب منك لها».

غضبه زاد بسبب أن العشاء الدسم بكل ما دُس فيه من جنزبيل وفلفل وبلح جوزة الطيب سيضيع هباء، وفار جسده واستعر لسريان مفعول سن الأفيون. يا له نكد النسوان، يذبح شهوة الرجال. فكل شيء يهون غير شهوة مستعرة واستعدادات لليلة خيالية كان أعد لها العُدّة بحُقٍّ أهداه له أحدهم، به من «حجر جهنم» ما يُحيل برودة النسوان نارا ويطيل أمد المتعة. بعد أقل من ساعة نادى على الاثنتين عقب نحيب وصل سمعه، دفع كل واحدة لغرفتها. لم يرأف بأيٍ منهما، كل ما فكّر فيه مع الشهوة أن عفريتا قد يلبس إحداهما بسبب الوحشة والوحدة والبكاء. لكنه التزم عناد غضبه وراح يصبّ على جسده من ماء كاد أن يتجمد، وتجلّد عازما هجرهما في الفراش. وبعد ساعة فكر لو تركهما ونام في المعادي لشهرٍ وحده.. هل يُطيق؟

وصل لحل وسط: «المهم أنا، سأغشى بنت الرومي رغما عنها بعنف يليق بجارية، وبعدها أرميهما هنا لشهر». واطمأن إلى أن عزيزة نامت، فدفع باب حميدة، أقامها وهوى على وجهها: «اخلعي ملابسك يا بنت العبيد، تكفيني متعتي، ما أنت إلا قطعة حشيش تُسعدنا وهي تتبخر على نار». قاومته، فثارت ثائرته، أوجع ردفيها، اعتلاها جامعا كلتي يديها تحت رأسها بيده اليسرى القوية، واليمنى

تراوح بين رفع فخذها، والصفع على وجهها وجسدها الحليبي البضّ. طالته فعضته عضة مؤلمة، وجد لها لذة. قال: أنا سيدك، قالت: وأنا عبدتك وجاريتك. قلبها على وجهها، وكفّاه لا تهدأ تصفع خلفها. كانت اللذة مغايرة موجعة كشراب معسول ملتهب. تمنت لو صرخت فتغيظ جارتها. نهاها هامسا: «لو صدر منك صوت قتلتك. أنا أفعل ما أفعل لي، وليس لكِ، اعتبريه غصبا واغتصابا يا بنت الكلاب». انتهى، وهي غير مصدقة أن من الضرب والعض والعنف ما يفوق كل رفق ولين وعطف.

قال لنفسه بعد ساعة وقد دب جنونه: «قبل الاعتزال لا بد من عدل يليق بالرجال». فدخل على عزيزة، وفعل كما فعل عند الأولى، بيد أن الأمر طال وتأخر، وعنفه بدأ شديدا، ثم هدأ، فبكت من لذتها، وهمست: «من أجمل؟ أنا، أم أختي الصغرى؟». فوثّق ذراعيها وركبها كبغل وكأسد عضها. وفي الصباح قام كسولًا، تركهما وقد تشتت بين نيتين، الاعتزال لشهر، أو الزواج بِبِكر؟

المهدي رجل غير خفيف، متزن وحليم، قليل الغضب، لكن صولة الحليم نار، ينقلب تماما، فيعود رأسه حجرا مشطوبا من جبال أسيوط العنيدة، لا يرجع في كلمته ولو السكين على رقبته.. هل يتزوج؟

مع الظُهر ركبه تعبٌ وشمله إرهاقٌ، فبعث صبيه يأتيه بصديقه العطّار القريب.

ـ ما بك يا معلم؟ الإرهاق يا زوج الاثنتين؟

ـ لا تنقصني قوة، والبئران لا أظنهما معطلتين، فهل العيب في إبريق الساقي؟ اصدقني القول، لعَلِّي إنْ عرفتُ؛ صبرت وشكرت.

ـ أنت سليم، لعل العيب فيهما.

ـ الاثنتان بهما عيب؟ كيف هذا؟
ـ سأجلب لك وصفة مُجرّبة. تقوم كل واحدة بغليها بعد نقعها، ثم شربها كل صباح بعد انقطاع الدم لمدة خمسة أيام، مع فنجال عسل أبيض على الريق.
ـ تعبت من أعشابك، ولا أفلحت يوما وصفاتك.
ـ هذه المرة لعيالك، لا لك، خلطة مبروكة من العرعر والرشاد والينسون وحبة البركة وفلفل أسود.
ـ إن كان على هذا فالمسألة بسيطة.. وإرهاقي؟
ـ سأبعث لك أيضًا حُقّا به عجين طيب تبلع منه على الريق كل يوم، ثم تُتبعه كوب حليب. مخلوط من حبة سوداء مطحونة وحلبة ناعمة مع بذر فجل ومعصور عليها بصلة ومذوبة في عسل أبيض وغذاء ملكات. ما كاد العطّار يستأذن، حتى غشي المجلس تاجرٌ من بحري، بذكاء فلاح يجمع كلمة من هنا، ويضيفها لتعبيرات الوجوه، فلا تخيب له فراسة، ولا يقيد صراحته. قال التاجر بدون مواربة: «يا معلم، أنت هنا في مصر عتيقة بجوار سيدنا أبي السعود، ولا تتبرك بمقامه! إنهم يسوقون النسوان سوقا من الأرياف، فيَعُدْن أرضا طيبة، وما علينا بعدها غير غرس البذور. يا رجل، خذ نسوانك واقرءوا الفاتحة، وسترى عجبا».

أضناه تفكير في غلام يرثه وتقر به عينه، جاء غريبا وحيدا، فهل كذلك يبقى؟ احتار فيماً يصله من إشارات، في بعض الساعات يعتبرها غير نافعة كوصفات العطّار، وأوضحها رؤيا ابن عربي وكلامه لعزيزة بانقطاع الدم. كتب بكراسته:

«أسأل ثانية يا سيدي عن فك الرموز وقراءة الإشارات، حتى لا تنعرج بي السبل، وتعبث بي الدروب، وأفقد نفسي في المتاهات؟».

لكنه لم يُوفّق لكتابة، فقرأ في الفتوحات ونام، فقال: إن ابن عربي جاءه وأملى عليه: «اعلم أيها الولي الحميم، أيدك الله بروح القدس وفَهَّمَك، أن الرموز والألغاز ليست مرادةً لأنفسها، وإنما مرادة لما رمزت له، ولما ألغزَ فيها. ومواضعُها من القرآن آياتُ الاعتبارِ كلُّها، قال ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي تعجبوا وجُوزوا واعبروا إلى ما أردته بهذا التعريف. وتأمّل، كيف أن الكلمات في الكلام، كالمقصورات في الْخِيام، فلا تعجز لمفهوم الإشارات. فالإشارة عند أهل الطريق تؤذن بالبعد أو حضور الغير، فهي نداء على رأس البعد، وبوح بعين العلة في كل ملة. لولا طلب الكتمان ما كانت الإشارة بالأجفان. ولا عليك أن تبحث، ولا أن تُرهق نفسك فوق ما فيها من إرهاق بسب شيء أنت تقول إنه: ليس لك فيه يد. فلا عليك غير طلب قصد الطريق، ورغبة الوصول. ولك روح شفّت، فخَفّت، فالتقت بمن سبق، واستشرفت لبعض ما سوف يجيء. وبعض ما رأيته وعاينته، إن تحدثتَ به سلقوك بألسنة جاهلة، وعقول تظن جهلَها عينَ الفهم. وهم معذورون ومساكين، فهم لم يروا ولم يطّلِعوا ولم يعاينوا. إن عينك مبصرة، لكنها لا ترى غير ما يُكشف لها، لا ما يتناهى إليه الإبصار. فالرؤية لا ترتبط بوجود الأشياء أمامك. وإنما هي ترى بكون الشيء المرئي مستعدًّا لوقوع الرؤية عليه».

بعد صلاة الصبح جلس في محرابه مسترجعا ما كتبه بالأمس على لسان ابن عربي، لعله يُفلح في فك طلاسم كثيرة مُسجلة في رحلة حياته، أو عساه يظفر باصطياد إشارة تدله على السبيل للإنجاب. يقول لنفسه: «وهل إشارة أشد وضوحا من رؤيا البشارة قبل أكثر من عام؟»، مستنكرا أن يكون كلام التاجر عن أبي السعود الجارحي يحمل إشارة ما. فمع إجلاله لكل الأولياء، فإن حدا فاصلا لا يتعداه بألا يطلب

من غير الله، ففي يقينه أن ذلك من الإشراك بمولاه، وإن كان بداخله غريق يتمنى لو تعلق بقَشّة. فهل طارت إليه القشّة حينما أخبره الشيخ حسن الأعرج مساء، أن حضرتهم بعد أسبوع ستكون عند سيدي أبي السعود بدولابه الذي تحول مسجدا وفيه مقامه.

وكل مكان يحل به المعلم يستقي أخباره ويتعرف إلى معالمه. في ذلك الزمن انشغل مصريون بالتدوين، بعض النفوس ذات الهمة أدركت أن ما يجري لا بد من توثيقه. اهتم «المقريزي» بخريطة مصر وحكايات حواريها، وكرّس «الجبرتي الجد» حياته في تجارب الكيمياء وفلسفات السيمياء، وجاء «الجبرتي الحفيد» بموعد مقدور ليقص لنا حكايا الفرنسيس وما قبلها من قصصٍ أبطالُها ثلاثة: سيدان وأجير، مملوك وعثمانلي ومصري. وأما المهدي، فانصرفت همته لما كان عليه مسار رحلته هاربا من ظلم الصعيد، مارا بالراهب ومهديا في مصر العتيقة وفخرانيا، ومحبا للأولياء، وشغوفا بحكايا من يجاورهم، ومنهم ذلك الولي الذي يشاركه كثيرًا من سيرته. صاحب كرامات، وفخراني له قصب سبق في حكايا الطين والزيت والماء والإخصاب.

يخشى لو تجرأ بقوله: إن ثمة شبها بينه وبين العارف بالله الجارحي. هو يريد الوصول وأبو السعود سار على الطريق، كلاهما صنعتُه مهنة شريفة يتشكل فيها الطين ويُطبخ في النار الشديدة حتى يصير أشكالا وألوانا وأدوات زينة. كلاهما أمسك بين يديه التراب والماء فصار شكلا جديدا. له أشياء غريبة يتجنب حكايتها، فهي أحوال لن يفهما إلا أقل القليل. وسيده أبو السعود كراماته تُحكى في الحواري وتسكن في قلوب الناس، لا سيما نسوة مساكين يتمنين لو تنتفخ بطونهن وتدب في حياتهن حياة. كمْ نصحه رفقاء بأن يزور مع

نسوانه مقام الشيخ فينالوا من بركاته، وتنتعش أرض بور وتنشق منها سنابل قمح، فتَنْبُت طفلا ينادي «أبي» ويحمل ذكرَه في العالمين. رغم متاعب الصغار والقلق عليهم وهَمِّ إطعامهم وكسوتهم وتعليمهم، فإنه بغير طفل تصير حياة الكبار جحيما.

يعتقد في الأماكن والأولياء، والمنازل يردد: «بساكنيها، والطرقات بسالكيها». آلامه لا يُذاع سرُّها، وهي بادية ساكنة بين تعاريج ثلاثة تشقُّ جبهتَه كفروع نهر، وأفكاره الشاردة عميقة ومطلة من عينيه الشاردتين. العين نافذة بها نُطل على المكان، وعليها يرتكن الزمان بهمومه وعادياته، ومن خلالهما يكتشف أشخاص رائعون أسرارنا ومتابعنا ومواجعنا، قد نسميهم أصحاب فراسة، أو يحلو لبعضنا نعتُهم بأصحاب الكشف. ويؤكد هاربون في الجبال بجناياتهم أن قادة المماليك وبكوات العثمانلي مدربون على قراءة ما في العيون.. تسبحُ حدقتاه حينا فوق بياض ظاهرٍ، وأحيانا تغرقان في البياض. العين الطبيعية للشخص العادي من غير أصحاب الفكر والهم، مركز إنسانها الوسط التام وحوله البياض، وليس فوقه أو دونه شيء. العين تقول لمن يفهم لغتها، ويهطل ماؤها بما في القلوب.

رتب المهدي في رأسه ذكريات كلام الناس عن أبي السعود، منها ما هو منثور في الكُتب، وأكثرها مهموس بالشفاه، توثيقه ثرثرة على المقاهي الكسولة. يُصدِّقُ بعضها ويتندر بمبالغات العوام في أكثرها. وزيارة نسوانه للمقام شديد على نفسه، وعدم الإنجاب أشد، ورأسه يتأهب للاشتعال شيبا وهمًّا.

يقول عطّارون يزعمون الاطّلاع على طب «أبقراط» بأن الفحل من الرجال تستيقظ شهوته صباحا قبل عينيه. ومع الصباح زارته فلاحةٌ يُضيء جيبُ صدرها، تطوف لتبيع البيض والزبد الفلاحي.

قصدته لكرمه معها وقالت: إن معها خمسة أرتال من زبد جاموسي طيب. ومالت فطابت له، وتحجر بصره بها، فاستعاذ بخالق الخلق وصرف نظره، وقال متعجلًا:

ـ اشتريت يا ست الستات.

ـ ومعي جبن قريش.

ـ من أين؟

ـ من منيل شيحة (قرية على الشط الآخر من أعمال الجيزة ومقابل المعادي).

ـ وما الذي يحملك على مشوار طويل؟

ـ أكل العيش واليتامى.

ـ ماذا لديك من أبناء؟

ـ صبيتان وأربعة أولاد، وأنت يا معلم؟

ـ الله يرزق من يشاء، أنا منتظرٌ فرجه.

ـ أنت مثل الفل وسيد الرجال. لو أردت أعطني شيئا من قَطَر عرقك. أبي شيخ معروف في نواحينا، يصنع لك حِجابا يجلب العيال.

ـ وحده الله جالب الخير.

اتفق معها أن تأتيه في الغد ببط وفراخ وحمام، ونفحها مالا بزيادة. وساءه ما حكته عن أبيها وأعماله وفكوكه، لكن رغبته المكتومة غطّت جسده. وما أطال في استغفاره لنظره في صدر الوليّة، بل فكر لو تزوجها فهي ولود، وإن لم يرزقه الله منها؛ فعليه أن يسكت ويصطبر ويرضى، فالعيب فيه. وأعانه غضبه من نسوانه في أن يعتبر زيارتها إشارة لزواج جديد، فلا شيء بدون غاية، حتى الولد نطلبه وبغيتنا اللذة.

تعافى زين، استرد بعض روحه، ولم يفارق أحزانه كُليّةً. جلسنا على مقهانا، نواجه الحياة بما عشناه من سيرتي المهدي وابن عربي. قال:

ـ هل تعتقد أن المهدي من أولياء الله الصالحين؟

ـ علاقتي بهذه الأشياء لا تتعدى البحث العلمي.

ـ طيب يا سيدي، من واقع البحث العلمي، هل تعتقد في الأولياء؟

ـ في كل دين هناك أمور متشابهة، أناس يمشون على صفحة الماء، حكايا عن أطباء يعالجون بمجرد اللمس، قصص عجيبة تُريح نفوسا متعبة، وتنعش أرواحا تقاوم حياة خشنة، تمنحنا وهما بأن الأمور يمكن أن تتغير فجأة من دون أسباب. ذلك يناسب شعبًا غارقا في المتاعب والعثرات. لكن أصدقك القول: أنا معجب بالمهدي، وإلا فلا معنى لمواصلتي تحقيق مخطوطه وتتبع سيرته الطيبة. هي حتى الآن طيبة؟

ـ أنا أعتقد في الأولياء، كما أعتقد في الشياطين. كثيرًا ما أفكر في أن دنيانا منقسمة بين نور وظلمة، إرادة خير وعزيمة شر. تقول الحكايات والأفلام أو تُحتم أبجديات الدراما أن ينتصر الخير بعد استطالة الشر.

ـ الحق دائما ينتصر. تلك حقيقة.

ـ الحقيقة أن الشر هو المنتصر على الدوام. الضعفاء من يرددون حتمية انتصار النور، لكن الواقع يؤكد أن الظلمة هي التي تسود في النهاية ومنذ البداية. وإلا، ففسر لي ما نحن فيه من شرور؟ حاربنا لنحقق الكرامة، فإذا بنا، نحن المنتصرين، نستجدي التصالح مع العدو، نفتح له الأبواب. نتأخر بينما يتقدم الظالمون.

ـ المباراة مفتوحة، ربما هي في شوطها الأول، لم تنته بعدُ.
ـ كل المباريات انتهت، وإن كانت مباراة حالية فالنتيجة محسومة. دخلنا في حقبة سلام، فيما يدخل العدو حقبات من الإعداد والتسليح. نحن المثقفين، كما ندّعي، نفكر طويلا قبل أن نطلب كوب شاي في هذا المقهى الفقير، لأن لنا حسابات دقيقة مع دخل مالي ضئيل، بينما الجهلة الفاسدون يستطيلون في البنيان. لقد علمت أن ابنة عمتي الجامعية الجميلة، سُتزف لمقاول لم يكمل تعليمه. هو بأمواله عاقل، وأنا بليسانس فلسفتي مجنون. قد أصدق أن الحق ينتصر، لو اعتبرت أني باطل والمقاول حق، أننا ظلام وعدونا نور. لكني ما عدتُ ألومها، بل أتمنى لها السعادة، وإن كنت لا أرضى بمثل هذه الزيجة غير المتكافئة، والظالمة. أنا مسامح في حقي تجاهها، لكن غير مرتاح لما آل إليه حظُّها.
ـ يا زين، أنا واثق بأنك سوف تسترد كثيرًا مما ضاع منك، أمس وأنا أراجع فصلا في المخطوط، رأيتك بين السطور، تحمل بقلبك أهم ما اتصف به المهدي الكبير، التسامح. أعتقد أن أهم هدف يجب السعي إليه، هو استعادة تسامحك. لو استعدت نفسك، عاد إليك كل شيء وزيادة.
ـ أنا ضعيف، هل أملك شيئا. حتى تسامحي إقرارٌ بضعفي.
ـ أنت قوي تملك الكثير، أهم ما تملك روح محب، وضمير متسامح. أنت تحاول تَجَنُّبَ جمالك، لكنه واضح. لو استعدت تسامحك، عادت إليك راحتك.
ـ لست نبيا، ولا وليّا، ولا طفلا بوسعه النسيان.
ـ لست بحاجة لتكون نبيا أو وليّا، لكنك تملك روح طفل صافية،

رغم كل الأحداث، أنت بحاجة للتسامح لتقليل التوتر، للخروج من الكآبة. طلاق الأحقاد مقوٍّ للمناعة النفسية والجسدية.

سرح بعيدا عني، قليلا، نظر زين للسماء، عاد، فقال:

ـ انظر، كم السماء صافية، ليتني سحابة.

ـ أنت سحابة مُثقلة بالماء، قلبك أبيض، فكيف تتركه لعاديات هموم ستزول. لو قررت، فسيكون لك أكثر مما فقدته. أما إذا أصررت على تكدير صفوك، فسيدق ناقوس خطر. تسامحك قيمتك، ترياق من سموم الأيام. كل الأنبياء والأولياء ذاقوا المتاعب لأجل إرساء التسامح. التسامح انتقالٌ من السلب، صحوٌ بالإيجاب. في أول يوم التقيتك فيه، نصحتني، هل تذكر؟

ـ سامح، نم بلا ضغينة، سلمها لله «قالها كأنه يكلم نفسه».

ـ ونعم بالله. طيب، قل لنفسك.. هل تعلم؟

ـ ماذا؟

ـ من سيرة المهدي، وصلت إلى أن أهم ما نادى به ابن عربي وسمّاه بالحب، هو التسامح، هو الجسر الذي تعبر فوقه نفوسنا من أجل حق الحياة، القويُّ هو من يرى أن الانتقام الكامل هو التسامح الكامل.

ـ قد لا أكون في حالة نفسية تسمح لي بالتصديق.

ـ إن كل ما صادفك من عثرات، هي مجرد أيام وانتهت، أحداث بدأت، عليك أن تقرر إيقافها، من أجل أن تبدأ بنفسك أحداثك العظيمة.

ـ الحدث العظيم كان حبيبتي، قلبي ولحمي ودمي.

ـ لو قربك منها يضرها كما ادّعت عمتك، فقرر أنت الابتعاد، وإلا فما معنى الرجولة والصبر. يا صديقي، الحب الكامل أن

تتمنى الحظ الطيب لمن هجرك، أن تعشق من كانت له يدٌ في تعاستك، وإلا فأنت كذاب غير عاشق.

ـ أنا عاشق قهرته الظروف وسحلته قرارات الآخرين.

ـ الظروف، إذن أنت تعتبرها أقوى منك.

ـ هل لديك شك؟

ـ الأقوى دائما هو من نتخيل دائما أنه لا يُقهر. لو جربت لأيقنت أن لكل شيء نقطة ضعف، حتى الظروف القاهرة. تسامحنا يُذوب الحديد. ابتسامتنا تُهوّن الصعب.

ـ أنا ضحية خديعة كبرى، محيطٌ من مؤامرات. الكل ضربني بعنف، أهلي بكلماتهم، النيابة بقراراتها، التمرجي بكهربته، العباسية بكآبتها، وتريدني أن أبتسم؟

ـ ابتسم وأنت تتلقى الضربة. الضارب جاهل، المضروب لديه فرصة لا تعوض لاكتناز واحة السماحة. كم مرة جاءت الضربة على الرأس، وكم مرة أفقت فإذا لا شيء. الضربة التي لا تقتل تقوي، تعطي مساحة جديدة بالعقل للعافية، بينما كفٌ تضربك تزداد ضعفا. فمن القوي؟ومن الضارب ومن المضروب؟

ـ حتى إن تسامحت، فليس بوسعي النسيان.

ـ التسامح التام، لا يستلزم النسيان التام.

ـ بهذا المنطق، يمكنني أن أقبل زيارة السادات للقدس.

ـ أنت تعلم موقفي، وكذلك موقفُك. ما فعله لم يكن من منطلق التسامح، بل من منطلق الخنوع والخضوع والبيع بلا ثمن.

ـ الثمن هو خروج مصر من موجات حروب لم تسمح لها بالتقاط النفَس، من أجل البناء.

ـ وهل بنى؟

ـ ربما أراد.
ـ عموما التاريخ سيحكم، والواقعُ مُرٌّ. السلام سلام الأقوياء. الذي أضعناه كما قال أمل دنقل «هي أشياء لا تُشترى».
ـ سأريحك، لقد وصلت إلى حكمة أراها من بلاغة مجنون، هب أنك لا شيء، وقتها تُحس بالراحة، هب نفسك كل شيء، وقتها تبدأ الطريق.
ـ يبدو أنني أنا من سيعيدك لسيرة المهدي، الذي لم يكن له في السياسة غير «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها». أين وصلت في سيرته؟
ـ لحكايةٍ عجيبةٍ، سأقرؤها، ولا تضحك، بعنوان: «سيدي أبو السعود الجارحي».

هنا سأنقل ما جاء بهامش المخطوط ببعض تصرف، وإن كان كلاما غريبا ومضحكا، فالأمانة هنا تقتضي النقل دون التعليق. كتب المعلم تحت العنوان المذكور:

«يقول أهل مصر عتيقة إنه ما دعا أحدٌ بمثل دعائه إلا نال حاجته: «يا من آنس عباده الأبرار وأولياءه المقربين الأخيار بمناجاته، يا من أمات وأحيا، وأقصى وأدنى، وقدّر وقضى، كلٌّ بعظيم تدبيره وسالف أقداره. ربي، أي باب يُقصد غيرُ بابك؟ وأي جناب يُتوجه إليه غير جنابك؟ إلى مَن أقصد وأنت المقصود؟ وإلى من أتوجه وأنت الحي الموجود؟».. قيل عنه قليل مُدَوّن بالكتب، وكثيرٌ مما لم ينهض أحد لتوثيقه أو يلتزم فيه حد الأدب. فيقولون: هو من أصحاب قراءة الأعين وله مطالعات كشف، جاء من جوار سيدي عبد الرحيم القنائي، وفي طريق قلعة الجبل سكن وبنى دولاب فخار. في الصباح تأتيه شكايات، فيأمر ساكنَ القلعة بالعدل، فيأتمر، ويخشى الوالي عصيان الولي.

أتاه يوما أميرٌ مملوكي بقفص موز وجوال رُمّان فردّه الشيخ، فتضرع المملوك «هذا لله تعالى». فأجابه أبو السعود: «إن كان لله، فأطعمه عيال الله من الفقراء والمساكين». فمضى الأمير ببضاعته، وبعث الشيخ خلفه فقيرين، بصيرا وضريرا، فلحقاه وقالا: «يا أمير أعطِنا شيئا لله، من موز الله ورمانه». فصدّهما ونهرهما وكاد أن يسطو عليهما لمّا ألحّا عليه في الطلب، فرجعا وأخبرا الشيخ بما كان. فأرسل له الشيخ يقول: «هذا، وتكذب علي الفقراء، وتنهر الضعفاء، وتُرعب مساكين يقولون: أعطنا يا أمير شيئا لله، لا عُدت تأتينا بعد اليوم أبدا». فحصل له العزل، ولحقته العاهات في بدنه، ومات علي أسوأ حال.

أبو السعود الجارحي، أبو الأباريق، أول من صنع في المحروسة إبريق ماء جوار القُلّة. قبله كانوا يمزجون الطين بالزيت، وبينا هو قاعد فوق دولابه يُدوره ويشكل ما تحت يديه، ويمس يديه من «ضهريتين» إنائي فخار جواره بهما زيت، إذ تذكر حاله وذنوبه، فاستغفر، وبكى بكاء شديدا، فهطل الدمع على ما بين يديه من طين، فتنبه، وإذا قلة تشكلت وانتفخت، واستطال زُورُها، وجاءت بماء العين أطوع وألين من الزيت. فدخل عليه الشيطان في هيئة صبي يطلب عملا، وقال: إنهم يحكون عنك كرامات، فأنت ضامن لجنة رضوان. فعلم أبو السعود أنه الشيطان، وأمره أن يدخل بيت الطين، وأن يقلب قطعة طين كبيرة باتت من ليلتين وتخمّرت، وأن يدوسها بقدميه، وكلما انتهى الصبي الشيطان، أمره الفخراني بالبدء من جديد، فذلك أجمل للطين وأسهل عند البناء والتشكيل.. فقال الصبي: «إنك بكراماتك تستطيع أن تفعل بالطين ما تشاء، بل بوسعك أن تنفخ فيه من روح الله، فينطق». وهنا دخل أبو السعود إليه، وربطه وحمله فأجلسه موَثّقا فوق نافذة، وقال

له: «الساعة أعلمُ من رحمةِ ربي ما يشاء».. ومضى لصلاة الظهر، وعاد فما وجد الصبي، ووجد الحبل بعقدته كما هو، وسمع فجأة صوتا يقول: خدعتني يا أبا السعود.. من يومها حكى الناس أنها مهنة هرب من شقاوتها الشيطان. وظل أبو السعود منبع أسرار المهنة، يُشير على من طلب النصيحة، ويُعلِّم من أراد التعليم ولا يكتم موهبة منحها له البارئ المصور. في رحلته للمحروسة بين جبال الصعيد التقى بصنم يعرفه المصريون بالإله «خنوم» رمز الذكورة. فخراني قديم يُشكل العضو الذكري فتتبرك بها النسوان. نام أبو السعود داخل معبد خنوم المهجور الموحش. فهل علم شيئا؟

في مصر عتيقة، يحكون عن عاشقين رجل وامرأته، عيشتهما هنيّة، وتكدرت لعدم الولد. وتكلم الناس أن المرأة عاقر، وزوجها يحبها ولا يريد أن يُحزنها. وخافت الزوجة من الهجران والزواج عليها، فزارت أبا السعود في دولابه.. وفي نفس الساعة، كان الزوج العاشق عند جرّاح يجري له عملية إخصاء من أجل أن تطمئن حبيبته وتعلم أنه باقٍ معها على أي حال. وعادت الزوجة مستبشرة لبيتها بعد أن قال لها سيدنا أبو السعود: «إن الفرج قريب، ستلدين ما شاء الله من بنين وبنات». وقد رأت بُشرى منامية بعد زيارة الشيخ، فقامت ضاحكة متزينة فاتنة منتظرة زوجها الذي عاد مهموما مُرهقا بعد غياب أيام في سفرٍ زعمه، فلما أخبرته زادته غمًّا، وتكاشفا وأخبر كل واحد منهما ما كان.. طفش الزوج التعيس، ومصادفة التمس موضعا بجوار كوخ الشيخ، الذي سأله عن قصته، فقصها عليه. فطلب منه النزول معه إلى سردابه حيث دولاب فخّاره وبيت طينه. ومكثا بداخله ثلاثة أسابيع، صنع فيها أبو السعود عضوا ذكريا وركّبه للزوج المخصي، وجاءته من الأسرار ما هو مخفي. فمسح بالماء على ما صنع، وقفل الرجل

عائدا لزوجته فحلا ذكرا أفضل مما كان، وأنجبا من الصبيان والبنات، وعاشا في بيت جديد محميٍ كما التبَّات، وأكملا ما تبقى من العمر في هناء وسُكر نبات.

قيل: إن أبا السعود بعدها حكى لأحدهم عن بَرَكةِ «خنوم» وأنه ليس بإله كما ظن المصريون، بل هو رجل مبروك من الموحدين من أتباع إدريس النبي، فمنحه الخالق بركة علاج الذَّكَر وإعادة ما ارتخى قائما صلبا، وكان فخرانيا أيضًا».

هل كتم المعلم ضحكه وهو يكتب سائلا صاحب الفتوحات: هل من العباد من يداوي المواجع ويشفي من الأمراض؟».

وأجمل من الحكاية الفلكلورية، كانت ضحكات زين العابدين. «يا رجل، سلمها لله واعمل الطيب». قلتها، فرد ببديهة من مأثور شعبي: «خليك مع الله، لا زيد ولا عمرو، إذا أراد يسعدك، أوعدك بعد الخراب عَمْرِي».

وأعود لحكاية المهدي وافتنانه أو فتنته في بائعة الزبد والبيض وقد تأخرت عن موعدها أسبوعا، فاشتعل تفكيره ولم ينسها. وذات صباح وكان في فرن فخاره وقد همدت ناره قبل يوم وفيه من الحرارة ما لا تُطاق معه ملابس، يقف داخل الفرن ويُناول صبيانه قطع الفخار الساخنة فيلقفونها بأقمشة بالية ملفوفة على أياديهم، وهو عريان إلا من شال خفيف يشده حول وسطه، ومغسول بالعرق.

بغير استئذان دخلت المرأة وبصحبتها ابنتها، صبية كالبدر وفي مثل عُمر قمر ليلة المنتصف سنين، سألت أين المعلم؟ فأشار صبي صغير للفرن، فسحبت بيد ابنتها وبغير استئذان وقفتا على باب الفرن والصبيان يضحكون، لعلمهم أن معلمهم ليس على بدنه غير ساتر

خفيف شفيف. التفت المعلم وبيده قصرية كبيرة ليناول صبيانه فلم يجد غير فتاة فلاحة جميلة ندية، فاضطرب وسقطت القصرية من يده وكاد أن يسقط معها، فتحامل وأسرعت الصبية تسنده فانكشف المستور وصار أمامها عُريانا تماما، فجرت البنت خجلى حجلى كأرنب مذعور، وأسرع المعلم يستر نفسه، وتناول جلبابه، وخرج في إثرهما:

ـ معذرة يا بنتي، واللوم على أمك واللوم الأكبر على صبياني، واقعتهم سوداء.

وتوجه لأمها معاتبا:

ـ كان عليك الانتظار أو الاستئذان.

ـ حصل خير يا معلم، يا خسارة القصرية التي انكسرت.

ـ ما انكسر يمكن إصلاحه.

وقد قرر أن يصلح ما انكسر من حياء البنت. في المساء خطبها، واتفقا على البناء بها بعد شهر لحين يؤثث بيتا قرر شراءه بـ«منيل شيحة». ومع العصر بعث من يُخبر نسوانه. ووصله نحيبهما.. «ما قدّر الله يكون».

وعلى الرغم من كل الحكايا التي ملأت رأسه عن أبي السعود الجارحي، وملكت عليه أحلامه الطيبة، فإنه لم يصحب أيا من نسوانه لزيارة مقام أبي الأباريق، فغضبه من المرأتين موصول من آخر مرة كان معهما. وبعد شهر سوف يتزوج عليهما، وسيجرب نفسَه بنفسه.. زار المقام قبل الحضرة، قرأ عنده الفاتحة، ثم دعا ومضى لدولابه، وانتظر حتى ذهب الجميع، صبيُّه ومساعده «الدوّاس» وجلس يشكل من الطين الطيّع عضوا ذكريا منتصبا، ورغم يقينه بالحجم فقد بالغ قليلا، وخبأه فوق السطح حتى تطالعه شمس الصباح ويرفق به ندى

الليل. بعد ثلاثة صباحات دسّه بين أوانيه وجِراره داخل فاخورة صغيرة. ولما استوى، استلمه وقرأ عليه ما شاء له أن يقرأ من أوراد وآيات، ثم خبأه وربطه إلى جوار ذكره تحت لباسه، وما إن وصل البيت حتى أخفاه تحت سريره. بعد أسبوع فكّر لو كسره وهشّمه. خاف لو فعل أن ينسحب ذلك على نفسه فيضعُف. فاهتدى أن لفّه في شال أبيض.

الشيء الوحيد الذي أثّر في المعلم أيام هجره المرأتين هو خوفه على حميدة. لماذا حميدة؟ لعل السبب في ذلك كما ينقل زين عن جده، هو الهزة التي شعر بها المهدي قبل ذلك بشهرين، ونُفث في روعه ساعتها أو أحس أن حميدة قد دنا أجلها. قال: «الأعمار بيد صاحبها». واجتهد في الاستعاذة من ظنه الأسود وعزم على الإحسان إليها قدر الإمكان. استغفر ربه وعرّج على بنت الأعرج فطيّب من خاطرها وعطّرها بعرقه، وفي اليوم التالي بات في فِراش حميدة، فمنحته نفسها دون دلال اعتاده منها، وراعه ذلك، وأخبر المرأتين أنه سيغيب أسبوعا مع العروس الجديدة، ووعدهما بالعدل.. فتمنتا لو خنقتاه.

استمتع بزواجه الجديد. وبعد شهرين لم ينقطع للعروس دمٌ فزاد الهم، كما لم يصْف ماءٌ بينه وبين جدها، فقد عرف بعد أيام أنه ذو هيبة، لكنه مكروه في القرية ومشهور بالسحر. وانتهت مدة قدّرها ليواصل بعدها تقسيم لياليه بين نسوانه وخطط لو يجمع ثلاثتهم في بيت واحد. وكانت ليلة حميدة فقابلته منكسرة حزينة، لكنها لم تنس زينتها، فتناول يدها وجذبها إليه، وبعد ربع ساعة قام مُنهكا دون أن يفعل شيئا، عاود المحاولة وما إن اقترب حتى نخّ جملُه وكسَل. الأمرُ نفسُه تكرر مع عزيزة، غير أن بنت الأعرج اكتشفت في ذيل جلبابه

الجديد ورقة صغيرة مطوية وملفوفة، صرخت: «لقد سحرت لك الجيزاوية يا سيدي». فمضى مغاضبا إلى منيل شيحة، طلّقها طلاقا لا رجعة فيه. وندم على نزوة لا تليق بمقامه، وعاد لما كانت عليه حياته راضيا صابرا.

في ذلك الصباح، كاد شهر بئونة أن يُغرق الناس بعرقهم، زاد النيل، فارتفعت الحرارة. جلس المعلم أمام بيته بالمعادي يتلو ورد يوم الجمعة، وتأنس إلى جواره دجاجات عزيزة وقد ملأت فناء الحوش. جاءت بنت الأعرج وجلست أمامه شاحبة بعض الشيء، تنتظره أن يمدّ يده لإناء تتراقص بصفحته بيضات مسلوقة تقلّبت لدقائق فوق سمنٍ بلدي.

ـ ما بك يا عزيزة؟ كفى الله الشر.

ـ نهارك بركة يا سيد عزيزة.

ـ ما بك؟

ـ لا أعلم كيف أقول، ولا كيف أشكر الله؟

ـ خير، إن شاء الله.

ـ من نهار فسيخ شم النسيم يا سيدي، والدم ما جاءني.

ـ تكلمي يا عزيزة، لا أفهم. هل تقصدين...؟

ـ نعم يا سيد الرجال، الأمل حصل، أنا تأكدت من أمي.

ـ الله أكبر، يا أم محيي الدين.

قبل أن يستخفه طرب الفرح هوى ساجدا غائبا في ملكوت الرحمن المنّان. قام، فاستلم عصاه، وطوى كُمّ جلبابه الصعيدي مقوّس الجيب واسع الكمين، ورقص فشق الصمت، وكأن الكون كله يدق له على طبل السعادة. ومضى بالبشرى من بيت بنت حسن الأعرج، وعدّى على بيته الثاني، وسبحان من بعث بالوحي جبريل الأمين فاخضرت تحت

آثاره أرض ودبّت حياة.. في مصر عتيقة قالت حميدة: «حميدة ستنجب ولدا، أُحِسُّ أنه ولد، وأنا حامل يا سيدي في شهري الثاني». زعق: «يا رب، وهل أملك حسن بيان أشكرك به، أو عندي من الأنامل ما يكفي لأسبحك بها، يا واسع العطاء، لك الحمد حتى يبلغ الحمد منتهاه يا فرد يا صمد».. مال على حميدة: «لو ولد بإذن الله، سأوفي نذري، وسأسميه عبد الصمد». مسح على عنقها البلّوري الشفاف وقبّل أذنها، وطواها كشال حرير في صدره، وعقلُه غائب في بركات أبي السعود الجارحي الطبيب الحكيم، ويده تمسح بطنها التي دبت بها نفخة الملك، فأنشأ يؤلف ما سوف يصير تراثا مصريا يُغَنّي لكل الأطفال:

«واحد اتنين سرجي مرجي إنت حكيم ولّا تمرجي

أنا حكيم الصحية، العيّان أدي له حقنة، والمسكين أدي له لقمة

بِدّي أزورك يا نبي، ياللي بلادك بعيدة، فيها أحمد وحميدة

حميدة ولدت ولد، سميته عبد الصمد

حطيته على المشاية، خطفت رجله الحداية

حد يا حد يا «بوز» القرد، إنت ولد ولا بنت

أنا ولد زي القرد»..

قبل الظهر، فوق دولابه صنع شمعدانين ترقبا للاحتفال بطفلين يرجوهما. بقيت شهور لكنه نوى تزيين ما يصنع بتؤدة وتأنٍّ. سيضيف إليهما من ألوان زجاجية «جليزية»، وسيكتب على كل واحد اسمًا قرره منذ زمن: «محيي الدين» لابن عزيزة، و«عبد الصمد» لطفل حميدة. قال: «وإن جاءت أُنثى، فلا أقل من شكر الله تعالى، العلماء آباء بنات». بعث للجزّار فنحر خروفا، وفرّقه مدسوسا في أرغفة الخبز بين فقراء مقامي ساعي البحر وأبي السعود الجارحي.

بعد العصر جلس على شط النيل. تأمل كل رحلته وطول صبره

وحلاوة اصطباره. حدّق في صفحة النهر الذهبية، مثل سحابة شتاء بكى بفرط امتنان. سارحا كيف أن الخالق العظيم اختار لإنشائنا الماء، فلما تأمّلنا مشيئته فينا، أذن لعيوننا فتشققت ليخرج منها ماء، ماء حياة، وأسميناه دمعا.. تذكر كم بثّ شكواه إلى الله، وكم قال في نفسه: «ما بين بث يعقوب وصبر أيوب، جبالٌ من اليأس تذوب. ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.. ما أروع اقترابك يا يعقوب، وما أوسع صبرك يا أيوب».

انتفخت بطناهما وثقلتا، والمعلم عليهما يطوف ويطمئن، ويُلَبِّي إذا وحِمتا. أمور عزيزة مستقرة وترعاها أمها، وأما حميدة فورمت قدماها، أوصت الدايةُ بالراحة الدائمة ليستقر الحمل. استعان المعلم بخادمة ونسوة من الجيران، ولم تبخل أم عزيزة بالمرور على ضُرّة ابنتها بين الحين والآخر، حسب توصية الشيخ حسن الأعرج.

استخدم في الأيام الأخيرة ثلاثة من الصنايعية الماهرين بعد أن قَدم إليه تاجر فخار ليبي من «غريان» وطلب منه شحنة ضخمة مستمرة من أصناف لا يخلو منها بيت ليبي، وإن كانت جديدة على الفخرانية المصريين، أهمها «البورمة»، وهي إناء أقرب إلى زير ماء صغير بغطاء وقاعدة عريضة مختلفة عن قاعدة الزير المخروطية لطبخ اللحم، إناء أشبه بالطواجن المصرية، ومعها أزيار ماء غريبة يسمونها «بقالو جيدو». طلبية ضخمة نقلته لأول درجات الثراء والبحبوحة، فأنفق على الفقراء، ذبح وأولم، وبادر بنذره قبل أن يرى أول مولود له، فقام بنفسه بتجديد مئذنة مسجد ساعي البحر. ثم هدم بيت حميدة وأعاد بناءه محافظا على أُبهته العتيقة، هدمه كلّه إلا غرفة يحسبها مبروكة. هدم من أجل أن يبني، كذا الحياة تريد أن تتجدد دوما، وتُولدَ من جديد.. صار البيت كما يليق بالأعيان. رمم

حوائط الغرفة المبروكة وجلاها بالجص والنورة، وأبقاها كما هي للناظرين، وتحتها حفر نحوا من مترين عُمقا ومترين في مترين طولا وعرضا، وبنى لها سُلّما ثم سقّف السرداب الصغير بالخشب. هل قصد أن يجعله مكانا للخلوة؟ قال للبنائين: «سأجعلها مخزنا لجرار الجُبن والزيت، وبعض خامات ألوان الفخار». وأقام مقابلها فسقية ماء، بها نافورة صنعها بيده من الفخار المغطى بطبقة الجليز الأخضر الزجاجية. تمتم: «رب أوزعني أن أشكر نعمتك، وأؤدي أمانتك فيما منحتني من مال، وأعني يا خالقي على إتمام ما بدأت من كتابة».

إذا أتتك الدنيا فافتح لها ذراعيك على وُسعهما، واستنشق كل ما يحمله لك هواؤها، ووسِّع في صدرك بقدر ما تحتمل من الفرحة. لو أعطتك فخذْ قبل ألّا تأخذ، خُذها قبل أن تُؤخذ. لو فَتحَ لك بابَ طلبٍ؛ فاطلب وأجْمل واطمع، فالخزائن لا تنفد، واعلم أن الإجابة بمراده، وقد لا تكون وفق مرادك، وفي وقت إرادته، لا حسب تعجلك. والدنيا أتت المعلم على مهلٍ، وحينما جاءته اندفعت أنهارها، وفي الصباح جاء «عبد الصمد» يصرخ في وجه الدنيا، ومع المساء جاءه من بنت الأعرج الصابرة «محيي الدين». في يوم سابعهما ختنهما مستعيذًا من شر الأعين وما تخفيه النفوس. أولم بأربعة خراف كبيرة، هزّته الفرحة هزّا، فما قدر حتى استلم عصاه بيمينه ورفعها في وجه المشاعل، وطوى يُسراه لتحت إبطه الأيمن، ومال يمنة ويسرة، وضرب عصاه على الأرض ومشى على نقرات الطبل وقفز مع دقات الدفوف، قعد في رشاقة قِط، ونطّ كغزال ووثب كفهد قوي، والعصا فوق رأسه تطوح، تَلُفُّ فتدور معها الأعين مُعجبة متعجبة، فرحة وبعضها حاسدة. غنّى:

أصلي وأسلم علي النبي الزين مدحت النبي، العضم بطل صلاية..

قال النبي: يا بلال يا زين يا أبو بكر قِيم الصلاية..
ليت الوقت يتوقف عند ساعات رقصنا والغناء.

تتجدد خلايا فتموت أخرى أصيلة وتستمر الحياة، وموتنا كذلك. دبّت بالبيتين حياة وأتته الدنيا كأنها لم تمنحه ظهرها من قبل. نسي كل ما أصابه من غربة، فمع الولد لا غربة، مع النسل نبني الوطن، هل وطن بغير أبنائنا؟ في نِفاسها طالت حميدة وسخنت. في يومها الثاني بعد الولادة ابيض لسانها، عدِمتْ كل رغبة في الطعام، وهنت، بكت لآلام ظهرها. في اليوم الخامس أدركوا أنها سخونة النفاس التي لا نجاة منها. لم يبخل عليها بالرعاية، لم يترك في وسعه طريقا لإنقاذها. لاطفها، غسل قدميها وجبينها وقبّلها، غطّاها بعباءته وسوى خصلة شعرها المبتلة من العرق، حكى لها وغنّى. طلبت أن ترى ضُرّتها عزيزة وأمها. في الصباح جاءت المرأتان تُبشران بالعافية والصحة في حضور المعلم. أسرّت إلى الجميع وهي تُمسك يد عزيزة وأوصتها بـ«عبد الصمد».

قالت: «حميدة وحيدة غريبة، ليس لي من أحد، أنتم أهلي، أختي وأمي. عبد الصمد في عيونكم، ابني مع ابنك أمانة». بكت ثم تبسّمت، نشج المعلم: «النبي تبسم». ردّت عزيزة: «ولدك قبل ولدي وفي عيني يا ست الستات. ربنا يجبر بخاطرك وتقومين بإذن الله بالسلامة وتربي ضناك». كأنما أشرق وجه حميدة وتندّى الجبين، شهقت، فسكنت وسكتوا. أسبلت أم عزيزة عينيها، ومال فوق رءوسهم جبلُ صمت وغشيت رهبة.

غسّلتاها، وضعتا يدا على أختها فوق صدرها. على واحدة داسوا خفيفا بالأصابع، وأطالوا النظر لليد الأخرى كأنهم يبلغون سلامات

وخوفا للجهة الأخرى المقابلة للحياة. قبل أن يستوعب المعلم ما جرى، شعر برهبة لم يصادفها مرة في حياته ولياليه الطويلة، أحس لأول مرة بملك الموت واقترابه، شعر بأنه يشم رائحته ويرى آثار حضوره المهيب. كتب بعد ذلك ذلك في كراسته: «هل مرّ بنا وأحاط واختارها من بيننا. ورقتها ذبلت فوق شجرة الحياة، وأوراقنا على طريق الذبول. لا دائم غير وجهك يا حيي يا قيوم». لأول مرة في حياة عزيزة ترى سيدها يبكي كطفل، قال «مع السلامة يا حبيبتي..اللهم إني راضٍ عنها، فارض عنها. والله يا رب أنا راضٍ».

لم يكن يدرك أن حميدة غالية إلى هذا الحد، وطيبة وجميلة إلى أبعد حد إلا بعد أن واراها التراب، وقد تنبه إلى أن الغريب لا مقبرة له يواري فيها أحبابه. حميدة غريبة مثله، هو كل أهلها، لم تكمل مشوار فرحتها بوليدها الذي انتظرته، وما أرضعته.

بعد العزاء الكبير المزدحم بسرادق مقابل بيت حميدة بمصر عتيقة، حاول أصحابه مرافقته لبيت المعادي، رفض وأصر أن يكمل الليلة على فراش الراحلة على قدم المفاجأة. تقلب على جمر الفراش ودعا لها طويلا، ودارت كخيال الظل مواقفه معها وكلامهما وقسوته عليها وصبرها وجدالها. ندم على ما اعتبره تفريطا في حقها. ابتسم وهو يذكر طرافة لقائهما الأول والعمل الذي انفك بزواجهما. نوى حفر بئر وسط دواليب الفخار، ووقفها صدقةً جاريةً على روحها. ونشر مئة زير ماء على نواصي المحروسة.. نام، فرآها تشرب من نهرٍ جارٍ. وأما عزيزة فقدرها أن تربي الولدين، تصبرت بحنان، وتحنّنت بصبر، فتسلمت عبد الصمد بشهامة وأمانة، قدمته على ولدها، وثديها عطف عليه، لكنها ما نسيت غيرتها ممن صارت تحت التراب.

المعزة لأقرب الأحباب في قلوبنا مطمورة مكتومة مستورة غير

معلنة ولا هي محسوسة، فإذا انتقلوا عنّا وتخلى ظلهم عن مرافقتنا، نشعر ببئر في القلب عميقة تُنزح منها الآلام كل صباح، وفي كل ليل نشرب من كأس ذكريات موجعة.

تسلَّم دواته مغالبا الأحزان ونقل عن مولاه ابن عربي رؤية للموت، وصل من خلالها إلى أن الموت هو الحياة الحقيقية: «حياة الأرواح ذاتية لها لا يصح فيها موتٌ، ولما كانت الحياة في الأجسام بالعرض قام بها الموت والفناء. فإن حياة الجسم الظاهرة من آثار حياة الروح كنور الشمس الذي في الأرض من الشمس، فإذا مضت الشمس تبعها نورها وبقيت الأرض مظلمة. كذلك الروح إذا رحل عن الجسم إلى عالمه الذي جاء منه تبعته الحياة المنتشرة منه في الجسم الحي، وبقي الجسم في صورة الجماد في رأي العين، فيقال: مات فلان، وتقول الحقيقة: بل رجع إلى أصله ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

الله يرحمك يا ست حميدة، كنت أتمنى لو تُكملين معنا الحكاية. كانت ضحكة الحكايات وشمسها. لو استطعت وصف جمالها، لو ترك لي المهدي غزله فيها. هل خبأه بمكان آخر بعيدا عن مخطوطه. قدر الحكاية أن تختفي بسمتُها الثرية الجميلة. المهم، بعد آخر مرة جلست فيها مع زين بالمقهى وتكلمنا عن التسامح، شعرت بأنه بدأ في التعافي النفسي واسترداد بعض قوته البدنية. فاستمعتُ لبقية من حكايته، بعد قراره الانتقال من بيت المعادي لبيت الفرنساوي، عقب حديثه المؤلم مع عمته. وما قبل قراره الانتحارَ. حكى زين وترك لي التدوين بتصرف أنه:

هرع للماء، أصلِ الحياة ومُجددِها. قرر أن يعود لبيت حميدة،

جدته التي ما تهنّت بولدها عبد الصمد، تأهبّ لحمّام ساخن كقلبه، مع أن نوفمبر في جسده باردٌ ينهِشُ عِظامًا تخلى عنها أغلبُ لحمِها، يقرر حمّاما ساخنا والبرقُ يومض في ظلماء أفكاره بـ«سأكون».

عادة له لم ينسها، أغلق كل الشبابيك، وأدار المذياع على البي بي سي، رفع الصوت فالصمت يعصره، ويخنقه جاز الوابور وبخار الماء، عريانا وحيدا حزينا يتأمل حالَه: «هل هناك في سمائك بلايا أخرى توشك أن تنقضّ على زين عابدينك».. دقت ساعة بيج بن: «الرابعة بتوقيت جرينتش، هنا لندن، نشرة الأخبار يقرؤها علي أسعد: «عُقِدت بالعاصمة التونسية القمة العربية العادية، بحضور أغلب زعماء الدول المنضوية تحت لواء الجامعة العربية، إلا مصر التي تغيب عن ثاني قمة عربية منذ توقيعها على معاهدة كامب ديفيد قبل عام. وأكد المشاركون بالقمة على المُضِيِّ قُدُمًا في تطبيق المقاطعة المقررة على مصر وفقا للقمة السابقة. وبحسب مراسلنا في تُونس، فإن الزعماء أجمعوا على موقف الجامعة العربية الرافض لزيارة الرئيس المصري أنور السادات للقدس عام سبعة وسبعين، قبل توقيعه على معاهدة السلام مع إسرائيل..».

وهو يجفف ماءً يغسل الجلد ولا يمسح الأحزان، سرح في دلالات الأخبار، بيتُ العرب لفظَ مصر العروبة، وصل إلى أن بيتا واحدا لا يسعهما، هو في شقته وعمته وحبيبته بالجوار. البيت كاملا باسم عمته، وهو يملك بيتا أكبر أربع مرات بمصر القديمة إلى جوار ضريح سليمان باشا الفرنساوي. البيت في آخر زيارة كان متاهة، حوش كبير يلتف عليه دوران، تخترق فضاءه ثلاث نخلات مرتفعة. في كل دور سبع غرف تريد أن تنقض، ودورتا مياه، ولم يتبق غير الغرفة الغامضة، المنفردة المطلة على الفناء، وملحق بها حمّام ضيوف

صغير أشبه بميضأة. هل تصلح ملجأ لمن تخلت عنه الدنيا كلها؟ قرر زيارة بيت مصر القديمة عازما على العيش به حتى حين، وأخبر عمته بأنه ينوي الرحيل، معتذرا بأن أمامه أياما ليجهز الانتقال.

ـ إلى أين؟

ـ إلى البيت الكبير، بيت الفرنساوي.

ـ ليس به مكان يصلح أو يليق.

ـ هناك الغرفة المطلة على الحوش.

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ أنت تعرف.

ـ دعكِ من الحكايا التي ورثناها ولعلها سبب جنوني. يا عمتي، هل تؤثر غرفة الجنون في مجنون؟ الملعون لا تضره اللعنات.

ـ ابق هنا، كلها أيام وسترحل ابنتي مع زوجها إلى بيتها الجديد، ولن يكون هناك حرج. يا بني، سامحني.

عصفور مذبوح يتدحرج فوق زيت يغلي، ينزف ألما، وبالغيرة مكبوتة الفوران يلتهب. يقعده عجز، فلا لسانه ينطلق، ويُشله فراغ كون يُشعره بهول ضآلته، رأسه فارغ من المكان. مشحون بزمان فاجر رآه مرة مبتسما فحسده، وغدر به. بحاجة ماسّة لأي شيء، حتى لو صدمة جديدة تنسيه أكبر مصائب حياته.. هَجْرُ حبيبةٍ وغَدْرُ أهلٍ بتلك الطريقة المهينة. تبخرَ حواره وعمته، لم يبق من كلام بعد سيف كلمتها «لستَ الرجل الذي أتمناه لابنتي».. لا شيء يربطه بشيء، لا شيء يؤدي لشيء، مضت محطات شبابه. فمتى تأتي محطة أخيرة؟ كان طبيعيا ومنطقيا أن يتمنى الموت، بيد أن هدفا واحدا ظل يشاغله، أن يُثبت لمن رفضوه بأنه جديرٌ بالقبول.

يقول فيما يجول به من هذيان: «كيف أثبت لهم عكس ما يرون فيّ، كيف وأنا خريج أرقى جامعات دنيانا، مستشفى المجانين، وأنا بالجحيم. لا أريد أن أتحدث عن نفسي كثيرًا، لأن نفسي أنا لا أعرفها، ولو ألزمت نفسي الحديث عن نفسي، فسأدخل أو سيدخلني الحديث لتعريف النفس ومن ثَمّ تعريف الروح لدرب من التوهان. الواقع أنني غير مصدق لواقعي الذي صرت إليه.. مثقف لا موقف له، ولا عمل ولا حبيب. توشك مدخراته التي لا تتعدى مئات الجنيهات أن تنفد، ولا أدري من أين تتجدد، أو كيف سأعيش لو طال بي موقف في ثلج يذوب مع شمس الأسعار الملتهبة».

في بيت الفرنساوي قرر الاعتزال، والتأمل في غربة بوطن يضيق كقبر. حينما لا تأنس بوجوه صارت غريبة، فإن الأفضل أن تكون مع نفسك. أقسى غربة تلك التي تكون داخل الوطن.

ومما جاء بمخطوط «سماع المعلم لروح يتكلم»: قلت له: ما العمل مع لهيب الغربة، وشوق الموطن بعد فراق الأحباب؟

قال لي ابن عربي: «إضافة العبد مستندة إلى إضافة الحق، فأول غربة اغتربناها وجودا حسيا عن وطننا، غربتنا عن وطن القبضة عند الإشهاد بالربوبية لله علينا، ثم عمرنا بطون الأمهات، فكانت الأرحام وطننا، فاغتربنا عنها بالولادة، فكانت الدنيا وطننا واتخذنا فيها أوطانا، فاغتربنا عنها بحالة تسمى سفرا أو سياحة، إلى أن اغتربنا عنها بالكلية إلى موطن يسمى البرزخ، فعمرناه مدة الموت، فكان وطننا، ثم اغتربنا عنه بالبعث إلى أرض الساهرة، فمنا من جعلها وطنا أعني القيامة، ومنا من لم يجعله وطنا، فإنه ظرف زماني. والإنسان في تلك الأرض كالماشي في سفره بين المنزلتين، ويتخذ بعد ذلك

أحد الموطنين، إما الجنة وإما النار، فلا يخرج بعد ذلك ولا يغترب. وهذه هي آخر الأوطان التي ينزلها الإنسان، ليس بعدها وطن مع البقاء الأبدي».

ومضت أيام، يمكنني القول بأن زين العابدين قد تعافى تماما، لم أُرِد إجهاده وإشراكه في قراءة المخطوط ونسخه وإعادة تنسيق سطوره. فالحقيقة أن الجمل كانت متصلة لا فصلة بينها ولا نقطة ولا أي من علامات الترقيم، مما جعل النقل من المخطوط أمرا مُرهقًا. اتفقنا على أن نخرج للتمشية، وقلت له: ما رأيك لو قصدنا بعض الأماكن التي قرأنا عنها بالحكاية؟ رحب بالفكرة، واقترح أن نبدأ من أطلال مدينة الفسطاط القديمة خلف جامع عمرو بن العاص، حيث دولاب فخار المهدي ما زال قائما على حاله بالقرب منها، وأيضا لاستحضار روح المكان الذي اختلى فيه جده.

الرهبة والإحساس بغروب مدينة كاملة داخل القلب سيطر على شعوري منذ دخلنا خرائب الفسطاط، زاد الأمر هيبةً أرضٌ سوداء أقرب للسبخ، وحقول الهيش والبوص التي تتخلل أطلالا تريد أن تُغَنِّيَ مجدا كان. كيف تجرؤ «كان» أن تنسخ مبتدأ كان عظيما فتلاشى كبرق ضوء في عينٍ مغمضة. المياه الجوفية ملعب خصب للناموس والحشرات، لا حس ولا صوت في أرض شهدت وقائع غيّرت التاريخ عبر التاريخ. قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام أطلق عليها الفراعنة اسم «غري عا حا» أي ساحة الحرب. يومها انتهى الملك مينا من معركته الشهيرة، فوحّد القُطرين، الدلتا والصعيد في دولة واحدة. بعد ألف سنة سكنها البطالمة، بل إن كثيرًا من آثار البيوت الباقية بُنيت على أساس ما تبقى منهم. قبورهم باقية، البعض يحسبها

آبارا مُعطلة مردومة. لو دققنا النظر سنجد أنها أساسات أو جدارات بيضاوية ترتفع شواهدها نحوا من نصف متر. بعدهم سكنها الرومان حتى جاء عمرو بن العاص وأسس فيها عاصمته. لم تتعرض مدينة لحريق ضخم قضى على معظمها، مثلما حدث أثناء نزاع وزيري الدولة الفاطمية ضرغام وشاور، حتى أحرقها ذلك الأخير خوفا من وقوعها في أيدي الصليبيين، وقبل أن يستنجد بنور الدين محمود في الشام، جمع شاور عشرات الكلاب والقطط ودلق عليهم النفط وأشعل فيهم النار وأطلقهم للمدينة، ظلت النيران أربعين يوما.

هل رأيتُ اللهب؟ ضحكت وأنا أقول لزين: «يبدو أن لوثة جدك أو كشوفاته لحقتني». ولكأنّ رائحة المعلم المهدي في خلوته جلست بيننا، فتخيلنا أربعة جُدر ساكنة عميقة يجلس داخلها المهدي متسائلا عن سر الأفلاك، ومسبحا باسم خالق الكون. قضينا نحو ساعتين وفي طريقنا حاصرتُ زين بالعديد من الأسئلة، فكلما أشرق روحه، أراه يعود لخفوت مقلق. كلما ندم على ما اقترف من إلحاد في ساعة ضيق، عاوده ضيق. كلما تيقنَ شكّ، لا يستقر.

ألححتُ بأن تدوين سيرة المهدي وحكايته مع ابن عربي لا يمكن أن تشغلنا عن متابعة الحياة، والوقوف على الأخطاء لتداركها. قلت له: إن الدنيا واسعة وحساسيته المفرطة هي سبب كل المشاكل. اقترحت عليه أن يترك لي فك حروف المخطوط ومتابعة استخلاص سيرة المهدي، وأن يتابع هو بالكتابة عن سيرة حياته في السنتين الأخيرتين منذ بدء المشاكل. فأنا أعتقد، هكذا شرحت له، بأن المُضي قُدما يجب أن يؤسس على مراجعة دقيقة للماضي. سألني من أين أبدأ؟

ـ من أين تبدأ؟ سؤال صعب، لكنه يبقى مفتاح الحل. لكن قبل البداية، ألا تعتقد أنه يجب مراجعة الورقة التي كتبتها ساعة سخط قبل محاولتك الانتحار.

ـ لا تحسبني أنني تعافيت تماما، بل ربما العافية هي عين حالة سخطي وغضبي، أنت عرفت أغلب ما مرّ بي من محنة.
ـ لكن أيضًا يا زين، نحن هنا نقتفي خطوات المهدي الكبير، الرجل الصالح.
ـ أو الرجل المجنون.
ـ وإن يكن، فلا أقل من إثبات أنك ورثت حكمته، ورفضت جنونه.
ـ أنا فقط تساءلت: إن كان للحق وجود؟ ولو هو موجود فلماذا تركني؟
ـ لم يتركك. ألا تتأمل القدر الذي جمعنا، من أول يوم في المقهى أحببتك وأحببت أن نبقى صديقين، ثم وجدت لديك ضالة لم أكن أعرف أني أنتظرها، مخطوط المهدي.
ـ أنت لك عليَّ فضل.
ـ لا تقل ذلك، لكن بالفعل يا زين، لقد مررت بمحنة، وأنت اليوم تشق طريقك من جديد، معتبرا كل أخطاء الماضي.
ـ لم تكن مجرد محنة، سنوات من الاعتقال والظلم والكهرباء بمستشفى المجانين.
ـ ليست سطوة الظلم دليلا على غياب الحق، الحق يتركنا، كما قرأت معي في المخطوط، لندفع بعضنا بعضا، ولينظر كيف نعمل. الكون يهتف كل صباح ومساء ليهتدي حائرون ويفيق كسالى.
ـ تتكلم كجدي.
ـ أنا فعلا استفدت من المخطوط، وأنت أولى مني بذلك.
ـ ولو تعلمت، فما الفائدة؟ ألا ترى الحكومات الغبية، والبرلمانات

الجاهلة، والشعوب التي لا تعرف من الدين غير التنبلة وتقصير الثياب وشتم ابن عربي وأمثاله.

ـ ما علاقة ذلك بذاك؟

ـ أشعر يا صديقي، أنني جئت في غير زمني، أو أنني لم آتِ بعد، ما زلت تائها، خائفا، شاكًّا، حتى سخطي ما عاد يُجدي.

ـ العمل الصعب هو تعليم الناس، تغييرهم، أما الحكومات والبرلمانات وشيوخ الكاسيت، فسوف يتغيرون تلقائيا حينما ترتفع الغشاوة من أعين الناس، حينما يفهمون. بالحب نبني.

ـ وبالكره يهدمون أكثر مما يمكننا أن نبني. هؤلاء يشقون أسماع الناس كسهام نار.

ـ لكنّ كثيرًا منهم أو بعضهم يفيدون الناس، ويقاومون الظلم.

ـ نحن في زمن الحناجر. هل تعلم؟

ـ ماذا؟

ـ أحيانا، أتأمل أطنان شرائط الكاسيت، ومئات الخطب والدروس، التي صدعنا بها شيوخ الجهل الجديد، ودبج فيها القساة أحاديث الرقاق، وصنف فيها عُبّاد الهوى أصول الاعتقاد، ورتب فيها ناقصو الأهلية قواعد الفقه.. أتأمل كل هذا، فأجد أن خطبة واحدة لم يقولوها، كانت أولى وأكثر نفعا لبلادي، خطبة فيها: يا عباد الله، لا تلوثوا النهر، لا تجرفوا الأرض السوداء، لا تعطلوا الطريق، لا تغتالوا الرصيف، لا تهاجروا حقل القمح من أجل قارورة نفط.. يا عباد الله، الأخلاق والأخلاق ثم الأخلاق.

ـ صدقت، ليتهم فعلوا.

ـ أو ليتهم غابوا بلحاهم المزيفة.. ألا ليت اللحى كانت حشيشا، فنعلفها خيول المسلمين.. كما قال الشاعر.

ـ أنا معك، إن أغلب أوزار مجتمعاتنا يحملها شيوخ أو متدينون كرّهونا في الدين بسوء أخطائهم، وبخطاب كراهية لا يحسنون غيره.

ـ ربما المشكلة في الدين أساسا، وليست في المتدينين. اصبر عليّ وقل لي..

ـ كلي صبر.

ـ حينما كتبتُ متسائلا إنْ كان للكون إله، كنت أتعجب، كيف تُرضيه حالتي؟ لماذا كل تلك المصائب والآلام والمآسي والكوارث التي مرت بي وبغيري؟ كيف يرى هذا الانفتاح البغيض الذي جعل الجهلة أغنياء، والمثقفين شحاذين، والعدو صديقا، والصديق عدوا؟

ـ هذه الرؤية، أنا أعلم أنها من واقع تجربتك النفسية، لا عن قناعة. هل لو كنت تزوجت ابنة عمتك، ولم تدخل في تجربتك الأليمة، ألا تعتقد أن رأيك لم يكن كما تتكلم الآن. طيب، تخيل لو أنك عملت في وظيفة قريبة من السادات واستفدت منه، هل كنت تنتقده كما تفعل الآن؟

ـ ربما يكون معك بعض الحق.

ـ ألم تقرأ لجدِّك، وهو يقول: إن حياتنا مجرد معبر مؤقت، خيال، الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا. وفي خيالنا تأتينا البلايا، فنغالبها وتغالبنا، ونبقى واثقين بأنها مجرد صورة في مرآة.

ـ لقد تعبت.

ـ ما قيمة الراحة لولا التعب. الشدة أم الفرج، والنجاح ابن شرعي لشرابٍ مُرٍّ اسمه الصبر، ما قيمة ما أنت فيه وعليه من جمال روح وتسامح لولا ساعات السخط والألم.

ـ لشدّ ما تؤلمني نظرتي السوداء.
ـ وإن يكن، فلا تجعل نظرة واحدة عابرة تحكم كل حياتك، البقعة المظلمة في اللوحة المشرقة تبين لنا روعة اللوحة. لكن لو ظلت أعيننا ثابتة فقط على البقعة المظلمة، فسنفقد كل جمال.
ـ فساد الأرض جعلني أتهم السماء. أنت تعلم أنني أحاول الخروج، وبفضلك قد مضيتُ بضع خطوات. قل لي من أين أبدأ؟
ـ بل معك أبدأ، أنا وأنت نبدأ من حيث نجد القلم يبدأ. أنت لا عليك سوى الجلوس إلى المكتب في غرفة الشيخ، والحمد لله فقد أصلحناها تماما، وتراجع كل ما مر بك، بهدف المضي قدما.
ـ هل أبدأ من أحلامي؟ أم من هواجسي؟ أم من اليوم؟
ـ الخيار لك، أو هو بالأحرى لقلمك. وأنت بالفعل قد بدأت، لقد حدثتني عن رحلة الحب في المعادي بالمدرسة، ثم رحلة الاتهام بالجنون وما تبعها من هجرك إلى بيت الفرنساوي.
ـ وماذا عن المرارات والفشل؟
ـ تجاربنا الفاشلة، عثراتنا، العراقيل التي كمنت لنا بطريق مُجعّد بالكوارث، كل الأحزان يمكننا وضعها في سيرتنا الذاتية، واعتبارها تجارب استفدنا منها. يمكننا القول: إننا قد تعلمنا من الفشل، تعلمنا ألا نُخطئ مرتين، ألا نسمح لنفس الفشل باختراقنا مرة أخرى.
ـ الكلام سهل، والواقع صعب. ما زلتُ حزينا يائسا، وهشًّا.
ـ لأنك عرفت الحزن مطلقا، وعاشرت اليأس مثل قيدٍ لا ينفك، فأنت لذلك أقدر على الشعور بسعادة فائقة حينما تقرر السير نحوها.

ـ ومن أين أضمن ألا تصدمني الحياة مرة أخرى؟
ـ لن تنعم بهذه الحياة، ما لم تواجهها كحزمة من الصدمات. وقتها تتناثر الحزمة، وتحلو حياة ظنناها لا تحلو.
ـ كم أتمنى لو قبلت نصيحتك، لا أملك قوة لتحقيق شيء.
ـ بل أنت بحاجة لكثير قوة لكي تقرر ما هو ذلك الشيء. اكتب يا زين، ودعِ الأوراق تنفتح على إشراق روحك كزهرة رائعة.

بالفعل، بعد يومين سلمني زين ورقات بديعة، شعرت أنه يكتبني أو يكتب جيلا بأكمله، تشابهت ظروف الأحداث واختلفت الطرائق. جاء فيها تحت عنوان:

عامي المجنون

«أُغلق عليّ بابي، ما وسعني بيتٌ مسكونٌ بمكتوم ما كان، أغرقُ في أماني كاذبات بأن ما كان لم يكن. لا أتابع غير الإذاعة. بعد شهرين تجرأت فجربتُ الخروج مرات على استحياء وجلست على مقاهٍ ساهرة. تجرأت أكثر فزرت الجامعة. تذكرت نظرة عمتي فتقدمت للماجستير. قلت: شيء يشغلني وأشعر بأن عقلي ما زال يعمل. والصدق، أن عقلي لم يتوقف نائما ويقظانا. والجديد هو التزامي ببعض أوراد جدي، وهياجي واشتياقي الشديد للنساء، فعرق الجسد يُسكِّنُ قروح الأحزان.

ها أنا ذا أتفلسف مع أني جربت أن التجريب هو عين الغرق في وهم الواقع. والواقع أنه كان عام نشرات الأخبار غير الواقعية بامتياز، عاما مجنونا، عام مارجريت تاتشر أول امرأة نالت لقب رئيس الحكومة البريطانية ومبعوثة العناية الرأسمالية ومروجة مفاتيح السوق المفتوحة. عاما التهبت فيه الحرب بين تطرف الإلحاد الروسي وتدين الأفغان ومن وصل إليهم من شباب عربي ضاقت به بلاده فنبذها،

وخارجها اشترى القتال. بل يمكن أن أسميه عام زعيم الصين الأكبر دينج شياوبينج وقراراته الإصلاحية الجذرية الطامحة لأن تكون بلادُه التنينَ القادمَ بصخب وتكاثر بنسخة اشتراكية مغايرة. أو هو عام البابا يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان، أول بابا غير إيطالي يعتلي سُدّةَ الهرم البابوي منذ أربعة قرون، وأول بابا يتحدى الشيوعية بوضوح وجرأة فيزور بولندا بلده الرازح تحت النفوذ السوفيتي، فيما بدا أنه أول خنجر في جنب ماركس وكتلته الشرقية. ذهب البابا إلى بلده الأصل وألقى عشرات الخُطب والمواعظ. تحدى بشكل صريح الآيديولوجية الماركسية. لمست كلماته قلوب ملايين احتشدوا لسماع ما يريدون سماعه. والمضحك أنه أيضًا عام الثورة الإسلامية الإيرانية المفجرة لزلازل التغيير فيما حولها، بدءا بمشهد عودة الخميني لإيران، وتنفيذ عمليات الإعدام المصورة في حق رموز من نظام الشاه. الشيعة دخلوا ولاية الفقيه، والسُّنة خرجوا بحقبة تكفير بدءوها قبل سنوات، وصلت من العنف حد جنون خريف ذاك العام الذي وافق تمام انتهاء أربعة عشر قرنا على ظهور الإسلام، حين فُجع ملايين المسلمين بمشاهد احتلال الحرم المكي المقدس بقيادة عسكري سعودي متقاعد يُدعى «جهيمان العتيبي»، بعد أن قدّم صهره «محمّد عبد الله القحطاني» إلى جماعة المؤمنين بوصفه المهديّ المنتظر الذي يأتي في نهاية الزّمان ليملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت جورا وظلما، وسُوقا مفتوحة، وتشيعا وشيوعية، ومهادنة لليهود. قبل ذلك وقّع السادات وثيقةَ ما بدأه قبل عامين.. هل لي أن أُعنونه بعام: «سوق مفتوحة وتسييس الدين، وتسعة وتسعون بالمائة من خيوط اللعبة في يد الشيطان الأكبر أو الحليف الأوحد أمريكا»؟ أو «عامي أنا» أو «عامي المجنون» أو ربما النسبة الأصوب «عام المجنون الذي هو أنا»؟ عموما الأيام

هي من يضع العناوين غدا. الأهم عندي هو كونه عامَ كامب ديفيد، والنوم في فراش واحد مع القاتلين. هو زمنٌ مجنون، الدنيا مشتعلة، والمجانين في مجلس الشعب لا همّ لهم غير مصادرة أحد الكتابات الصوفية والفلسفية، بل أهمها على الإطلاق.. قرر رئيس مجلس الشعب منع إصدار «الفتوحات المكية».

علاقتي مع ابن عربي عائلية، فهو شخصية مقدسة في تاريخ الأجداد منذ المهدي الكبير، وأيضا عرفت عنه عناوين عامة في سنوات قسم الفلسفة الأربع، ولم ينطبع برأسي عنه غير كلمات منسوبة للشاعر الألماني جوته: «إذا كان هذا الشيخ محيي الدين بن عربي قد عاش بيننا على الأرض يومًا من الأيام، وكان بهذا العقل والحكمة والرؤية، فإنني أعترف بأن كل من لن يُصب فطرة الإسلام على يديه فإنه قد خسر كثيرًا، ولكان ابن عربي أحق بأن يكون بوابة الإسلام الموشّاة بسجوف الحكمة والحب». الغريب أن ذلك العام، كما شرحت، هو عام «خناقة مجلس الشعب وابن عربي». ومن الأساس تساءلت: ما دور مجلس الشعب؟ ثم من هم أعضاء مجلس الشعب حتى يحكموا على كتاب ما بأنه يُهدد الدين؟ الدين أصيل وهم مزيفون، العقل نور والجهالة ظلام. ونحن سائرون بعيون معصوبة إلى نسيان قضايانا الأساسية، والانشغال بقضايا يُراد لنا أن ننشغل بها. مسيرون ولسنا أصحاب قرار اختيار، وبأيدينا لا بيد الانفتاح اللعين. لو هم يغارون على الدين فكيف يرضون، بحسب أدبياتهم ومصطلحاتهم، بالصلح المُهين مع الصهيونية واختصار معارك الأمة في شخص رحل عن دنيانا من أكثر من سبعة قرون.. هل قرءوه؟ أنا نفسي ما قرأته، وإن كنت ألممت بأهم ما قيل عنه. صرخ أحدهم بإحراق ما هو مطبوع من كُتب ابن عربي، وكل نسخ «ألف ليلة وليلة».

زمن يتشكل فيه عالم جديد، اتحاد سوفيتي جديد وصين غير الصين، وتجارة عالمية ستحكم العالم كما أعلنوها، وأميركا وحدها ستكون صنمنا المقدس، والفُرس يخلطون النار بالدين، والفاتيكان يواجه إلحاد ماركس، ونحن نُدمن التكفير ونكره التفكير ونقاتل شبحا في كتاب. أوليس الإسلام دين العقل كما يرددون؟ فلماذا يواجه العقل بالقتل والإقصاء والحرق والمصادرة؟ الفتوحات المكية ستة وثلاثون أو سبعة وثلاثون جزءا، فهل كلهم قرأها كلها؟ وهل ملايين الناخبين الذين زعموا لنا أنهم انتخبوا مئات الأعضاء في المجلس، انتخبوهم لقتال ابن عربي؟ عين العماء حربك مع الوراء. ألم يرفض من هم أقرب عهدا بالدين قبل أربعة عشر قرنا تدوين المصحف وجمعه في عهد الخليفة عثمان.. ماذا لو كان لهم ما أرادوا؟

لا أدري لماذا شغلني الموضوع كل هذا الشغل. هل لمعيشتي بغرفة قد يكون سكنها ابن عربي نفسه أو أحد مريديه؟ أم أن الأمر أبعد من ذلك؟ سأحاول أن أوضح في نقطتين: الأولى، عندي اتجاه في التفكير من واقع تصادمي السابق ولأكثر من مرة في الجامعة بزملاء من أعضاء أسرة الجماعة الإسلامية التي رعاها الرئيس المؤمن. فتصرفات كثير منهم وشكل تدينهم كان يصيبني أحيانا بالقرف. كانوا يقدمون لي وللجميع دينا جديدا، إن لم نوافقهم عليه كليا، فنأكل كما يأكلون ونلبس كما يلبسون ونمنع الحفلات كما يمنعون ونتكلم بذات العبارات الغريبة على شدق مصري. إن لم نفعل، فقد يطولنا منهم اتهام بتكفير أو على الأقل نظرة احتقار وعلو، وربما أذى بدني.. هل المتدين شخص اصطفاه الله، وأعلمه بذلك الاصطفاء، فصار جديرا باحتقار من لم تبلغهم حظوظ الاصطفاء؟ هل حدثتهم أنفسهم بأنه مع الدين لا

حاجة لأخلاق؟ قلت لنفسي: إن شخصا يخافه هؤلاء ويعتبرونه تهديدا مباشرا لطريقهم، هو شخص جدير بالمتابعة والنظر. أنا أخالفهم وهم يخالفون ابن عربي. قد تكون مخالفتي لهم بسبب قلة التزامي الديني وأنا معترف بذلك. لكن أيضًا، ما عرفته عن الدين منذ طفولتي لا يقابل هذه الصور التي رأيتها في الجامعة وسمعتها في مجلس الشعب. فمن يكون ابن عربي؟ وما الخطر الذي يمثله على هؤلاء؟ وإن كان يمثل خطرا على الدين، فهل أولئك الجهلة هم المتحدثون الجديرون باسم الدين؟ من الأساس، هل للإسلام متحدث رسمي؟

النقطة الثانية، أن ابن عربي تحديدا، برق اسمه أمامي في مناسبات مختلفة ومجالس مغايرة دهمت ذاكرتي وجرت وقائعها قبل مروري بأزمة الحبس والانعزال. مرة كفره جامعي دارعمي اختلفت معه في إعراب بيت شعر، ولم أساير الجدال بما أن بلدنا بلد شهادات على رأي الممثل الهزلي، وأنا أدرس الفلسفة ومُجادلي درس اللغة بحذافيرها، كما يصلب شفيته وهو يمد الياء من «حذافير». وكان حديثنا عن الشعر، فبرقت فتاة جميلة، فأنشدت: أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه، فغضب. لم يغضب بسبب متابعتي للبنت الجميلة فقد تابعها معي، لكن بسبب أن شطر البيت هو لابن عربي. فأعطاني محاضرة صحراوية في تكفيره. ولأن الجدال شجرة بلخ متشابكة الفروع، فقد حدثني زميلي عن ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، وعقيدة الفرقة الناجية، ودخل في أمور ليست من اختصاصه، فهي من مادة الفلسفات الخالصة، من التفريق بين التمثيل والتجسيم في ذات الله تعالى. وليلتها نمت بعد وجبة عشاء حريفة، تنبهت لها في نومي بعد أن اجتاحني عطش، ففتحت عيني وإذا كلب أسود باسط ذراعيه بسريري ينظر إليَّ، لم أكن نائما، ولم أكن كذلك مستيقظا بمنتهى التنبه. فخفت وجريت

خارج الغرفة، وفكرت ألا أعود إلى السرير. وما عدت إلا بعد ارتفاع صوت المؤذن بالفجر. توضأت وصليت وعاودت النوم بعد تردد. وفي النوم رأيت أستاذي محقق الفتوحات «عثمان يحيى» مهموما بيده ملف أوراق، مكتوب عليه «الفتوحات ـ الجزء الأول» وهو يهش بالملف طاردا نفس الكلب الذي رأيت من ساعة. لماذا عثمان يحيى؟ أو بالأحرى لماذا ابن عربي والفتوحات؟ على مدى يومين تاليين ذرعت مكتبات القاهرة حتى اشتريت ما كان بيد زائر منامي.. كلمات غامضة، ولغة إشارات، لا مجرد جُمَل وعبارات. سأكذب لو قلت إني فهمت الكثير. بل الحق أن كثير الكثير لم أفهمه. فمثلا، قل لي: كيف أفهم أو تفهم قوله «أنزل الأرواح في الأشباح أمناء، وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلفاء». هل قصد أني وهو وأنت وكل الناس مجرد أشباح؟ وأن أرواحنا أمناء في تلك الأشباح، وبالتالي صارت الأشباح التي هي نحن خلفاء في الأرض. فهل أنا خليفة لله علي أرضه؟ ومن يكون الكلب الذي توسد سريري؟ تقول كتب تأويل الأحلام إنه عدو يتربص، لكني ما كنت نائما؟

عشت مع الكتاب أياما، أرهقتني لغته الرمزية المعقدة، ولا لشيء شعرت بأن بيننا تشابها، ربما بسبب محيط بيتي المتصوف والحضرات التي أُشربت فيها صغيرا قصائدَ الصوفية، أو لأني كنت أشعر في تلك الأيام بغربة شديدة داخل الوطن. كم تمنيت الموت! تمنيته لشعوري بالاغتراب بعد قصة حب فاشلة وعصر انفتاحٍ حالَ دون حبيبتي، ثم بسبب تغير مصر المرعب المهول. وانكبابيٍ على بيوت هوى علمتني الرقة من حيث يجب أن توحلني في الرذيلة. ولأنني قررت أن أرفع برقع الحياء الزائف وأن أواجه نفسي بصراحة فيما تفكر فيه، لعلِّي أخرج من حالتي الكئيبة فسأحكي بأني:

«مرة دفعت لإحداهن عشرة جنيهات كاملة، ورقة واحدة، مع أن الاتفاق كان خمسة فقط، فقط لأنها حكت لي، وبدت صادقة، أن طفلها مريض وهي تملك حق الدواء، ولا مشكلة في ذلك. لكن طفلها مشتاق لـ«تفاح أمريكاني». أرملة وأم لطفلين، وكل فلوسها حرام، كذا يقول شرع عاداتنا، والجنيهات العشرة اشترت بهما تفاحا من فكهاني. تخيلتُ أن الفكهاني سيدفعها في دروس ولده الخصوصية، وأن المدرس ينتظر نفس الجنيهات العشرة ويضعها إلى أخواتها، حتى يتمكن من سداد خلو شقة ليكمل نصف دينه، وأن المقاول ينتظر كل تلك الجنيهات ليدفع للعمال أجرهم، وأجر كل عامل ناتج من عرقٍ لا شك في أنه حلال ومستحق، وأحد العمال سوف يشترى بجنيهات عشرة، لعلها ذات الورقة التي دفعتها، سيشتري بها حشيشا يُعينه على قضاء حق بيته في ليلة الجمعة، وستصحو امرأته منتشية سعيدة. ويرضى الجميع بالحلال والحرام، وتدور دائرة الفلوس، الحرام يصير حلالا، والحلال حراما. عرق المومس يختلط بعرق العامل والمدرس والفكهاني والمقاول ومائي الذي جرى في حِجر البغِي.. لماذا لو أن الحرام حرام، خلقه الله وتركه؟ ولماذا لو أن الحلال حلال، صعّبه الله تعالى وتركه يختلط ويدور في الدائرة السابقة؟

في نفس الليلة فتحت الفتوحات، رأيت ابن عربي أو تخيلته جالسا يكتب: «كما أنه تعالى لم يأمر بالفحشاء، كذلك لا يُريدُها، لكنْ قَضَاها، وقدرها بيان كونه لا يريدها لأن كونها فاحشة، ليس عينها. بل هو حكم الله فيها، وحكم الله في الأشياء غير مخلوق، وما لم يجر عليه الخلق لا يكون مرادا، فإن ألزمناه في الطاعة التزمناه، وقلنا: الإرادة للطاعة ثبتت سمعا لا عقلا، فأثبتوها في الفحشاء، ونحن

قبلناها إيمانا، كما قبلنا وزن الأعمال وصورها، مع كونها أعراضا فلا يقدح ذلك فيما ذهبنا إليه، لما اقتضاه الدليل».

لم أفهم كثيرًا مما سبق من عِبارات ملغزة. لكن شعرت بالتشابه بين ما أفكر فيه من قدر الله تعالى بوجود الحرام، وبين حديث ابن عربي عن قضاء الله تعالى بوجود الفاحشة. الإشارة باسم ابن عربي جاءت كما قلت فيما مواقف مختلفة، ومع أشخاص مختلفين. عابرة أحيانا، وموضوعا للحديث مرات قليلة. لكن أكثر الأحاديث إثارة التى رواها جدي يرحمه الله من خمسة عشر عاما، وتذكرتها، رغم أن الحديث وقتها لم يكن على قد سني كطفل. كان جدي مفتخرا بالحديث الدائم عن بيت أجداده على كورنيش نيل مصر القديمة، وأن هذا البيت الأثري تفوح من إحدى حجراته رائحة زكية، بل في إحدى الليالي شاهد الناس دخان بخور طيب يتصاعد من تلك الحجرة، وفتشوا حينها ولم يصلوا لشيء، وأن الذكريات المتراكمة تقول: بأن شيخا جليلا مهيبا جاء من بلاد المغاربة، وعاش في الحجرة بضعة أسابيع، ثم مضى بعد أن ثارت بسببه مشاكل كثيرة مع شيوخ مصر وقتها. الحجرة أقدم من البيت، أو بالأحرى تم بناؤها على أنقاض الحجرة الأصلية، ثم بُني البيت الكبير حولها، تُفضي إلى حوش البيت مباشرة، ولا ترتبط بأي من حجراته الأخرى. «هل كان الشيخ هو الإمام الأكبر والكبريت الأحمر محيي الدين بن عربي؟».. سؤال كرره جدي كثيرًا دون أن يجد له إجابة شافية، ربما تكراره للسؤال هو إقرار بإجابة يتمنى الجزم بها. كبر جدي، صار ينسى أكثر مما يذكر، وقبيل وفاته كان كل كلامه يكاد ينحصر في السؤال السابق وقراءة الفاتحة لروح ابن عربي وروح المهدي الكبير، أحيانا كان يقرأ مائة فاتحة متتابعة، ثم يذكر الله تعالى بتسابيح بيضاء نسمعها فلا نظن أنها

مجرد كلام طيب، بل هي نُدُف من سحاب يحمل خيرا. وقبيل النوم، ينشغل كالموله في الصلاة على النبي ﷺ. صلوات يزجيها أن يرضى بها الله تعالى عنه وأن يتقبلها. قال: إنه رآه مرتين. شرح لي أنه بقدر طهارتك وإخلاص ذِكرك، تزورك أرواح الأحباب.

مرة قال لي جارٌ أغضبته وأنا صغير: «يا بن المجانين، جدك مجنون». هل ورثتُ جنونه؟ ورثت عنه رؤاه. لكنها بقيت رؤى غير واضحة، بشر يتكلمون، وكائنات نورانية تلتهمها وحوش، وفي بعض المرات كنت أرى لأصحابي أشياء، فنصبح وهي حقيقة واقعة».

قرأت كلمات زين العابدين السابقة. غبطته على رؤيته الصافية للأشياء، أو هكذا اعتبرتها لما قارنت بين حاله وحال الناس الذين اتهموه بالجنون. ورحت أقلب في مخطوط أو كراريس المهدي، وقد تكشفت الخطوط الدقيقة المتداخلة والمنمقة. فشعرت بأنني أمام فخراني حقيقي يصنع بيديه تجربة بشرية غريبة.

في الصباح زرت مع زين دولاب فخار جده المؤجر لبعض الفقراء العاملين في المهنة الطاهرة. كان لا بد من الزيارة حتى يمتزج الخيال بالواقع.. دروب ضيقة ملتفة على جانبيها أفران كبيرة ودواليب صغيرة. أكبرها دولاب المهدي، فوق بابه أسدان من فخار. صبية ينخلون رمادا، ورجل عارٍ تماما يقلب برجليه في حوض ماء دائري يغوص فيه بنصف جسده، ثم ينزح الماء المخلوط بالطين الذائب لحوض مستطيل غير عميق عبر غربال كبير. شرح لي زين، أن تلك هي طريقة مزج الطين وإزالة العوائق من حصى وقش، قبل أن يُترك السائل الطيني بالأحواض المستطيلة حتى يجف تماما، ثم ينقلونه لبيت الطين.

دخلنا دولاب المهدي، وقفنا أمام الحجر الدائر. فخراني يؤسس

قصرية زرع، فتتشكل في ذهني الحكاية. تدور عجلة الدولاب فتتماوج تفاصيل لم أكن أملك أغلبها. يرتفع الطين، فترتفع آهات محبين ومجاذيب. نسّم الفخراني بأصابعه ماءً ليُلَيِّنَ لفّات الطين، أطاعته، فجرت دماء في عروق أبطال الحكاية. أدهشتني انسيابية الأصابع وتناغمُها مع قدمين تتبادلان لف الطبلية الخشبية. زيارتي اختلطت بالحكاية، عُدنا فنقلت مما جاء بمخطوط سماع المعلم لروح يتكلم، منسوبا لابن عربي، مستأنفا رحلته من الأندلس باتجاه مكة الشريفة:

«أتى الأجداد من المشرق، وإليه لا بد من عودة. حياتنا دائرة، نهاية تُفضي لبداية. هل للدائرة بداية أو نهاية؟ ندور ثم نعود لذات المكان. من المغرب انطلقنا بعد رحلات دسمة بالمعرفة، خفيفة بالترقي إلى انكشافات لم يكن لي فيها فعل ولا أمرُ. سبحانه يُهيئ من يشاء لما يشاء بما يشاء. وجهتنا المحروسة، وريح عطنة أكاد أشمها. بعدها جاءت الأخبار مرتجفة صفراء: بأن بمصر القاهرة مجاعةً ووباءً. نقص النهر وتعطلت مجاريه، عطشت أرض سوداء وتشققت ويبس الزرع. ساءني أن أدخل بلادا ملأت الخيال بحكايا على مثل تلك الحالة الراهنة. بمصر تجبر فرعون وطغى، استخف قومه فأطاعوه. وقال: ابنوا لي صرحا عاليا على الطين، فأعاين إله موسى وأتكلم إليه وأباريه؛ فأخذه الله وجنوده. مع أن الرضيع المرسل إليه كان قرة عين له ولامرأته.. سأقول لك أمرا، وأرجو أن تصبر على فهمه، فهو عسير، ولو كنت قلته في حينه لنعتوني دون تردد بالجنون، ناهيك عن التبديع والتفسيق وهدر الدم. وقد كنت أتساءل مثلك: كيف يرضى الله تعالى بالظلم؟ بل كيف يسكت عن قتل أنفس بريئة وانتهاك أعراض طاهرة؟ حتى قيل لي بوضوح عن حكمة قتل الأبناء. فقد

ترك الرب لفرعون التمادي في البطش، فقتل الأبناء في عام ولادة موسى، ذبح كلّ من طالته يده من أطفال رُضّع. وما كان ذا إلا من أجل موسى لحكمة لا يعلمها إلا قليل، من أجل موسى الرضيع والنبي بعد ذلك. لقد قتل فرعون وجنودُه كلّ طفل على مظنة أنه موسى الرضيع الذي سيكون حتفُه على يده. فصارت لموسى حياةُ كلِّ طفلٍ قتيل. وهي حيواتٌ طاهرة على الفطرة، لم تدنسها الأغراض النفسية ولا الأماني الشهوانية. فكان موسى مجموعَ حياة من قُتل على أنه هو. وهذا اختصاص إلهي بموسى لم يكن لأحد من قبله. وإني قد شُوفهت مشافهةً في ذلك. فما أبصرتْ عينا موسى الحياةَ، إلا كانت حياتُه مجموعَ أرواحٍ كثيرة فاعلةٍ. فصارت له قوةُ مقامِ حياة الأطفال المقتولين مجموعةً، وهي الطاهرة، فالصغيرُ حديثُ عهدٍ بربه، لأنه حديث التكوين. وأما حكمة إلقائه في التابوت ورميه في اليمِّ، فالتابوت ناسوته، واليَمُّ ما حصل له من العلم بواسطة هذا الجسم. فكانت صورة إلقائه بالتابوت وإلقاء التابوت في اليم صورة هلاك. وفي الباطن كانت نجاة له من القتل. فحيي كما تحيا النفوس بالعلم من موت الجهل. ولما وجده آل فرعون في اليمِّ عند الشجرة سماه فرعون مُوسى، و«المو» هو الماء بالقبطية و«السَّا» هو الشجرة، فسماه بما وجده عنده. فإن التابوت وقف عند الشجرة في اليم. فأراد قتله فقالت امرأته، وكانت مُنْطَقَةً بالنطق الإلهي، فيما قالت لفرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾. فبه قرَّت عينُها بالكمال الذي حصل لها، وكان قرةَ عينٍ لفرعونَ بالإيمانِ الذي أعطاه اللهُ عند الغرق.

هل فرعونُ مخلدٌ في النار؟ النار، فاعلم هي ملك لله تعالى لم يشركه أحدا من خلقه، فلا يقين بخلود ولا علم بخروج، إلا مما علمنا ربنا سبحانه، فلا نتقول عليه ولا نتألى، ولا نتكلم باسمه سبحانه.

لكني قد علمت أن فرعون لما قبضه الله تعالى، قبضه طاهرًا مطهرًا ليس فيه شيء من الخبث، لأنه قبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئًا من الآثام. والإسلام يَجُبُ ما قبله. وجعله آية على عنايته سبحانه بمن شاء حتى لا ييأس أحد من رحمة اللَّه ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. فلو كان فرعون ممن يئس، ما بادر إلى الايمان.

دخلنا مصر ولا حديث للناس غير رعدة الجوع، سمعنا أن الناس أكلوا الجيفة، وأكل الشطار المجرمون الأطفال، وكمنوا في الطرقات لاصطياد الفرائس البشرية. ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضًا. وأعجب من ذلك هو التفكير في سبب ذلك، فهل الجوع السبب؟ فلماذا حكى لنا الناس إذن أن بعضا ممن أكل لحوم الناس كانوا من أثرياء الناس ومن لديهم فضل مال ومخزون من الغلال والأقماح والطعام في قصورهم، لقد فعل تلك الفعلة اللعينة المحتاجون وغير المحتاجين، المياسير والمساتير. فمنهم من أكل احتياجا، ومنهم من أقر واعترف بأنه استطاب ذلك. استطاب الناس أكل لحوم الناس، وقالوا إنه لذيذ والعياذ بالله. يا أله؛ يأكل الناس بعضهم بعضا في بلدٍ أنهارُه آياتٌ في القرآن الكريم، بلد قائم على نهر عظيم. بغير النهر لا حياة، لو نقص مست الناسَ شدةٌ لا تزول بغير فيضان.. صحراء شاسعة، لا تختلف كثيرًا عما مررنا به في طريقنا منذ مغادرة تونس، سرنا والبحر، وما إن قيل لنا: إننا بمصر، حتى خاف الراكبون وارتجف السائرون، فقد بلغتنا الأخبار، وحذرنا بعض من قابلنا من لصوص الطريق والأوبئة التي فشت وسرَتْ. فسِرنا متوكلين على من أنبتنا في الأرض إنباتا. وفي القاهرة تأملت حال الناس في بلاد الناس، هل كانت المجاعة الرهيبة انتقاما من الله تعالى بأهل مصر الذين طغوا وأفسدوا كثيرًا في ذلك الوقت ولم يقيموا حدود الله تعالى. قلت

لنفسي: لكن الله رحيم لطيف، والأكيد أن له في ذلك حكمة، إن لم أعلمها فلا أقل من التسليم والرضا والدعاء لعباده المساكين. ولم يكن مقامي بأرض مصر سعيدا، فأول فاجعة كانت فقدي في الوباء لأخي الذي رأيته في منامي واصطحبته من فاس إلى مصر «محمد الحصار» فعوضني الله تعالى بلقاء صديق عمري وطفولتي الشيخ «محمد الخياط» وطلبت منه مرافقتي لمكة، لكن المرض أقعده حتى مات فحزنت حزنا شديدا، وفي قلبي من فراقه لهيب. هل في مصر قدرُنا فقدُ الأحباب؟

قررت من فوري المُضي لما جئت من أجله، فالتحقت بالركب قاصدين بيت الله الحرام في مكة المُشرّفة، وقلبي طائر هائم يسبقني إلى حيث خطوات سيد المرسلين والأولياء والعالمين وخاتم النبيين صلوات ربي وسلامه عليه. لكن الحقيقة أنه على الرغم مما رأيناه أثناء مرورنا بالديار المصرية من مظاهر مجاعة وقحط، فإنني وجدت ضالة كنت أفتش عنها، الأمن. الأمن رغم الشطار وقطاع الطرق، الأرض البسيطة المنسابة كنهر يشقها تمنحك الأمان، بعد سنين قلق واضطراب في الأندلس التي باتت حزينة، ومقابلها كان المشرق لا يزال متحدثا عن الانتصارات العظيمة للسلطان صلاح الدين، ومصر والشام تعيشان في ظل معاهدة الصلح بين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد في الرملة قبل تاريخ وصولي مصر بنحو عشر سنوات.

في المحروسة اكتشفت أن التصوف مختلف عمّا عرفناه وعايناه، تصوف لا يرى في الطريق غير زهد وتقشف وانعزال وسرد لحكايا السالكين، ليس به النظرة الشاملة للكون والإنسان. ربما لأن مصر وقتها كانت للتو خارجة من عقود للحكم الفاطمي بكل طقوسه واحتفالاته ومظاهره البعيدة عن حقيقة الطريق. لقد نجح السطان

الناصر صلاح الدين من تغيير وجه السياسة في مصر، لكن الناس تحتاج عقودا وأكثر لتتغير وتبحث وتفهم حقيقة الطريق.

مصر بلد عظيم لولا الظلم، كأن قدرها الدائم الملازم هو ظلم الناس للناس، المشكلة ليست في الحاكم أيًّا كان، بل رأيت أن الظلم متأصل في جذر قلوب أغلب الأغنياء. وإلا، فقل لي: كيف أكل بشرٌ أغنياء لحوم بشر مثلهم؟».

قرأت على زين العبارات الأخيرة التي جاءت بمخطوط جده، فعلّق ببديهة: «قدرُ مصر أن يتلذذ أغنياؤها بلحم مساكينها».. وأنا أنقل خواطر زيارة ابن عربي الأولى والعابرة لمصر، وجدتني أعود لحوار المهدي مع الراهب بجبال أسيوط، وأن النهر روح مصر، لو نقص فالخوف أقرب من قاعه المنحسر، في تلك السنة أسعدني السادات وأسعد صديقي زين لأول مرة منذ عبور قناة السويس، حينما قال: «إن المسألة الوحيدة التي يمكن أن تقود مصر للحرب مرة أخري هي المياه». جلسنا على مقهانا، والنميمة حامية بين الناس، تناقلوا ما لم يتأكد أحدٌ منه، من أن إثيوبيا أبلغت السادات بأنها لا تبني شيئا على مجرى النهر، فما كان من السادات إلا أن بعث بست طائرات حربية ولوّنها باللون الأسود وضرب أساسات سد شرعت أديس أبابا في بنائه، ولما اشتكوه في مجلس الأمن، ضحك وقال: أي سد؟ أنا سجلت كلامي معهم وإقرارهم بأنه لا سدود على النهر. ثم أعلن بخطابته المسرحية: «إذا حدث وقامت إثيوبيا بعمل أي شيء يعوق وصول حقنا في المياه بالكامل فلا سبيل إلا استخدام القوة».

قال زين: هل تصدق تلك النبرة؟

- ولم لا؟

ـ الناس تفتش عن أي بطولة. يحكون ما يحبون فيصدقون ما يقولون.
ـ الرجل جرّب الحرب.
ـ الحرب على المياه أكبر من حدودنا، هي حرب دول عظمى.
ـ الحرب على المياه حرب لحياتنا، لكني لا أعتقد أننا سوف نُضطّر لذلك.
ـ أمس رأيت فيما يرى النائم، أن الأسماك طافية على صفحة النهر، وجدّي جالس يبكي. أين وصلت في الحكاية بعد موت جدتي حميدة؟
ـ الحكاية دخلت للمفاجآت.
ـ كل حكاية مجموعة من المفاجآت، كم نتمنى ألا مفاجأة، فنطمئن للروتين، وتأبى الرياح إلا أن تأتي بما لا نشتهيه.
ـ أو لعل الرياح لا تعرف ما تشتهيه السفن ولا ما تكره. الرياح والأمواج، الشمس والقمر، المد والجذر، كل أجواء البحر تتناغم مع البحارة المهرة، كما قال أحدهم. لكن قل لي: ما أخبار الجامعة؟
ـ الأمور تسير.
بدا بزين بعض سرور، قال:
ـ أخاف لأني معجبٌ بإحداهن.
ـ ولم الخوف؟ وداوني بالتي كانت هي الداء.
ـ وجنوني؟
ـ بل قل: ومرضي الذي تعافيت منه، وأساسا، لم يكن مرضا، بل عرَضا طارئا لحوادث مؤسفة وانتهت. أنت بحاجة لأن تقدم لنفسك شيئا جديدا، أنت تستحق.

ـ حينما التقيتها، فكرت أنه آن وقتٌ لتقديم شيء لأحدهم.
ـ لا قيمة لحياة لا نقدم فيها لأحدهم قيمة وشيئا.
ـ وهل يُسعدُ من ليس بالسعيد أحدًا؟
ـ إسعادك امرأة سعادة حقيقة لك. آن الأوان يا زين العابدين وزين الشباب. افرح يا رجل، واعكس على روحي بعضا من روحك الجديدة.
ـ لمّا أقررت بأن الإساءة طالتني، وأخضعت لها رأسي، اليوم أفكر بأن أقرر الارتفاع قليلا، كي لا تطول الإساءاتُ روحي.
ـ الله يفتح عليك، افتح الباب لعل قادما بعدك، يا ليتني هو.
ـ لو فتحت الباب على مصراعيه، أخشى أن أغرق في الغربة.
ـ أي غربة؟
ـ غريب بين الناس، غريب في وطني الغريب. فلاح في أرضٍ محتشدة بالديدان.
ـ أيا كانت تُربةُ حقلك فأنت ما تزرعه. في أرض الأحزان قد تُزهر ورود الأفراح. كما يقول مخطوط جدك: «في محنتك منحة لك؛ لو فككت رموز ما يبعث لك الكون، في غربتك تستطيع أن تبني وطنك الحقيقي. الأوطان في الصدور، والصدور الخضراء لا تصفرّ مهما عكرت مزاج هوائها الأحوال». بل اقرأ تلك العبارة التي خطّها المهديُّ على هامش كراسته. وأخرجت له مفكرة تعودت أن أُضمنها خواطر شاردة، وأنقل فيها عبارات أعجبتني. قلت اقرأ:

«بعد عشرين عاما من هجرة ورعب وقلق وأرق واضطراب دقات القلب، ومُعاركة الليالي ومعالجة الرجاء، ها أنت ذا تتنشق عبير ما زرعت من أزهار في زُهرية فخار ملونة مزججة أنت من صنعها

وسوّاها في النار، فنعمت بها وتنشقت العبير بعد دخان الخوف. النار ما أحرقتك، ولا دخانها غيّرك».

ـ كم تمنيتُ لو اعتقدت أن الخوف وهم. لكن، عموما قد بقيت بعض الشواغل الصعبة والعادية؟

ـ أيها تقصد؟ فهي كثيرة.

ـ وضعي المالي.

ـ أنت ميسور الحال. ثم...

ـ ثم ماذا؟

ـ لقد تعلمت منك ومن سيرة جدك، أنه لا فقر مع قناعة، القناعة تُبقي رغباتنا هيّنة وأطماعنا هشّة.

ـ الله المستعان.

ـ الله أكبر، لقد اهتدى زين.

قلتها بغمز سخرية، فغرقنا في الضحكات، وقد حيّرنا أمشير ماذا نلبس له، حرٌّ بالظهر، وبرد في المساء، وزعابيب أحزان غاضبة من استقرار أرواح كانت حزينة، فقررتِ السعادة والتحليق بخفة. قمنا، تركته وانشغلت على مكتبي بتتبع طريق هو الطريقة.

وأعود للمعلم الذي لم يفارقنا، وقد مضى في الطريق، عالجته دروبٌ وعركته، وهو يستعين بمن حجابه نور ونار، وبلغ في مؤلفه الماتع أشواطا، واعتنى أيّ عناية بالولدين. عبد الصمد يظهر نباهة تليق بابن رومية وذكاء كأبيه، ومحيي الدين فيه الكثير من ملامح والده وجبهته العريضة الصلبة، ويشبه عناد أسيوط، وفيه من جرأة جبالها.

في ذلك اليوم الساخن تجمع فخرانية حول صينية بسبوسة بدولاب المهدي، حكاياه تزيد الحلاوة حلاوة.. هرب الجميع من

طقس حار، الدروب الضيقة كأنها أبواب بيوت نار تلفح العابرين وتلسع رأس المتجرئين بالسير في شمس ساطعة. تندروا بالحديث عن شهر «بابه». بعد استواء الأرض خضارا وانحسار الفيضان، يأمل المصريون في مخزون وافر من محاصيل الأرض. ويترقب الفخرانية مزيدا من طلبيات قصاري الزرع. ضحكوا وأحدهم يقول: «إن صح زرع بابه غلب القوم النهابة». قال المعلم: «في بابه خش واقفل البوابة»، حين فوجئ المعلم بطليقته الفلاحة وأمها وجدها يقتحمون الدولاب. هل جاءوا من قيظ «بابه» الشديد كضربة شمس، ومعهم طفل صغير قالوا: «خذ ولدك عبد الرسول أنت أولى بتربيته، والنفقة عليه». كظم شكوكه مع غضبه: «الله المستعان على ما تصفون». وتوجه للرجل:

ـ لو الولد لي، فلماذا كتمتم الخبر؟ لقد مضى أكثر من عام ونصف العام.

ـ استغفر الله يا معلم، لقد تقصينا أخبارك، وما علمنا أنك أنجبت من امرأتيك إلا مؤخرا، وقبل ذلك كنت ستنكر، عموما، احمد الوهاب الذي يرزق من يشاء بغير حساب. وواجب عليك أن تشكرني فأنا الذي فككت سحرك، لقد كنت مسحورا بعدم الإنجاب.

ـ دعك من الكلام الماسخ يا سحّار يا عايب.

ـ تشتمنا في بلدك، وقد أتيناك بولدك؟

ـ وأضربك أيضًا.

بكت طليقته: نحن ولايا، وأنت ظلمتني في الأولى، فلا تظلمني في الثانية، وحق الله العظيم، إنه ولدك من صُلبك.

تدخل الحاضرون فاتفقوا على أن يعودوا ومعهم «عبد الرسول»،

وأن يتكفل المعلم بمصروف أسبوعي جزيل، وأن يترك طليقته وابنها في بيته بمنيل شيحة، وتبقى حُجة البيت باسمه. وتركوه في حيرة لم يكن مستعدا لها، ولم يكن بحاجة إليها.

في الليل غاب في تسبيحاته، سرح في ملكوت ربه محاولا لملمة شعاعات روحه المتناثرة والمشتتة في أماكن مختلفة. كان مخطوطه عن ليلاته ومناماته في كلام ابن عربي وسيرته قد أوشك على التمام، ولا تمام مع هذا القطب المحير السيّال بالكلام والحكايا. قرر الهروب من كل ما حوله وانطلق منكبا بخطه الحسن لمراجعة كراسة قرر أن يجعلها الثانية في كتابه، لعلها تنتشله من تيه يعبث داخله، أو يجد على سطور ما كتب هُدًى يُعينه على وصل ما انفصل من كتابة.. طوى كتابه بيمينه، فكر لو سأل شيخه ابن عربي عن الحيرة التي بات فيها، وكيف يدرك إن كان «عبد الرسول» ولده من صلبه؟ أو هو نبت حرام وولد زنا؟ لم يُوفق ليلته تلك للكتابة، فقد استولى عليه الهم، ومثل دخان فرنه خيّم الشك في فضاءات عقله وكساها. في الليلة التالية أشار عليه حسن الأعرج بوقف بيت حميدة على تحفيظ القرآن للصغار، ريثما يكبر ابنها فيرث أمه. وافق المعلم وقال: لعله يكون صدقة على من ماتت غريبة وصغيرة. ثم طاب لهما أن تلتئم الحضرات في حوش البيت بجوار الغرفة المبروكة. احتار كيف يفاتح الأعرج فيما جرى من حكاية «عبد الرسول». بعد تردد حكاها. حولق الأعرج وسبّح ولم يستطع إخفاء ضيقه، ثم بادر قائلا:

- وكيف شكل الولد؟

- لا شكل واضحا له بعد، لكن الحق أني أحسست بعطف وأنا أتسلمه، وبخوف.

- اتركها على الله، اطرح كل شكوكك، وقُم بما وعدت به من

نفقة ورعاية، وسوف يقضي الله أمرًا كان مفعولا. الأيام ستثبت الحقيقة، وإن كنت أعتقد أنه ولدك، وأن الله تعالى أراد لك الخير الوفير بعد سنوات الجدب

ـ الدنيا تُعطينا ما نشاء، تقول: خذ وخذ، واحذر فمثله قد تأخذ أحزانا.

أوفى بما وعد به من نفقة، وأوفى الشكُّ بوعده فظل حاضرا.. وفي مساء شديد يحاول النهر عبثا أن يلاطفه بنسمات تتراقص لها شعلة على باب بيت المعادي فتشق ستار ليلة لم يبلغ القمر بها حد رشده، والليل مخنوق بـ«زمتة البلح»، فلا بد قبل الخريف من اشتداد الحرارة حتى تستوي الرطب على نخلاتها، وتطيب. هل استوت رطبات الروح أم بحاجة لمزيد شدة وصهر.

يتأمل المعلم الراقد على بسطته سماءَ الله، يخاف من نفسه وهي تتوق إلى قمر رجوع يهتدي على ضوئه طريقا لأسيوط، يقول: كل المنازل كوم ومنزلي في أبنوب كوم. هل سأُدفن هناك؟ أم أظل غريبا حتى يسووا لي الثرى؟.. لا بشر مستيقظ ولا كلام مرسل، لا صوت غير نباحات كلاب متقطعة تقول: إنها هنا وهناك. ولم يكن النوم كريما، وما استجداه بعد ما تلا من أوراد تُخدّر الشياطين. ذهنه مشتت، الخوف يسكن قلبا لم يرتكب جريرة، فزع إذ رأى ظلّا واستعاذ بالله. نادى: من هناك؟ هارب مثله، جانٍ أو مجني عليه، صاحب جريرة أو مظلوم في عصر كثرت فيه المظالم، وما زالت تنتظر يوما معلوما لوأد الظلم، وكل يوم يتأخر اليوم المعلوم.

تحفز المعلم وتناول شومة بدت نائمة إلى جواره، صاح بحزم:

ـ قف مكانك.

ـ أنا في عرضك.

ـ اجلس محلك، واثبت.

ـ حاضر، والله لست لصا. أنا في عرضك.

تحدث إلى الهارب، شعر بأنه مظلوم، أنه مثله قبل سنين طويلة. لجأ إليه، وبه استغاث. فأطعمه من جوع وآواه من خوف، وأحسن إليه، تصور أنه يُحسن إلى نفسه، تذكر ما فعله الراهب معه في مغارة جبل أسيوط. أكرم المستجير وآواه. قال لنفسه: «الأيام دول، المحظوظ من يسدد الأمانات، قبل أن تُطلب منه. كيف لا أُجيره؟ من استجارك فأجره. ربما لمح أحدهم دخوله داري وخروجه منها، أو قص أثراً قد يفضح فعل الخير».. بات ليلته حارسا حذرا، خائفا وجلا. لم يحاول النوم، تسلّح بتسبيح خالق الليل وجاعله غطاءً غير فاضح، وسترا مستورا. فكّر لو قضّى ليلته في التأمل واصطياد خواطر يُقيِّدُها إذا انقشعت المخاطر. كلما أوشك أن يُمسك بخاطرة، أكلتها وطيرتها شاردة خوف، وشتتها واردة ذعر. كلما نقنق ضفدع في حقله الصغير القريب، أو صاح ديك، فزع ولاحت خيالاتٌ لا طاقة لخائف مثله بها: «اقتحام الجُند داري، فزع أهلي، السَّوْق لقلعة الجبل حيث لا مشفق عليك ولا رحيم. الضرب في المصريين ليس حراما حتى يُقر الجاني والبريء والجالس والقائم والمار والماشي، ويعترف بكل ما يريدون. وإلا فالضرب في الميت واجب حتى ينعم بموت يُنجيه من زنزانة كما يحكون عنها أسطوانية واطئة، يمكنني أن أصنع قِدر فخار أوسع منها. وهناك سأعترف تحت الضرب باسمي، واسمي مطلوب في جناية قتل وتمرد».

ألزمه الخوف همّا، فكساه الهمُّ لباس غمٍّ، خوفه مجرد وساوس وخيالات. الهم هو الحزن مما سوف يحصل، والغم حزننا على ما حصل، وبعد، فشيء حتى لحظته تلك لم يحصل.. «أستغفر الله

العظيم، خوف لم أُجربه. خوف لا يرتقي لما عاينت من خوف وأنا أُغادر قريتي قبل سنوات بعد تحذيري من جريرة ليس لي فيها بغي».. مع ضوء الشروق طوّف الجُندُ في الجوار واقتربوا من الدار، سألوه: هل رأى أحدا، أو دخل عنده من أحد. قال: «يا سيدي، هنا لا أرى غير النجوم». وبغير استئذان اقتحموا الدار، فقط أعلموه بذلك ليستر عياله، غاص في هبوط ضغط دم، فقد أوشك هاربان على السقوط في مخالب الذئاب. سلّم أمره لمن بيده الأمر، وهل يملك من أمره شيئا؟ واستعد لمصيبة تصورها جليلة كجبل تسكنه شياطين. وفي سرّه تلا: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

خرج الجند بغير الهارب، وما خرجوا صُفْرَ اليدين، سرق أحدهم بعض فضة، ولم يتكلم المعلم، وخرج آخر بعضو الفخار الذكري ضاحكا: «شيخ عربيد، لو رأيت مجرما هاربا، تُمسك به وتسلمه، لو عرفنا أنه مرّ بك سنضعك جواره بالسجن، وستُجلد مائة جلدة». حذّروه بعنف وقفلوا مبتعدين. بينما اقترب إليه أحد الجُند وابتسم ابتسامة غريبة كغرابة ما تبقى من ليل: «سترتَ عليه، فبعثنا اللهُ لنستر عليك». ولم يفهم شيئا غير أن الله تعالى سلّم، واجتاحه صداع وهو يفكر فيما قاله الجندي. هل طمع في مكافأة فكتم ما أخفاه المعلم ولم يفضحه؟ هل سيعود في قابل الأيام لينال مكافأته، ثم يكرر زياراته للابتزاز؟ أم هو جندي طيب أعلمه الله تعالى من بؤس الأحوال، فقال «أستر على عباده، لعله يسترني في الدنيا والآخرة»؟ أم تُراه روحا من عند خالقه جاء يساند خائفيْن هاربيْن رقّ أحدهما للآخر؟ «لك يا خالق في خلقك شئون، أنت فوق خلقك وحدك ترى وتسمع، فتستر وتغفر».. قبل أن يمضي المستجير الهارب في حال سبيله، شارك

مضيفه الاستغراب من كتمان الجندي الذي رآه وعدم كشف ستره. قال «ارتبت هل رآني؟ أغلب الظن أنه رآني وسكت». ودّع المعلم وقد شكره على ما منحه من ملاذ ومالٍ وبقجة ملآنة بخبز وجُبن وزبد وعسل أسود. ثم قلّب المعلم خزانة متاعه حتى التصقت بيده العباءة التي جاء بها من أسيوط قبل سنوات، عباءة الراهب لعلها اشتاقت لتعُود حانية على بدن ضعيف خائف هارب مستعيذ. حدّق المعلم بها: «هل خلقك الله سوداء، لتشملي الخائفين بالليل بستر جميل؟».

قال: «عليك بالصعيد. لو وصلت أسيوط سِلّم لي على الحبايب».. ثم جلس يكتب على هامش كراسته: «خوف في بيتي حيث أرجو أمانا، لا انزياح للخوف بغير زوال سببه، وسببه فات بعد أن أخذ واجب الضيافة والإجارة، الصبر ينفع في كل شيء، مع أنه في حالتي صعب ولا أملك سواه. تصبُّرنا حين لا يكون بأيدينا شيء غير الصبر، ليس صبرا يربينا ويُهذبنا. إنما هو سلاح عاجز لا يملك سواه، اللهم إلا التجاءً إلى مولاه». صلى ركعتين محاولا تمام قيام ورسوخ ركوع، انسابت دموع ذل السجود. تهجد طويلا قدر ما تحمّلت رجلاه، فغاب القلب في ملكوت فسيح. انتهى مصليا على خير الخلق، فما كبر في عينيه مخلوق، ولا لاح في خاطره شيء جدير بالهيبة. كتب: «لك الحمد يا مولاي، وأصلي وأسلم على سيدي حقيقة الوجود ونور الحياة».. ونام ساعات قبل الظهر، متشفعا للطمأنينة باسم الله الحنّان، وقد شقّ قلبَه حنانٌ على فراق عباءة راهب لازمته في ترحاله الشاق. لبعض أمتعتنا ذكريات وروائح، قد تكون قليلة القيمة في أسواق الناس، لكنها بقلوبنا لها أبلغ مكان، وأرقى مكانة. قال بعد تسبيحه باسمه الحنان ثلاثمائة مرة: «من أعطى لله، عوّضه الله خيرا مما أعطى». ونام حتى أذان الظهر فرأى مناما وكتب بكراسته: «رأيت

أني أشق النيل جنوبا، رشيقا، لا على ظهر مركب، ولم أكن سابحا، فقط مُسبحا الله الحنّان، وماشيا فوق ماء يزعق بأفراس النهر، أخاف ساعة وأطمئن ساعات، حتى رسوت على شاطئ «أبنوب الحمّام» في بلدي أسيوط، وما إن نزلت حتى التقيت شيخا مهيبا لحيته تغطي بطنه، عليه أثواب خضراء. سلمت عليه فخلع عباءة فتحولت وهي في يدي لخِرقة. شال من قماش لا هو بالٍ ولا متين، فطارت كحمامة واستقرت على كتفي، وقال: أنت تستحقها، جزاء وفاقا. ثم ولّاني ظهره وغاب بين الغيوم وهو ينادي: يا رب ارحم عبدك «خَضِر»، ووفقه لمن يستحق خِرقته بأمرك».

بعد العصر، اصطحب حسن الأعرج إلى الحضرة، وفي الطريق حكى له ما رأى من منام، ولم يقص عليه من خبر الهارب والجنود، فابتسم وقال: «رضي الله عنك يا مهدي، أنت مهديٌّ بإذن الله».. انتهت الحضرة بعد المغرب مباشرة على غير العادة، وقصد الجميع عزاء أحد الإخوان، وبعد العزاء تمشى هو وشيخه الضرير، فانتهيا فوق مصطبة مقهى، وحكى الأعرج عن «الخضر» ما سوف يدونه بعد ذلك ويراجعه في الفتوحات، وعزم على تتبع خطى ابن عربي مع «خضر» إذا ما سكن الليل.

ومضت الأيام تحفظ القلق كولدها، كذا عادتها.

في أمشير يسابق الفخرانيُّ ندى الليل من أجل إتمام كامل شِحنة فرنه من القُلل، قلة أمشير تُبرد ماء الصيف. للفخراني خصمان: مطر بالشتاء، وندى بباقي السنة يسرح ليلا فيتسرب بالطين المطبوخ فيصبح مشروخا أو مكسورا. في ليلة شعر بأنها حُبلى بالندى، أسرع وغطّى قطعا من الطين جاهزة للحريق، وأحكم لف أمتار القماش ما

استطاع، ورأى أنها ليلة صافية للسمر، لكنها ليلة قد يخافها صانع الفخّار. همست له تسبيحات طيور مهاجرة باتجاه الشمال: أن نعم الله كثيرة، لا طاقة لشكر أقلها، ولا وسع لحصرها. ركبه ضيقٌ لا يعرف سببه، ربما لمروره منذ ليلتين بأبيات شعر لا يعرف من قالها، وظلت تتردد داخله كجرس أفعى. وقد رأى في منام قيلولته اليوم أفعى كبيرة تخرج من جُحرها فتدخل آخر، كبيرة كما يصفها العرب بالأعيرج.. ظل يردد:

وسالمتكَ الليالي فاغتررت بها وعندَ صفوِ الليالي يحدثُ الكدرُ

في الصفو تحِنُّ نفوسنا لدوامه، فتدخل لدوّامة التوجس من زواله، وتُحدِّثُ نفسَها مخافةَ أن يتعكر ما هي فيه. هل نجذب إلينا ما نخاف لو فكرنا فيه، وهل نُعقد الحياة بتعمد ربط كل ما نراه في منامتنا بما نجزع منه، ومبتعدين عنه نهتم، الهَمُّ يشد أيام الغم، وقد لا يأتي غم ولا هم يحزنون. الخوف هو تفكيرنا في الخوف، نستعجل مخاوفنا بمخاوفنا..مما يخاف المعلم المهدي؟

تقول حكايات سلساله عبر عشرات السنين وأجيال تحافظ على الحكاية ساعية لكشف ما لم ينكشف من أسرارها والزيادة عليه: إنه ربما يخاف من فقد أحلامه التي أتت، أو أن يغشاه شرٌّ يقصد أولاده الذين جاءوا بعد طول صبر. يقولون: إنه ظل خائفا من لهيب ظلم أخرجه من الصعيد، وألجأه للجبال والمغارات والوحوش والجوع والسهر والسفر.. في الأيام الأخيرة، بدأت الضرائب المفروضة على المصريين تتعدد. طموحات الباشا الوالي «محمد علي» أفرغت الخزائن ولا بد من إبقائها ملآنة على الدوام. ولمّا ذبح المعلم عجلا نذره لإطعام فقراء يلتمسون الخير، ويطمحون لسد الجوع حول مقامات الأولياء، فوجئ بالجزار يأخذ جلد الذبيحة، قال له المعلم:

«إنها كلها بلحمها وشحمها وجلدها منذورة لله»، وأغراه بعشرة قروش صحيحة.. الذي حدث أن الجند سألوا عمّن أولم وفرّق اللحم، وجاءوا للمعلم وطالبوه بنصيبهم، وقبل نصيبهم نصيب الدولة، الضريبة والجلد للدباغة. سوّى معهم المسألة بالقروش، لكن أحدهم سأله:

ـ من أين يا معلم؟

ـ من رزق الله.

ـ ليس المال، أسأل عنك؟

ـ فقير على باب الله.

ـ أبواب الله كثيرة.

ـ ونعم بالله.

ـ لست في حد علمي من أبناء مصر عتيقة، لهجتك صعيدية، أنا خدمت منذ سنوات طويلة في الصعيد، من أين يا معلم؟

ـ من جوار سيدي عبد الرحيم القنائي.

(لم يقصد المعلم كذبا، ففي عرف الصعيد أنهم كلهم جيران القنائي الولي).

ـ يا معلم، يبدو أنك من المنيا أو ربما أسيوط، لهجتك واضحة.

ـ الصعيد كله يا سيدي لهجة واحدة أو متقاربة.

ـ أشعر بأنني رأيتك قبل ذلك.

ـ القلوب تتعارف.

النبت السيئ يصدق في مفاجآت نموه. جاءه جد طليقته الفلاحة يحمل «عبد الرسول»، تناوله وأدهشه الشبه به الذي بان بعد شهور من مولده. نفس الجبهة العريضة والأنف الأفطس. قال:

ـ أنت أولى بابنك يا معلم.
ـ وهل ينقصه شيء أو ينقصكم؟ ألا يصلكم مني ما اتفقنا عليه من مصروف؟
ـ الدنيا غلت، الأسعار نار والحياة صعبة، وابنتي جدة عبد الرسول مرضت ولم تعد قادرة على الطواف واللف وفوق رأسها البيض والزبد. أصابها فالج فقعدت، ولم يعد لنا من مصدر رزق. ثم...
ـ ثم ماذا؟
ـ أم عبد الرسول سوف تتزوج.
ـ كيف؟.. «صائحا».
ـ شرع الله يا معلم.
ـ أنت آخر من يتكلم عن شرع الله.
ـ المهم يا معلم، هذا ولدك ولنا في ذمتك فلوس عن آخر شهر. ولا تنس أننا أهل.

قدر عزيزة بنت الأصول أن تكون أم البنين جميعا. الحقيقة أنها كتمت ضيقها من ابن الفلاحة، لكنها استحيت أن تظهر ذلك، وغاظها الشبه الكبير بين الولد والمعلم. توكلت على الله في العناية بالثلاثة، والرعاية.. من تأخر حبلُها هي أكثر الأمهات حنانا.

بوابة القبة

إن الفتوح هو الراحاتُ أجمعها وهو العذاب فلا تفرح إذا وردا

الله عليك يا زين، وجدتني مسرورا وأنا أراه يقرر أن أقوى سلاح بالفعل يواجه به غدر أيامه هو التسامح، واكتشف أن تسابيحه فتحت عليه بابا لملاطفة حياة، فمضى في الأرض وحيدا متدفئا يوصي من يلقاه بالتسامح والعفو. بعد أن يئس من التنقيب في بيت الفرنساوي عن الكنز. حتى تعرفي عليه في الليلة التي ذكرتها قبل ذلك عند بدء الحكاية. لكن ما جرى بعد ذلك أشبه بردة نفسية وانتكاسة روحية أغلقت في وجهه الدنيا فركب طبلية الانتحار. وبحمد الله نجا. صفحة وطويت.. تذكرت شريط لقائنا وأنا أفتح الورقات الأخيرة التي كتبها زين وأسعدتني كثيرًا ومسّتني، هي أشبهتني، أشبهت جيلا كاملا وُلد على أرضٍ منبسطة بين ضفتي نهر طيب، قدرُه أن يشهد نكسةً ونصرًا ثم انفتاحا لم يدع شيئًا كما كان. جيل شهد العالم من حوله يتشكل باتجاه تكتلات كبيرة، والكتلة التي تتحدث لغة واحدة وتدين بدين واحد تنقسم وتموت بالانشغال عن مُهمّات كبيرة، فيما المُلمّاتُ تقرع بابها فلا تستيقظ. جيل لم ينس قتلاه في حروب قريبة، ومجلسُ شعبِه مشغولٌ بالحرب على كتب الأموات.. الذي أسعدني جدًّا هو وقوف زين على رجليه، استعادته عافيته، خروجه من دوّامة اللاشيء، عبوره فوق طوفان اليأس، أو محاولته ذلك. قرر موضوع الماجستير عن ابن عربي، وإن لم يستقر على العنوان النهائي. كتب زين:

«قلت لنفسي ورسمت كل عبارة بخط كبير: ارفق بنفسك، فثمة ما يمكنك القيام به، وهناك كثير مما لا تقدر عليه. لا تملك أن تنزع من أيدي الناس معاول الهدم، لكن بوسعك البناء ولو داخلك. أساسك داخلك.. الغضب قيد، والروح بلبلٌ حبيس، بالتسامح يكسر القيد، وبالمحبة يُغرِّد.. كل عدو هيّن، إلا عدوا يسكن نفسك.. قوتك أن تتكيف مع كون يتغير من حولك، أن تقف ثانية وثالثة ورابعة. ليس مهما عدد مرات سقوط النفس، المهم أن يكون يومك الأخير بالدنيا وأنت تحاول استعادة نفسك وانتشالها. قُم، قف على قدمين من محبة وتسامح. الحياة، أيُّ حياةٍ مثل نهر متفرع القنوات والمجاري، كلما عرقل جريانه حجر في قناة، لجأنا إلى مجرى آخر غير مسدود. دائما هناك بوابة للخروج من الحزن.. لو خضعنا للأحزان، فستظل ليوم الدينونة.. قبل يوم الدينونة سُد كل ديونك، أكيدٌ أن هناك دَينا في رقبتك لأحدهم، مالا أو حقا معنويا، أولى الديون بالسداد هي حقوق نفسك لنفسك، سداد ما مضى من ظلام هو تنوير بقراءة، وإضاءة باطِّلاع جديد.

مضيت في القراءة عن ابن عربي، أرجأتُ القراءة له. قلت لا بد أن أفهم من يكون قبل أن أعرف ما يقول. ومنتظرا أن يقضى الله أمرا كان مفعولا، لعلي أعود لنفسي وأُثبت لمن هجرني أنه أخطأ في حقي. لا أحمل حقدا لأحد، فأنا أحب نفسي، من يفعل بصدق يحب الناس أجمعين. التقيت عمتي وضحكنا، لكني لم أستطع أن ألتقي بحبيبتي أو من كانت حبيبتي. وسامحتها. سامحت كل الناس من أجل أن يسامحني زماني. وجدتني في أشد الحاجة لقراءة جديدة، أنا دودة قراءة كما يصفني صديقي العاكف على مخطوطة جدي، صديق شعرت معه بأن زمانا عبس طويلا تنفتح لي أساريره وتتفتح أزهاره.

شتاء بلادي هذا العام كبلادي في كل عام، غيوم ولا مطر، غريب لم يعد يكره الغرباء، نسي الشتاء أن مصر قريبة من خط الاستواء، اختار تضادها فجاءها من موسكو، كنا قديما نقصد معرض الكتاب من أجل موسكو. لا لأننا شيوعيون أو يساريون، بل لأن الجناح الروسي به مجلدات رخيصة بطبعات فاخرة، والمحتوى قد يأتي بعد تزيين المكتبات المنزلية. بيني وبين معرض القاهرة الدولي للكتاب اشتياق لأسباب كثيرة أقلها القراءة، ما إن تهل روائحه، حتى أبدأ في توفير مبلغ يُرضيني ولا يرضي الناشرين، الكتب هذا العام ارتفعت أسعارها بشكل جنوني. وأما الجنون فبينه وبين الكتاب غلاف رقيق. حتى بين معرض الكتاب في أرض المعارض ومستشفى العباسية للأمراض العقلية أو النفسية أقل من مائتي متر. المستشفى العملاق وأرض المعارض بكل اتساعها، لا فاصل بينهما سوى المُضي قدما ومشيا بين سطور بعض الكُتب.

أرعبني اقترابي من ذكريات عامين قضيتهما، فقررت مواجهة ضعفي. جلست على مصطبة بدا أنها خافت السور فابتعدت عنه قليلا. أخرجت مفكرتي، كتبت تحت عنوان «س»: «حياتك أنت من يُقرر أن تكون مشرقة، أمر سعادتك بيدك، وكذلك أمر شقوتك لو أردت ذلك. وهل يختار أحدٌ شقاوة؟ كثيرون يختارون شقاواتهم وهم مُخدرون وغائبو الوعي عن حقيقة الحياة. أنت سيد حياتك، وليس هذا تجديفا، وأعوذ بالله من إنكار أن أمرنا بين كافٍ منه سبحانه ونون. يا فارغ الوطن والأهل والأشياء والفلوس، أنت ملآنُ غِنًى، لأنك تملك كنزا من أحلام، سوف ولسوف، وأكيد أنها ستتحقق. سأبادر، سأخرج من محنتي، حتى لو قالت لي نفسي: إن ما أنت فيه ليس لك فيه ناقة ولا جمل ولا يد، والظروف هي التي

تحوطك وتكبل معصميك وتعتقل كاحليك الدواهي. سأخرج من ضيق نفسي لفضاء أرحب وأنظر إليّ من بعيد، وأضع لنفسي خطة مواجهة وطرائق دفع. سأطرح رد الفعل، وأتمسك بالفعل، ستكون كل خطواتي نابعة من قراراتي الذاتية، لا من أثر واقع مُر. أنا من يقرر، من يقرر أنا. سأختار السعادة بعد أن زارني شقاء، سأشتري النجاح بعد أن أذلني فشل. قضيت ما فيه الكفاية مأسورا بلعن كل الأشياء من حولي، صارت نفسي لعّانة مولعة بالندم على ما لم تقترف يداي.. سأكون».

على ورقة أخرى من المفكرة كتبت بخط حسن، خطي جميل، هو من ميراث المهدي الكبير. بوسعي أن أعمل خطّاطا، بل كثيرًا ما أكتشف أخطاء في لوحات خطّاطين، حُسن الخط مفتاح للرزق، كما رُوي عن الإمام علي. كتبت بحبر أسود وظللته بالأحمر: «يا أنا، أنا قادم».. لم أكن موهوما، فقد ظللت أياما أطرد كل قوة جذب سلبية قد تؤثر في حالتي. قلت لنفسي: إن ما كان لم يكن ليكون لولا إرادة الله. هو يحب الأقوياء المتصفين بالعدل، فلأكن إذن عادلا، وأول عدل هو التجرد في كل شيء، في كل شيء جعلت نفسي مسافرة برحلة سوف تنتهي عما قريب أو بعيد، سأترك إرثا لمن يرثونني، به يفخرون وعليه يعيشون. سأطير للسماء خفيفا من الظلم. لن أظلم نفسي. الانتهاء كان مبتدأ جملتي، فلتكن المحبة خبرها السعيد.

اكتشفت قبل أن أقرأ عشرات الكتب عن أساليب النجاح وطرائقه التي تُرجمت إلينا مؤخرا لعلها تنقذ ملايين هشة تصطف في دكاكين الفشل، أن زادنا الحقيقي للنجاح هو اعتمادنا لغةً فاعلة محفزة، واغتسالنا من أوساخ الطاقات السلبية. عقدت العزم ألا أقف عند ماضٍ أليم أو جميل راح، لن أفكر في إنسان قد لا أكون بباله، من

عبقرية الإنسان النسيان. على ورقة نصّفتها بالطول كتبت ميزاني الشخصي، في اليسار جعلت كل الأسباب التي خرجت عن إرادتي أو بمحض إرادتي وأدّتْ للحالة السيئة التي مرت، وفي المقابل كتبت سيرة شخصية زينتها بمميزات أراها في نفسي ومؤهلات تجعلني قادرا على النجاح والتغيير، ورصعتها بكلمات من قبيل «كم نهضت بعد عشرات العثرات». سيرة أو رسالة لذاتي لعلها ترضى وتطمئن، ومن ثَمّ تشاركني حلمي.. حلمي حتى هذه اللحظة كان مشوشا، هل حلمي أن أنهض ثانية؟ قلت: إذن لا جديد. هل حلمي: أن أبدأ حياة جديدة؟ ربما.. تركت الأيام ترسم لي حلمي، مع أن حلمي الواضح، أن أستيقظ ذات صباح، فأغني: ما أجملني، وما أجمل كل صباح.. وأستغفر الله على ذاك الصباح الذي جدّفتُ فيه ولعنت وكفرت. فعند افتتاح الكلام، تاه مني كلام، فقلت «له» قولا صعبا، لا يليق بحالي التعيس، ولا يصِحُّ أن يُخاطب به من هو مثله.. وهل مثله شيءٌ؟».

تأثرت بكلام زين، صدق، فلا شيء مثله، سبحانه يقلب القلوب ويغير الأحوال. وكم أنا سعيد لتغير أحوال صديقي. وأعود لأحوال صاحب المخطوط..

ثَقُلَ كِيسُه فأرسل للجزّار وذبح عجلين لأهل الله. وما توقع أن يأتيه أهل السلطان. في الصباح دهم دولابَه شيخُ الحارة ومندوبٌ عن المحتسب المكلف بمراقبة الصُنّاع والتُجّار، وينتظرهم بالخارج وعلى مداخل الطرقات نحوٌ من عشرة جنود. توجس المعلم شرا، وإن لم يكن عنده ما يخفيه، بضاعة مرصوصة على وشك الشحن لتاجر من بولاق، والفرن جاهز للحرق، وما يكفي نصف فرن من شغل ما زال طينا جافا منشورا على طوابي خشبية أمام الدولاب

استنجادا بالشمس ولِواذا بالحرارة. قال شيخ الحارة: يا معلم، طالما أولمت وذبحت، كان عليك دفعُ حق الحكومة.

ـ لقد دفعت الضريبة المقررة للجزّار، وهو المكلف بتوريدها يا سيدي.

ـ وأين جلدُ الذبيحة؟

تنبه المعلم المهدي بأن زيارة بهذه الأبهة والهيبة لن تكون من أجل جلد عجل لا يساوي قروشا، فتدارك ما استطاع جأشه، وقال:

ـ كلي للحكومة يا سيدي.

التفت شيخ الحارة، الذي لم يكن يعرف سبب مجيئه مع الجند والموظف الحكومي لبيوت الطين والأفران، التفت لمندوب المحتسب الذي بدا عليه ضيق من طمع شيخ الحارة:

ـ عموما يا سيدي، المعلم المهدي رجل طيب، ويقولون إنه مبروك.

نفى المهدي، وغالب اضطرابه:

ـ العفو، لا مبروك ولا حاجة.

هنا دخل الموظف الميري متبرما لصلب الموضوع دون أن يوضحه:

ـ يحكون عن مهارتك وصنعتك، وأنك أتيت من الخزف والفخار ما فاق نظراءك ومعلميك.

ـ الناس يبالغون يا سيدي.

ـ من أين أنت يا معلم، من أي البلاد؟

سؤال يكرهه المعلم، يحرك فيه شجونا مشتجرة بداخله، يثير بفؤاده مخاوفَ ترفض أن تظل بعيدة، سرح وسكت قليلا:

ـ أنا من الصعيد يا سيدي، ولعل بعض حكايتي يعرفها سيدي شيخ الحارة، ويعرف أني في حالي، ولم تبدر مني إساءة لأحد

وأدفع ما عليّ من ضرائب، ولا أفعل شيئا بعد يوم عملي الشاق غير طواف على بيوت الله وأوليائه الصالحين، وأحيانا السمر على المقهى.

ـ المهم، الآن عليك مصاحبتنا.

ـ إلى أين يا سيدي؟

قالها المهدي، وقد ذُبح قلقا وغامت الدنيا بين عينيه ورأى كل ما مر به من قلق، قال: «لعلهم اكتشفوا أمري وأنني هارب من جناية، أم هو الهارب الذي ساعدته قد علموا بأمره؟».

ـ إلى قلعة الجبل.

ـ ولم يا سيدي، لم أُذنب في شيء.

ـ ولماذا تخيلت أنك مذنب؟ هل لديك ذنب تُخفيه؟

حاول لملمة روحه المشطور بالمفاجأة، قال:

ـ يا سيدي، من ذا الذي ما ساء قط، ومن له الحسنى فقط.

ـ هيا.

لم يمهلوه. سحبه الجند، لكن برفق، وأركبوه خلف أحدهم. مضوا صاعدين لقلعة الجبل وديوان الحُكم، المسافة بينهما يقطعها مسجد أبي السعود الجارحي، هل اختار مكانه ليشهد المظالم؟ وتشقها سكة ترابية ترتكن إلى سور القاهرة العظيم الذي بناه صلاح الدين الأيوبي وأجرى الماء فوقه لري حدائق القلعة المهيبة وسَقْي من فيها. طول الطريق التزم بأوراد يتخيلها دافعة كل شر، بيد أن تفكيره قبّل به للصعيد، هل انكشف أمره؟ أم أن الجندي الذي قال له «قد سترت عليك»، ولم يكشف ساعتها أمر الهارب، قد غيّر رأيه، فوشى به. لكن لماذا لم يفعل ذلك في ساعتها؟ استمر في تسابيح دفع الخوفِ: «يا عزيز أنت الغالب فلا تُغلبْ، وكلت

الألسن وعميت الأبصار، اللهم اجعل شرهم تحت أقدامهم، وخاتم سليمان بين أكتافهم، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ اكفنا، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ احمنا، ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾».

وصلوا، دخلوا القلعة من باب جديد أنشأه محمد علي باشا. تركوه غير مقيّد ولا مراقب، أهملوه وحده أمام حديقة غنّاء، يشاهد عُمّالا وصنايعية يكِدُّون بلا كسل. أحدهم ينحت قاعدة كبيرة من رُخام أبيض فهم أن تمثالا سينتصب فوقها.. هدأ قليلا، فإهماله وحده دون تقييد لا يتناسب مع هواجس أقلّها عقابُه الجلد أو السجن لحين تذكره ولو بعد سنين طوال: «هل سأخرج من هنا كما جئت؟ أم لا سبيل؟ لطفك يا لطيف». كان الضحى وظل مكانه ساعتين، تعامدت الشمس ولم يبدُ لها ظلٌّ، فارتفع أذان الظهر. نظر حواليه، لو مضى للجامع، هل يمنعه أحدهم؟ سكن محلّه حتى أُقيمت الصلاة، استعان ببعض كرامة شحنها بقاؤه طليقا داخل أسوار قلعة كم منعت أعداء، وكم صادت مدافعها مماليك وصبّت من شغب الدهماء وهوجات الجائعين.

همّ، وما غادره الهمُّ، فمضى لجامع قريب، جامع السلطان الناصر بن قلاوون يقف مهيبا ومريحا، لحق المعلم صلاة الجماعة، خاف لو تأخر بعدها أن يفقدوه لو طلبوه، لكن سحرا أسره فوقف ينظر بديع ما شيّد المعماريون والفنانون، تسمّر في الصحن ينظر لواجهات أروقة مشرفة، شرفات لها سُنُونٌ منتظمة، تنتهي كخوذة حربية مضلعة، فوق قواعدَ مُقرنصة. مضى إلى وسط الصحن، فاستظل بقبة مرتكزة على أركان أربعة، رفع رأسه فقرأ بوضوح الخط البارز الكبير المذهب: «الناصر محمد، شيّده سنة سبعمائة وخمس وثلاثين للهجرة». راح يحسب عمر المكان. وقبل أن تسرقه تأملاته أسرع للخارج، نظر

من بعيد فإذا الوضع كما هو، اطمأن فعاد للمسجد. رفع بصره وعزم الدعاء والاستغاثة للنجاة، فانشغل عن الحال بجمال سقف خشبي بديع على هيئة قوس، نهود هندستِه ساحرة، متناثرة بانتظام ولا تُعد في مشهد خلاب ورائع وبهي. أحس بتعب، قال «لو جلست قليلا».

على عكس قوانين القلق، تلطف به وَسَنٌ فنعس آمنا. رأى أنه عاش في زمان آخر، لمح نفسه فوق سقالة مرتفعة يجصص باطن القبة الساحر. أفاق مندهشا: «هل نعيش مرتين؟». رجع بالبصر مرة ثانية فبدت له قبتا المسجد حزينتين، إحداهما خضراء أو كانت خضراء، فخسأتهما عادة الأيام ونالهما ناب الريح وخدشهما مخلب التراب، ومسّهما من الزمن ما هو محتوم، فما تاب حاكم ولا نشط لإصلاح بيت الله.. هل قالت له إحدى القبتين شيئا؟ شعر بأنها تتكلم إليه، فتبسم ضاحكا، توصل الى الاعتقاد بأن اختيار القبة لدور العبادة لم يكن مصادفة. تأمل شكلها، في هيئتها يمتزج الروح بالملكوت، تتناغم الأصوات، يسرى صوت السرور مسبحا وتصعد الشكايات في صمت، الرعاية ضافية والرعايا يغسلهم صفوٌ. شعر بدوار وهو يطوف برأسه المرفوع لتجويف قبةٍ باطنُها سماء مفتوحة الأعين أو هكذا هُيئ له. شعر بأن الماضي يكلمه والغد يناديه، وأمانًا يتلقف روحه.. قالت له مسبحته: إنه يقف في مركز الخلق الأول، محور الكون، يُمسك بالسر. تعجب كيف خوفٌ استحال بلا سبب لطُمأنينة، فسبّح خالقه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾. مضى منكسرا لربه، يراقب ظلّه وقد مال على أرض حجرية هدأ فوقها ترابٌ.

بالخارج كان بانتظاره المحتسب وشيخ الحارة يقفان بأدب شديد خلف شاب نحيل ذي مهابة تُوحيها عمامةٌ كبيرة ملفوفة بعناية فوق رأسه الكبير، شارب دقيق أسود يُظهر شدة بياض الوجه، عينان

عسليتان ثاقبتان، ونصف جبهة أسفل العمامة تلمع ذكاء ومُحيّا يجذب القلوب.. نادى المحتسب: «تعال يا معلم، محمد أفندي مظهر كبير المهندسين يريدك في شغل».

شهق صدره كمن وجد أمنا وسط صحراء على فجأة، فراح يفتش في ريقه عن بقية يبلعها، أقبل مهرولا، وقف بأدب أمام الشاب:

ـ تحت أمرك يا سيدي.

ـ ما اسمك؟

ـ المهدي.

ـ لقب هذا، أم اسم؟

ـ هكذا يناديني الناس يا سيدي، أنا خدّامك.. «قالها باقتضاب وبخضوع مميلا رأسه».

ـ مولانا الباشا أمر بتوجه كل البنائين والصُنّاع لهنا في قلعة الجبل، من أجل ترميم بعض الإنشاءات القديمة، وبناء ملحق بقصره؟

تذكّر المهدي ما رآه قبل دقائق وهو غافل في صحن المسجد، فرد مسرورا متلهفا لإشارات ما رأى:

ـ أنا فخراني، ليس لي في عمل المِعمار. لكني تحت أمركم.

ـ نريد أن نزين قبة جامع الناصر محمد بن قلاوون.

ـ يا سيدي، أشرُف بخدمة مولانا الباشا، لكن لا أعتقد أنني أنفع في ذلك. أنا يمكنني أن أصنع قدورا كبيرة، قصاري للزرع، ربما لو أردتم أن أنشر لكم بالأركان بعض أزيار المياه، أو حتى أصنع لكم شمعدانات وفوانيس تزين كل مكان، وتُرصع الأسوار.

ـ يريد مولانا أن يزين القبة الكبيرة بالقيشاني الأخضر، كما يريد أن يبلط كل أرضية الجامع بنفس القيشاني. المشكلة هي أننا استقدمنا خزّافين من اليونان، وعرضوا خدماتهم في تبليط

الجامع، ثم وقفوا فاشلين في تغطية القبة، فالبلاط القيشاني مسطح تماما والقبة كروية. قالوا بأن الانحناءات لا ينفع معها القيشاني، فاهتديت إلى أن الحل ربما يكون من طينتنا السوداء، أتخيلها أطوع لصناعة بلاطات منحنية بنسب مختلفة. ولمّا سألتُ دلونا عليك، قالوا: إنك ماهر وبوسعك المساعدة. وعموما لن تكون الأعمال بالسخرة، اطمئن، سيكون لك من العطاء الجزيل.

أنهى المهندس كلامه منبها على المعلم بأن يلتقيه بعد يومين، وخلالهما عليه أن يفكر بحلٍّ لتزيين القبة كما يريد مولانا. وسيكون اسمه مدرجا بكشف من يحق لهم دخول قلعة الجبل.

بعد يومين ذهب إلى الموعد وبذهنه تصورٌ عن الحل. تمهل قليلا، فوقف غير بعيد من بوابة القلعة المفتوحة، عليها حُرّاس مهيبون في أبهة ملابس وعتاد، لكأنها فمٌ يريد أن يحكي لولا الخوف من عساكر يراقبون حتى الشفاه. عندها وجد مساعد المحتسب ينتظره. قال إن الأفندي مشغول في بيته ببعض التصاميم حيث سيكون اللقاء. خلّفا قلعة الجبل وسارا متجاورين على بغلتيهما ومائلين باتجاه الشمال، مطرقين الرأس من شدة شمسٍ مواجهة. مشت البغلتان أقل من ساعة، ثم اتجهتا غربا. المنطقة يعرفها المعلم، كم زار سيدنا الحسين من ناحية باب النصر. وكم مرّ من هنا. لكنه في تلك المرة أحس كأنها المرة الأولى التي يأتي فيها الحي المزدحم. مع أن انطباعنا الأول عن المُدن لا يتغير مهما ازدحمت أو تحولت أو انقلب حالنا فيها للأفضل أو للأسوأ.. وصلا لمدخل الدرب الأحمر، مساجد وتكايا وأسبلة متجاورة، ازدحام البشر أشد من سوق الاثنين بمصر عتيقة، حركة مستمرة، دقّات النحّاسين متداخلة، والخيّامون مُكبون على أقمشتهم

لاقتراب الموسم، لا بد من سباق الزمن لإكمال محمل الحج وكسوة بيت الله الحرام. الألوان اختفت إلا ثلاثة تتماوج بين أيدي المُطرزين والخيّاطين، الأخضر الزاهي والأبيض الناصع والأسود ذو الهيبة والجمال. تحركت نفس المعلم لأداء فريضة الدين الخامسة، كم نواها فأقعدته النفقة، هو في يسار، لكن الحج يفوق مدخرات صانع فخار في زمن ضرائب متصاعدة وغريبة.

قال مرافقه: إنك لمن المحظوظين.

ـ من فمك للسماء.

ـ أتكلم بحق، فقد بدا أن المهندس راضٍ عنك لسُمْعَتِك الطيبة في الصنعة.

ـ معلوماتي عن الأفندي لا تتعدى مقابلته الوجيزة. يبدو أنه ذو حيثية ومكانة عند الوالي؟

ـ محمد أفندي مظهر، واضح أنك لم تخرج من دولابك ولم تخالط الأعيان. سأحكي لك: «واحد من الشباب المحظوظين، نبيه وذكي ونشيط، من أوائل المبتعثين لأوربا، تعلم الهندسة على أصولها وعاد فشارك المهندس الفرنساوي في بناء القناطر الخيرية، ثم أشرف على فنار المكس، واليوم يشرف على ترميم مركز الحكم. كلماته قليلة، كثير الحركة كالخواجات، صغير السن، لكنه عظيم الهِمّة، وابن ناس، يعني من الأعيان أبا وجدا. قرّبه مولانا وأسكنه بيتا في الدرب الأحمر أشبه بقصر، سكنه قبله أمراء ومماليك، تسلّم البيت وكان بحاجة لترميمات كثيرة، فجدّدَ كما سوف ترى».

سور بيت المهندس ممتد حتى قصر السلطان قايتباي، ربطا البغلتين عند الباب من ناحية سوق السلاح، استقبلهما عبدٌ زنجي

طويل يعتمر عمامة كالأعيان، نظيف الثوب الأبيض، ينتعل بُلغة بُنيةً، وبيده عصا غليظة، قام من فوق كنبة عريضة أمامها طاولة قصيرة القوائم، تكاد فخامتها تقول للزائرين: «ما بالك بما في الداخل؟».

بوابة كبيرة تحت تجويف من المقرنصات، تأملها المعلم، تخيل كيف صبوها جبسا. ترتكن البوابة لجدارين بارزين مرصعين بقيشاني أندلسي قديم. ضلفتان عظيمتان، في اليمنى باب يكفي الزائر الطويل، وأمامه مسجد سيدي المغربي. باحة فسيحة تتخللها جداول مياه تسقي أحواض زرع مصممة بعناية تليق بذوق مهندس، وتلفها من ثلاثة جوانب أشجارٌ سامقة مرتفعة، ميّز المعلم من بينها أشجار التفاح والصفصاف وذقن الباشا، وأنواع أخرى غريبة عليه، فكر لو يسأل عنها صاحب الدار، وعلم أنه لن يجرؤ.

بالداخل تبعا خادما آخر في لباس رسمي مزركش، أدهشتهما الوسائد والمقاعد والحشايا وأواني نُحاسية تلمع كالذهب متناثرة. قال المعلم بصوت مسموع: «الله أكبر، تبارك الله» خاف من عينه فرفعها للسقف، فزادته الزركشات دهشة.. سقف مُذهّب، وملون بالأخضر والأصفر والأحمر والأزرق، ومن قلب تجويف السقف تتدلى قناديل ثلاثة من خزف أزرق، ينساب ضوء الشموع من ثقوبها المحفورة بصبر فنان. بينما هما يتأملان، إذ أقبل سيد البيت في زي فلّاح، جلباب مقوس الجيب ومقلّم، وفوق رأسه طاقية مائلة للصفرة.

ـ أهلا وسهلا، تفضلا بالجلوس.

بادر نائب المحتسب: يا سيدي إننا في توت، و«زمتة» البلح تخنق الجو والحرارة شديدة، فكيف...؟

ـ تقصد كيف أن الجو بارد ولطيف، كنت ستعرف لو نظرت فوقك.

ـ نعم، سقف بديع.
ـ لا أقصد جمال السقف، فهكذا تسلمته، بل أقصد ذلك «الملقف» بيت الرياح، يسمح للهواء أن يسرح في مسقط بحري، فتشعر بلطافة الجو.
واستدار بكليته للمهدي، مهملا المحتسب:
ـ ألم ترَ ملاقف من قبل يا معلم.
ـ رأيتها في بعض المساجد.
أشار الأفندي لنائب المحتسب سامحا له بالانصراف.
محمد أفندي مظهر رجل عملي أثّرت فيه حياته بأوربا، يدخل إلى حيث يريد مباشرة، بسط بين يدي ضيفه ألواحا كبيرة مرسوما عليها تصاميم المسجد، شرح له النسب الهندسية لقبة الجامع، وبسّط كلماته العلمية قدر الإمكان. أدار لوحة باتجاه المعلم، قال: سأقرأ لك الأعمال المطلوبة لتعرف ترتيب صنعتك الزماني، والمدة المطلوبة. تفاجأ بالمعلم يقرأ بنفسه. وزادت دهشته، حينما أخرج المعلم ورقة كبيرة من جيبه، يشرح فيها فكرته كاملة.
ـ خطّك حسن ورسمك فنّان. أين تعلمت هذا؟
ـ يا سيدي، نلت حظا بسيطا من التعليم، وحاولت الحفاظ عليه.
ـ بل تعلمتَ الكثير، هذا تعليم راقٍ.
ـ العفو، أنا منكم أتعلم. إن أهم ما في تلك المهمة إتاحة فرصة لأمثالي ليستفيدوا منكم.
كانت فكرة المعلم بسيطة، لكنها ذكية تفي بالغرض، سيقسم القبة قطاعاتٍ دائريةً، كل قطاع ارتفاعه شِبر، وعرضه بعرض دائرة القبة التي تزيد كلما نزلنا بالرسم لقاعدتها، وفي كل قطاع يصب بلاطة من جبس، وإذا جفّ، خلعه وصبّه في مربع أضلاعه من الخشب الرفيع،

مع زيادة نسبة معروفة لدى الخزّافين تتقلص مع الطبيخ بالنار. سيفرد الطين في المربع الخشبي ويضغط فوقه مرارا، حتى إذا ما امتلأ، مرّ على حدود الخشب بسلك صُلب. وفي المرحلة الثانية يُصقل سطح البلاطة ويهذبها ويطوع ميلها والتواءها المطلوب فوق مخدة من حجر صوان سوف ينحته بنفسه. وما إن تجف حتى يحرقها حرقة أولية، بعد ذلك يُطليها بأنواع يعرفها من «الجليز» الطبقة المزججة الخضراء، بخلطة لا يعرف أسرارها غير قلة من أمهر الخزّافين، أهم عناصرها «الفلسبار والنحاس والحديد». وبعد أيام تدخل الفرن كعملية حريق تصل لمئات الدرجات. لكن قبل ذلك لا بد من عملية صنفرة كاملة للقبة لكشط العوالق القديمة، ثم تمليطها بخشونة، فإذا ما وُضع البلاط لصق واستقر. ودون إرهاق سيد العمل بتفاصيل دقيقة قد لا تُهمه، اختصر المعلم كلامه. ثم توقف يفكر كيف يشرح له أن هذا عمل ضخم وشاق، يحتاج لعمالة مدربة وخامات من معادن وأحجار وطين؟

لم يمهله الأفندي، وضع عنه عناء التجرء بطلب أموال من مندوبٍ لوالٍ اشتهر بالسخرة وسَوْق الناس للعمل عبوديةً، فسأله: كم يكفيك من فلوس لتبدأ يا معلم؟

انتهت جلسة العمل، بعدها صحبه المهندس بين أروقة بيته الأقرب للقصور، حتى انتهيا إلى حديقة خلفية ملحقة بمطبخ البيت. شرح له المهندس أنه يريد أن يبني فيها فرنا يكفي لتسوية خروف كامل، تأتي عليه ألسنة اللهب من كل الاتجاهات، ويكون مغطّى من طابقين، بيت للنار في الأسفل، وفرن مكسو بطبقة جليز من الداخل، ومن الخارج يُنمّق بالقيشاني وقطع متناهية الصغر من الخزف. وأصر على معرفة التكلفة.

رجع المعلم مسرورا ومشغولا بأمر الفتى النابغة، كما وصفه لشيخه حسن الأعرج، وتناقش مع شيخه عن الفرنجة. حدثه الأعرج عن ذكرياته أيام حملة الفرنساوية، وقال إن الدمار الذي أتوا به يثبت أن أغلب علومهم شر وظلام.

رعى الفخراني استقرارٌ فاطمأن، الكاتب إذا اطمأن انسال قلمه. فقرر أن يتتبع رحلات ابن عربي. لكنه كان مفتونا بذلك الشاب النبيه الذي استضافه ببيته، وحدثه عن أوربا، هل يمكن لبلاد الكفرة أن تُضيء لنا طريقا للعلوم، فأنشأ ناقلًا:

«ما بين يديك من فتوحات، ليست مجرد نتاج عقل لف بين الكتب، أو من باب ما أنتجته عقول الفقهاء ومُقَعِّدُو العقائد. بل هي، وصدقني، أسرار ومواهب من لدنه سبحانه لما قلت له: إن زادي إخلاص وبُغيتي خلاص. فجاءت واردات روحية، وهطلت كشوف، وأضاءت مصابيح ما لي فيها يد غير إرادة تجرد، ذوبانا في ذات من لا توصف ذاته سبحانه، فتلقيتها بحمده في ساعات صفاء بقرب الحبيب. هل تعلم أنه لما ركب موسى السفينة مع الخضر، رأى «الخضر» طائرا وقع على حرف السفينة، ونقر في الماء.

سأل الخضر: يا موسى ما يقول هذا الطائر؟

- لا أدري.

- يا موسى، يقول: «ما نقص علمي وعلمك من علم الله، إلا ما نقص من هذا البحر منقاري».

المعلم والمهندس كلاهما لم يصدق ما وجده. الثاني أدهشته دقة مواعيد الأول وروعة ما صنعته يدُ مصري بسيط. لقد أتى بالعجائب حسب ذوق المهندس واطلاعه على فنون الخزف العالمية. وأما

الأول فشعر بأن ما بين يديه من أكياس نقود تسلمها حلم وغير حقيقة. مال وفير لم يمتلك ربع قيمته يوما.

ـ هذا كثير يا سيدي.

ـ بل هو أقل مما تستحق، إنك جئت بما يفوق تصوري.

ـ أنا متعجب.

ـ ولم العجب؟

ـ يوم ساقوني لهنا بين يديكم، كل ما دار هو السخرة والعمل مقابل اتقاء شر الجنود والحكومة. أقولها لكم بصراحة: إن من ضيق بيت نار الخوف، يستوي الفرج فَخّارا زاهيا.

ـ أنت حكيم أيضًا.

ـ بل الدهشة تُنطق الحجر، وما أنا إلا روح تسكن فخّارًا كتلك التي أصنعها لكم.

ـ الحكومة أساءت لسمعتها بسوقها الآلاف سخرة للعمل في المشاريع الكبرى، ولكني في كل ما أُشرف عليه بأمر مولانا الباشا قد اشترطت سلفا بإعطاء الناس حقوقهم.

ـ الحمد لله أنه ما زال في بلدي من يفعل هذا.

ـ يا معلم، هذا البلد مليء بالخير، فقط لو أخلص كل واحد في عمله وأتقن صنعته فسيصير لنا شأنٌ بين الأمم ومكانة نحن لها أهل. أنت مثلا، كل ما فعلته أنك أتقنت مهنة ورثتها فأبدعت فيها لمجرد اهتمامك بتفاصيلها.

ـ الله يؤتي من يشاء ما يشاء، وأنا ليس لي من فضل ولا دور غير تلقي التوفيق بشكر واهتمام بالتفاصيل.

ـ دعنا نلتقِ يا معلم، بيتي مفتوح لك في أي وقت شئت، وكذلك مكاني هنا بالقلعة.

انحدر من قلعة الجبل عبر بوابتها المهيبة. دخلها وفي بيته قوت أسبوع وبدولابه مئونة شهر من مواد خام، وخرج وهو من الأغنياء، بحسب ما قبض ووفقا لما ينتظره من أموال حال انتهاء الطلبية. شكر مولاه ورافقه طيفُ حبيبته: «ليتكِ يا حميدة كنتِ معي». كم اشتاقت لمعيشة الأثرياء، كم اشتهت المصاغ والزينة، كم صبرت على ليال جنونه وشهواته، وكم شاركته المشقة أياما كثيرة وليالي لم يكن ببيته كيلة زيت أو حفنة دقيق. قال «سأعوض عزيزة لصبرها على تربية الولدين، وأجعل للفقراء نصيبا، فالمال يا ربي مالك والجاه جاهك، وما يتبقى فأنت الحسيب كفيل بإرشادي لسبل الإنفاق فيما يرضيك».

تذكر ما كتبه بمخطوطه قبل شهور: «إذا أردت التمكن من صنعتك، فخاطب الكون كله بأفلاكه بأنك الوحيد الذي يستحق عنايته بالمهنة الطيبة». تساءل: هل سمع الكون الحديث فنقله للأفندي، فاستدعاه لشغل سيبقى ما بقيت قلعة الجبل. حمد ربه، وفي الصباح نفّذ ما نواه، أنفق كمن لا يخشى عوزا أو ذاق فقرا. أولم لأهل الله وفك كربات خمسة غارمين. اشترى خلخالا وخاتما من الذهب الحر لعزيزة، دفع عربونا لحفر بئرٍ سبيلا لأهل صناعة الفخار ممن لا بئر خاصة لهم. وتبقت ثلاثون ريالا ذهبيا وضعفها فضة.

قالت عزيزة: «سيدي إن عافيتك أهم عندي. فلو استأجرت صنايعية واشتريت دولاب أبناء المخزنجي، وأجزلت لهم، ونلت بعض راحة تُعينك على سهرك المتواصل في القراءة والكتابة، وإن شئت بنيت بيتا كبيرا بما سوف يأتي بإذن الله من فلوس».. سرح بخياله، فرأى بيتا من طابقين في أعلاه حرملك لعزيزة وخادمتها وأسفله مقعدة لضيوفه وحوش واسع لحضرات إخوانه وغرفة تمتلأ بالكتب، وقصاري زرع تحرس ماء نافورة في وسط البيت،

وباب كبير عليه بلاطة خزف أخضر يصنعها بيده وينقش عليها «لا غالب إلا الله.. بيت الفقير لمولاه المهدي».. كالتي رآها في بيت الأفندي وأخبره أنها من بلاد الأندلس. قال له حموه وشيخه حسن الأعرج: «الكتمان يا معلم. فالنعمة إن لم نحطها بستر، تصبح هدفا للحُسّاد والمبتزين».. والحقيقة أن الحاسد تكفيه لقمة، واطعم الفم تستح العين.

أمسى مسرورا، أعدّت عزيزة جلسة للسمر، فرشت كِليما، ونثرت حشايا ونصبت طبلية، وسيدها يتأمل سماءً منيرة لمعت كغِربالٍ فتحاتُه نجوم لا تُحصى، سبحان من شقّ الظلام ونثر مصابيح نور.. أوقد نارا فاقتربت قطةٌ وديعة تسأل دفئا وزادا. رمى إليها بقطعة لحم وهو يتخيل نفسه قطًّا. إنه يكاد يقترب من دفء الروح وعافية المحبة. من رُزق الرفق بقطة عجماء لا تنطق، سيسعى للرفق ببشر فقراء تنطق عيونهم بالضعف.. في الصباح أمسك المعلم بثعبان كبير يتلوى خلف تلٍ من القصاري الطين، قال لصبيانه المتجمعين مذعورين، وقد لفّ سبابته وإبهامه أسفل الراس المخيف: «تختبئ الحيّات في طريق الصالحين، من خافها لدغته، ومن وقف بوجهها وجدها حبلا لا يضر».

كم بالحياة من نِعمٍ، من أجملها نعمتا صاحب وكتاب. وأما الثاني فلدى المعلم سِفر فتوحات لا ينتهي وكتاب كون مفتوح. فهل قرر الكون منحَه صاحبًا؟ ترتقي المحبة درجة، فترتفع الكُلفةُ درجات. الصداقة بئر يُثري نزحُ الأسرار مياهَه، لولاها أصبح الغريب وحيدا. تفتحُ لآخَر قلبَك فتعيش بقلبه، بالصداقة تصير لك حياتان. كتب المعلم: «سفرك غانمٌ بصديق، وسالم بحبيب. انفتاحك على القراءة

أشبه بمفتاح لبيوت لا تُعد ولا تُحصى، اختيارك البيوت لا يتوقف على بهرجة ألوان الأبواب. دع روحك يختار ما تقرأ، واترك الزمن يُهديك صديقا».

رافق محمد أفندي مظهر في رحلة للإسكندرية، إلى قصر الوالي في رأس التين من أجل إصلاح شبكة المجاري وتطويرها ببرابخ من الفخار (أسطوانات لنقل المياه والصرف). انتهت الأعمال في أسبوع. قبل العودة كان الأفندي مهموما، بث للمعلم كيف أن الوالي يفرط في أعظم الرجال، استنفذ أهل الخبرة، قرّبهم، ولما صاروا أهل ثقة شكّ في أغلبهم فنبذهم. لا أمان قرب ذي سلطان، بلاد الاستبداد تقوم على أهل الوشاية، وبلاد المستقبل تنتقي أهل العلم والخبرة. قال: «هل تصحبني متنكريْن في زي عُربان، نزور صديقا اعتذر عن خدمة مولانا؟».. لم يفهم المعلم معنى «الاعتذار عن الخدمة»، هل يملك أحدٌ أن يقول لا، فضلا عن أن يرفض خادمٌ إنعامات سيده، ويزهد في قربه؟

كقصور الحكايا وحدائق الأساطير، بغربي رأس التين بيتُ قائد الأسطول المستقيل «عثمان نور الدين الدين باشا» أهم رجال مصر بعد الوالي وولده إبراهيم باشا، صديق قديم للأفندي من أيام البعثات في فرنسا، تشاركا مع الكولونيل سيف في وضع برنامج التعليم العسكري، وخَلَفَ محرم بك في قيادة الأسطول، وأُنعمَ عليه برتبة الباشوية. قاد الأسطول في معارك كبيرة فتحت الطريق أمام الجيش المصري للشام بحصار عكا. فذٌّ من عباقرة زمانه، تمسك بالشجاعة فجاءه العلم ورافقته الحكمة وعرفت نفسُه مقدارها. في كل ثلاثة أشهر يناور بالأسطول في عرض المتوسط، يجوب المياه الزرقاء رافعا علم المحروسة. في العام الماضي وصل مع محمد علي باشا

لجزيرة كريت، نظّما الإدارة والحكم، وأقرّا التعاليم والدواوين. واقترح عثمان باشا اختيار ميناء هناك اسمه «السوده» ليكون قاعدة للأسطول، واختلف مع الوالي في قراره تجنيد الكريتيين، فثارت شكوك بنفس محمد علي كعادته في ولاء الناس. وأصرّ على تجنيد أهل الجزيرة تجنيدا يجمع السخرة والذل، عاملهم كعبيد يصطادهم له النخاسون في أدغال السودان وما وراءها.

بـ«تكريت» شب تمرد وحمل الناس السلاح وحاصروا حامية الجزيرة التي يرؤسها «مصطفى باشا الأرناءوطي»، وكان ظالما، لم يستمع لنصائح عثمان باشا في العدل وأن الإحسان للرعية مفتاح الاستقرار. بعث الأرناءوطي يطلب المدد، فأغاثه عثمان باشا على رأس قوة، وأسر العشرات من رءوس الفتنة. استقر رأي الأرناءوطي على البطش وإعدام المتمردين المأسورين. الأمر الذي رفضه عثمان باشا تماما، وقال: «هكذا تزيد النار اشتعالا، لا تغتر برماد في طقس غير مأمون الريح، الأفضل أن تأخذهم باللين وتعفو؛ فتكسب ودهم بعد أن رأوا من قوتنا وبطشنا ما يجعلهم يفكرون ألف مرة قبل تكرار التمرد. الضغط المتواصل مع الظلم والفقر عوامل ستهزّ الجزيرة كلها من تحت أقدامك».

الغيرة والحسد «بربخان» على رأي الفخرانيين، يصبان في مجرى واحد للحقد، وبدوره ينتج الخراب؛ فقد بعث الأرناءوطي سرا للوالي في المحروسة وقلّبه على عثمان باشا، فأصدر الوالي تعليماته من فوره برفض العفو وقتل كل من وقع أسيرا من المتمردين. وأمام البطش ورفض الأخذ بالرأي والمشورة، غضب عثمان باشا وطلب بإباءٍ اعتزالَ خدمةِ الوالي والعودةَ لموطن رأسه في جزيرة مدللي.

شرح له محمد أفندي مظهر أن زيارته لوداع صديق شريف، وأن

اصطحابه معه في زي العربان بهدف التمويه وإخفاء الأمر، فقد يطوله شر لو علم الوالي بزيارة لأحد المغضوب عليهم.

دخل الأفندي وانتظر المعلم بحديقة القصر الغنّاء، يقارن بين «كريت» وأسيوط، كيف أن هروبه وغربته وهمومه هي من ذات السبب الذي ثار لأجله الكريتيون. لا شيء غير رفض المذلة والمهانة، وقبلهما هجر الأرض، والتطبع بما لا يألفه الناس. الناس لا تطمئن لغير ما اعتادت عليه. أي تغيير عنيف وسريع سيُنتج ردات فعل أكثر عنفا. أسوأ ما يمكن أن يفعله حاكم هو دفع الناس نحو أمرين لا ثالث لهما، الانصياع التام، أو الموت خبطا على حائط سلطة عمياء.

في الداخل ودّع مظهر أفندي رفيق دربه وداعا يليق بالمحترمين من الرجال، وعلى خوف. فالوالي يشك في أصابع يده، أصابع يده أظافرها عيونه، وعُقَلُها عَسَسُه ومخبروه. بالخارج وقف المعلم المتنكر في زي بدوي يراجع حياته متعجبا كيف يظلم الحاكم وهو ظل الله في الأرض. دوّت بقلبه «آهٍ»: كم تنكر وكم تخفّى، مرة بدق صليب لم يزل مطمورا تحت رباط بات من معالم رسغه، ومرة في زي راهب، ومرات من إنكار سؤال «من أين أنت؟».

«من أين أنت؟».. قالها ضابط ظهر فجأة أمام المعلم المتنكر. سأله مباشرة ولم ينتظر إجابة: «لقد رأيتك من قبل؟ نعم أنت الفخراني من مصر عتيقة».. أُسقط في يدي المعلم، لم يعرف بما يرد على سائل ثقيل الظل يرتدي سروالا أبيض مائلا للصفرة منفوخا على الفخذين وملتصقا على الساقين. نظر إليه مليا، تأمل وجهه الأسمر تحت الطربوش الأحمر في سترة زرقاء فخمة، ويفصله عن السروال نطاق مشدود من الجلد وعلى كتفيه هلالٌ، تسكن جواره نجمة كلاهما من الذهب الخالص. قال المعلم محاولا تدارك الموقف الخطير:

ـ عفوا سيدي، يخلق من الشبه أربعين.
ـ كُفّ عن المراوغة. وما الزي الذي ترتديه؟
ـ يخلق من الشبه أربعين.
ـ مم تخاف؟ أنا منذ فترة أفكر في زيارتك، لعلك تذكرني. أنا مررت عليك مرة يوم ذبحت وأولمت، ولم تعطِ الحكومة ما لها. هل تذكرتني؟ يبدو أن الغنى الذي نلته من قلعة مولانا الباشا جعلك تُنكر الوجوه.. أعرف عنك كل شيء.
سكت المعلم، واستمر الضابط..
ـ أنا البكباشي أحمد أفندي الفقي. يوم مررت عليك كنت ضابط صف صغيرا، لكن لإخلاصي لمولاي ترقيت أكثر من مرة. قل لي: من تنتظر؟
ـ الفرج.
ـ يبدو أنك داهية.
ـ ليس في الفرج داهية.
ـ ماذا تقصد؟
ـ أنا على باب الله، وحضرتكم من ذهب بعقله للداهية.
ـ تُعرِّض بي، حاسب لكلماتك.
ـ العفو، لم أقصد سوءا، أنا فعلا أنتظر فرج الله.
ـ كلنا كذلك، من تنتظر؟
ـ كما أخبرتك يا سيدي، أنا جئت للإسكندرية في عمل، وأترقب الثمن.
ـ أنا أستطيع أن أقبض عليك فورا.
ـ لم أرتكب جريرة.
ـ بجريرة أو بغير جريرة، أنا ممن يفعلون ما يريدون، وإن أخذي باطش.

ـ الله غالب.

ـ والله أمرنا أن نضرب على أيدي اللصوص والمشكوك في أمرهم. أستطيع أن أسوقك مع تهم كثيرة، أقلها السرقة من بيت الباشا. عموما سأتركك لتعلم أني رجل طيب، أنا في مهمة سريعة لإبلاغ صاحب هذا القصر بوجوب مغادرته فورا، وحينما أعود للمحروسة سأرسل في طلبك.

موهوم لو اعتبرت الحياة سلاما دائما، دورك أن تُعد للكوارث نفسا مطمئة بيقين نجاة، يقول المعلم: «كم داهمت خطوبٌ ومرّت، كانت ثم ولّت، وتركتك كالصخر، أوهنتك فمنحتك من قوتها، وأقلقتك ولم تُقلقلك، غمرتك بأحزانها فحفزتك على السير نحو الاستقرار».. فكّر أن حياته في أثناء هروبه لم يكن لها قيمة بقدر ما هي اليوم. هو اليوم يمثل عزيزة والأبناء، يعتمد عليه حموه الأعرج ويعتبره سندا وضوءا في الظلام. «قيمتك الكبرى» يحدث نفسه: «مواصلة السير في التدوين، لعل أحدا يأتي فينتفع بالكلام، أو يذكره كفرخ حمام وقف على غصن وغنّى؛ فيترحم عليه». بالكتابة نتقوى.

بنصف عين ينام.. كذا يصف أهل المحروسة محمد علي باشا، الذي نمى إليه ما هو على علم به من صداقة محمد أفندي مظهر وعثمان باشا، وإن كان يطمئن للأفندي ويحتاجه، إلا أن عيونه متيقظة والواشين حاقدون على الدوام. ولم يكن المعلم ولا الأفندي على دراية بأنهما مراقبان في رحلتهما للإسكندرية، والمراقب هو ذلك الضابط الذي تحدث إلى المعلم، وقبل ذلك جمّع عنه ما استطاع من معلومات واكتشف أن ذاكرته عن الوجوه قوية، وربط المعلومات، فكاد أن يصل، أو بالفعل هو وصل إلى أن الفخراني قد يكون أحد

الهاربين من الصعيد، متسحبا أو متمردا في إحدى المعارك. كان بوسعه كشف الأمر لكنه أرجأ ذلك لسببين، ثانيهما وهو الأهم عنده أن المعلم كنز سيبتز منه حتى ينفد، والسبب الأول أن شفاعة محمد أفندي مظهر متوقعة، وقد تفسد عليه قصةُ هارب مضت عليه سنون. والواجب التريث حالما يُحكم خيوط الوشاية على الأفندي أولا.

طول الطريق من الإسكندرية لمصر كادت هموم المهدي أن تُظلم. قلّب أمر ذلك الضابط الذي كاد أن يكشف سره، قال في سره: إنه صار ذا نفوذ بقربه من محمد أفندي مظهر أحد المقربين من مولانا الباشا، ونفوذ كهذا كفيل بتدبير المنعة والحماية. فكّر لو أخبر صديقه الأفندي، تراجع متصبرا: «حسبي الله وكفى».

أحس الأفندي، فبادر بملاطفة:

ـ لقد سعدت بصحبتك.

ـ سعادتي أكثر يا سيدي.

ـ دعك من التكليف، لا محل لإعراب «سيدي» بيننا. لا تبدو عليك سعادة.

ـ أفكر في أمر عثمان باشا والوالي.. الحقيقة أني أفكر في حالي وحالك وحال كل الناس في بلادي. المصري ليس له من أمره إلا ما أراد أسياده.

ـ بالعلم نصبح أسيادها.

ـ بالظلم يبقون.

ـ الأساس هو المصري، أنت وأنا. نحن أصلها وأوراقها الخضراء. قال لي صديق أزهري رافقني لأوربا إن ياء النسب لا تكفينا.

ـ تقصد الياء من «مصري».

ـ المصري ليست مجرد نسبة صرفية لـ«مصر». نحن أعمق من ياء

النسب. انظر إلى حقل بعيد في الصعيد، تجد أرضا وجاموسة تدور وتهرس سمادًا منها، وترانا كلنا ذرات في سلة طبيعية واحدة. في الليل وقبل البذر والحرث، نحلب الماشية، ونصنع من ألبانها جُبنا قديما مُملحا ومِشًا. تلفحنا شمس الضحى، فنقتات ما صنعناه، نعرق وتغرق جباهنا وسواعدنا بعرقنا المالح، فيسري للأرض لتنصلح، فتُخرج مع الملح وروث البهائم والبذور خضراوات، نأكلها ونُطعم منها الماشية، فنأكل من لحمنا. ثم نعود كلنا واحدا، الأرض والبشر والأنعام. نحن ملح الأرض.

ضحك المعلم قائلا: ملح الأرض داسوا عليه، فحقّروا المش والجبن القديم، وقدّموا الجبن الإستانبوللي.

في الطريق تذكر كلام ابن عربي ملطفا ما لاقاه في سفره من نصب: «أحمد الله الذي لا يُخلي عبادَه من صنع لهم تنطوي عليه أثناء النكبات إذا طرقت، ولطف بهم يُلَيِّنُ صِعابَ الخطوب إذا جمحت. ألطاف الله تسير إلى عباده في طرق خفية المذاهب، رقيقة الجوانب. لله مع كل لمحة صُنعٌ حفي ولطفٌ خفي، لله ألطافٌ سيبلغ الكتابُ فيها أجلَه، ويعمل الإقبالُ في إتمامها عملَه. صنع الله لطيف، وفضله بنا مطيف».

لا شيء إلا الحب

وأنا أعالج المخطوط عالجتْ نفسي خطوطُه، منحتني ومنحت زين العابدين قوة دافئة. كنت أندهش جدًّا من صلابة المهدي، من ثباته وهو يخطو فوق طريق مجعدة مكمونة بالأفاعي والحفر. أحيانا أشعر بأنه مصري بكل ما تحمله ياء نسبها من عمق تاريخي، على الرغم من ارتباطه أو انصهاره في شخصية ابن عربي. ملخص ما عاينت من

المخطوط هو الاهتمام بالهوية مع الشغف بالإفادة من كل الهويات. هويتنا ملخص تجارب البشر ومحصلة سير الباحثين عن الحقيقة فوق كل طريق.. ربما ألممت ببعض من سمات شكله في حديث زين، أو تخيلت ملامحه كوجه زين. الشيء الذي أحسست به بنفسي هو صوت المهدي. أُغمض عيني في الظلام قبل النوم، أحاول تخيل صوته، عبثا أحاول التخريف بأن بالإمكان اصطياد صوته الذي ضجت به الأمكنة، الطرقات من مصر عتيقة للمعادي، في المعادي وفي بيت الفرنساوي، في القُللية حيث دواليب الفخار. لمرة وحيدة شعرت بأني أسمعه، صوته مزيج من جريان نهر عجوز وجفاف صخر جبل بأسيوط قديم. هل هو حقا من أولياء الله الصالحين؟ منعني عن ذلك غرور البحث العلمي وكبرياء ما ندعيه من عقل في عصر مادي. هو صاحب تجربة إنسانية مميزة وفريدة، تجربة روح محلق ونفس مسبحة سابحة بملكوت. من البشر من تمنى الصعود للمس السماء، ومنهم من تمنى إنزال السماء إلى الأرض. الأرض واحدة والتجارب شتّى، لكل إنسان تجربة إنسانية، كل تجربة عميقة. يبقى الفرق في شكل التجربة، أيام الآلام وساعات الفرح. كلنا بلا استثناء تعرض لموجات من خوف وكلنا ذاق لحظات من سعادة. أكيد أن هناك محظوظين، لكن يظل تعريفنا للحظ مختلفا. هل هو المال أم الولد أم المنصب والجاه، أم الخطو فوق طريق وإدراك أنها الطريقة. تبقى حياته محطاتٍ غريبةً. هل التجربة علامة الولاية؟ أم أن الولاية تجربة فاشلة؟

وأعود إليه أتخيله في بيته، لم يغادره الهم، وجد نفسه منشغلة بأمر الضابط، قال: «إن انشغالك بخطر الخلق عدم يقين بمعية الحق» فقرر الانشغال عن الهموم بورد تسبيحات، ثم نشط فقام يتابع سيده ابن عربي في رحلته من مصر إلى مكة الشريفة:

«قال لي سيدي: في الطريق توقفتُ عند جبل الطور، هنا تجلى الله لموسى فصُعق. رهبة اعترتني، لازمتني أغلب المسير، فانتشلني الشوقُ لمكة، وما إن دخلتها حتى هدأت النفس، فارتاح جسدٌ مُضنى لطول الرحلة ومُنهك من هرولة الطواف. سِنةٌ من نوم مسّتني، فرأيت ما تَعْلَمُ من رؤياي الحبيبة التي فتحت لي باب الفتوحات، فأنشأتُ كاتبا غير كالٍّ ولا بي تعب».

بعد منام تذكر فيه حميدة، فاشتاقها. ركب بغلته وفي نيته زيارة قبرها. قرأ عندها الفاتحة وأنام جوارها سعفَ نخلٍ أخضرَ، لعلها يطيب خاطرها، خاطرها طيب. تَمَشّى مُطوفا بحواري مصر عتيقة، انتهى لشط النيل، الماء الجاري يُسر الروح، في تمشيته لم ينشغل بغير شكر مولاه، يتأمل النعم الكثيرة. من أجل إنعاش النفس وانتشالها من الكسل لا بد من تفكير في النعم.

قال: «لك الحمدُ على عطايا لا منتهى عدد يحصرها، ولا ذكاء عقل يحوطها». امتلأ سرورا، وانتعش محبة، ورق بالذكريات فأقبل على الحياة. لو ضقت بظهور الأشرار فتذكر أصحاب خير تزينت بهم حياتُك. فتذكّر المعلم أصحاب الفضل، هم كُثُر. منهم الراهب الطيب على جبل أسيوط، تخيله وهو يمر من أمام الكنيسة المعلّقة بمصر عتيقة، دخل ليسلم على راهب صديق، ويُهنيء بعيد الغطاس.. قصاري زرع أخضر منتعش تُعبد الباحة مقابل الكنيسة، قال له صديقه الراهب وقد وقف يسقيها، إنها الروزماري، إكليل الجبل، يمنح الاسترخاء، وينعش الحفظ، يملؤنا بالنشاط ويقوي القلب. خذ واحدة واجعلها ببيتك، وسوف تُسر. ولو أردت شبابا دائما، فهذه حفنة من لبان دكر، تنقعها بالماء ليلا، فتُجلى القروح ويصفو الصوت ويقطع الرائحة الكريهة. ابتسم مودعا وشاكرا.

تعجب من حال الزمن، كيف صالحه، ثم خاصمه، ثم هشّ في وجه وبشّ قبل أن يسلبه حبيبته، وما إن أعطاه الولد وقرّبه من السلطان بتعرفه إلى محمد أفندي مظهر، حتى عاوده قلق لا يتركه منذ رحلة هروبه من أسيوط. كتب على هامش مخطوطه: «إن اقترابنا من ذوي السلطان يركننا إليهم، فيريد الله تعالى أن نتذكر بأن الأمن في جنابه والأمان في معيته، فيأذن للقلق أن يعترينا، حتى نُفيق».. شوقه لحميدة ألجأه لأشعار ابن عربي في ترجمان الأشواق، وقد تتبع بقية حكايته أو جانبا منها في مكة».

تابع سيدي ابن عربي حكايته فقال: «الحب، لا شيء غير الحب هو الخلاص. لما نزلت مكة سنة خمسمائة وثمان وتسعين التقيت بجماعة من الفضلاء وعصابة من الأكابر والأدباء والصلحاء بين رجال ونساء. لم أر فيهم مع فضلهم مشغولا بنفسه، مشغوفا فيما بين يومه وأمسه مثل الشيخ العالم الإمام نزيل مكة البلد الأمين «مكين الدين زاهر بن رستم الأصفهاني»، وكانت له بنت عذراء، طفيلة هيفاء، تقيد النظر، وتزين المحاضر وتحير المناظر تُسمى بالنظام، وتلقب بعين الشمس. ساحرة الطرف، عراقية الظرف، إن أسهبت أثعبت، وإن أوجزت أعجزت، وإن أفصحت أوضحت. إن نطقت خرس قسُّ بن ساعدة، وإن كرمت خنسَ معنُ بن زائدة، وإن وفت قصر السموأل خطاه، وأغرى ورأى بظهر الغرر وامتطاه. ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض، السيئة الأغراض، لأخذت في شرح ما أودع الله تعالى في خلقها من الحسن، وفي خلقها الذي هو روضة المزن. شمس بين العلماء، بستان بين الأدباء، حقة مختومة، واسطة عقد منظومة، يتيمة دهرها، كريمة عصرها، سابغة الكرم، عالية الهمم، سيدة والديها، شريفة ناديها. مسكها جياد، وبيتها من العين السواد ومن الصدر الفؤاد. أشرقت بها تهامة، وفتح الروض

لمجاورتها أكمامه، فنعمت أعراف المعارف بما تحمله من الرقائق واللطائف. علمها عملها. عليها مِسحةُ مَلَك وهمة مَلِك.

وأحببتُ، مع أن معشوقي الأولَ والأخيرَ هو مولاي، الذي خلقني وجعل في قلبي تعلقا بالجمال، وقد انتهز بعضُ ضعاف النفوس الفرصةَ، وتخيلوا أنهم أمسكوا بهدفهم وأحاطوا بقنصهم، فراحوا يعيبون على أشعاري في حبيبتي. حتى اضطررت لشرح ما في ديواني، ليعلم القاصي والداني أن الحب ليس كما يتخيلون. لا يعرف الحبّ غيرُ قلبٍ محب. الحاسد تمنعه الكراهية من إدراك ألوان المحبة وطيوفها. بل إنني كنت أطوف ذات ليلة بالبيت فطاب وقتي، وهزّني حال. فخرجت من البلاط من أجل الناس وطفت على الرمل، فحضرتني أبيات فأنشدتها أُسمع بها نفسي:

ليت شعري هل دروا ... أيّ قلب ملكوا

وفؤادي لو درى ... أيّ شِعب سلكوا

حار أرباب الهوى ... في الهوى وارتبكوا

هل نمتُ فشعرتُ بضربة بين كتفي بكفٍ ألينَ من الخزّ، فالتفت فإذا هي جارية من بنات الروم، لم أر أحسن وجهًا، ولا أعذب منطقًا، تُناقشني فيما قلته.

يا معلم، إننا بالمحبة نقترب من الملائكة، ونواجه الشرور. بالحب نمحو أحقادا نابتةً في صدورِ من نلتقي وباديةً، بالتسامح نتقي الأخطار. كما قلت لك: كما قلبُك تجد القلوب حواليك والكون».

هل أسرّ إليه السرور برائحة بيضاء فشعر المعلم المهدي باقترابه من دنيا الحقيقة، لقد طال نومه في دنيا الخيال. بلا تفكير وجد لسانه يردد سورة الضحى، ولما كررها ثلاثا، قال: «اللهم صل وسلم وبارك على من خيّرته، فاختار الرفيق الأعلى».

لا تكف عزيزة عن الشكوى من عبد الرسول (ابن الفلاحة)، كما تناديه أحيانا، تقول: إن عبد الصمد ملتزم في حفظ القرآن، ويسبق ابنها محيي الدين، الذي تراه يليق به تعلم صناعة تنفعه. قال المعلم: «لم يبلغوا الحلم يا أم محيي الدين، والحُكم متروك للزمن وفق حظوظهم. وأما عبد الرسول فأدبيه كما شئت وليس عليك من حرج. أخاف لو ضربته، أنت تعرفين غضبي. والله يهديه».

قبيل الغروب هجمت موجات الابتزاز بلا إنذار. زار الضابط «الفقي» المعلم في دولابه، تلطّف في الكلام، قال إنه مفلس وعليه ديون والمعلم كله نظر. والحقيقة أن نظر المعلم يكره رؤية الفقي، ولم يكن من بُدٍّ غير إعطائه ما يريد بحسب المتاح. وتكررت الزيارات، صار الأمر ثقيلا، في مرات إن لم يجد فلوسا يطلب منه أن يأمر الجزّار بإرسال خروف ويدفع المعلم ساعة الفرج.

كيف السبيل لقطع زيارات ذلك الثقيل؟ فكّر المعلم كثيرًا ولم يصل لحل. وفي مساء سخي بالهواء العليل الغريب على شهر توت استلقى المعلم على فرشة مبسوطة أمام باب بيته مهموما بحال عبد الرسول، حيث زادت مشاكله كثيرًا، صحبه للعمل، فضجّت الفواخير من أذاه، طفل عنيد، كم أفسد وكسّر من شُغل الناس، وكم ألقى في أحواض طينهم من مِلح يعلم أنه يُفسد الطين. قبل يومين اشتعل حريق في كومات مصاصة قصب أمام دولاب أحد الجيران، اتهم الناس عبد الرسول وأنكر المعلم وفي داخله تيقن أن ولده الفاعل. ضربه كثيرًا. عرف من عينيه أنه يحمل حقدا على أخويه، خاصة عبد الصمد ابن حميدة، حسده كثيرًا. مرّة قلّب عليه محيي الدين، فاشتركا في ضرب ابن حميدة، وكان جزؤاهما شديدا بعصا المعلم.

نام يفكر أن عبد الرسول لا تأتي من ورائه غير المصائب، زوّد

همومه بتفكيره في أمر الضابط المبتز. قبل أن يغفل دعا ربه: «اللهم اكفنيه بما شئت كيف شئت، واحفظ أولادي».. في سنة نومه رأى أنه يسير في جنازة مهيبة وبجواره ابن عربي يقول له: «سرُّك في بئر صدر الشيخ، وأشار إلى جثمان محمول». وقبل أن يمضى نبهه قائلا: «احذر فزرع الشيطان يأكل قمح البيت».

استيقظ مفزوعا، لم تكذب عليه رؤية ما، تحمل الرؤى إشارات وألغازا لا يفكها إلا من أوتي من المواهب ما شاء رازق المواهب. اصفرّ لونه، وتسارع دقّ قلبه، فنادى على عزيزة لتسقيه.

سألته: كفى الله الشر يا معلم ما لك؟

ـ رؤية غريبة يا عزيزة.

ـ خيرا، اللهم اجعله خيرا.

حكى لها وهو يعلم أن المسكينة لها أسرارها مع خالقها، فحبست بكاءها:

ـ الجنازة أرى فيها أبي، فالمرض قد اشتد به، وأما الزرع الشيطاني فهو ما يُفزعني.

الحقيقة، أن المعلم في انشغاله بأعماله التي توسعت ترك أمر الصبيان لامرأته الصابرة عزيزة، لم تتلكأ وهي تحاول العدل الصعب بينهم. بل لعل الرعاية الكبيرة اختصت بها ابن ضُرتها حميدة. هل آن وتحتم وقت مشاركته لعزيزة في الرعاية؟ هي نفسها أولى بالرعاية. أول قرار عزمه أن يختبر الأبناء، فينظر ماذا ينفع كل واحد منهم من طريق أو صنعة أو تعليم. قال: «إن أولى درجات السعادة اكتشاف ما له نصلح».. جمع ثلاثتهم: عبد الرسول الذي ناهز الحلم، وشقيقيه عبد الصمد ومحيي الدين اللذين يصغران الأول بنحو عام. تكلم معهم، حدّثهم عن غربته الطويلة دون أن يأتي على تفاصيل هروبه ولا سبب

هجرته بلده. حكى لهم عن أبيه وأمه وعمته وأخواله، كاد يبكي وهو يذكر أخاه. قال: «إن أول صوت يصدر من متألم هو كلمة «أخ»، أخوك هو أقرب الناس إليك. سندك في الحياة، ذراعك التي تحميك، وظهرك الذي تعتمد عليه. مالُك لأخيك، وحياتك دونه». راح يقص عليهم ما يذكره من مواقف بين الإخوة، ويُبسط لهم الكلام عن صلة الرحم. أمر ثلاثتهم بقراءة سورة الواقعة أمامه بالتناوب، وتخايل وهو يصحح لهم ما انكسر من أحكام تلاوة، أو انحرف من تعثر تشكيل.

في اليوم التالي أحضر من دولابه ثلاث قُلل كبيرة، وعلى مدى أيام راح يبول في كل واحدة، وما إن امتلأت القلل، حتى أحكم سد أفواهها بالجبس. في الليلة الأولى نادى على عبد الرسول أمام أعين إخوته. واختلى به في غرفته، أعطاه إحدى القلل، قال: «إن فيها شيئا يساوي عرقي، قررت أن أحفظه هنا، لو بقي معي خفت على نفسي، فالأيام لا يُؤمن جانبها. احتفظ به لإخوتك ولك. لا تفتحها إلا بعد وفاتي. هو شيء مني، ولا تخبر أحدا. فقط، أعلمني أين ستُخبئها».. بعد يومين كرر مع عبد الصمد ما فعل مع عبد الرسول، ثم بعد ثلاثة أيام فعل نفس الشيء مع محيي الدين. وراح يراقب الثلاثة.

صدق ظنٌّ أسره في نفسه ولم يبده لهم، فقد اكتشف أن ولدي حميدة وعزيزة احتفظا بالقلة كما هي، وأما عبد الرسول فغاب يومين بحجة أنه ذهب لرؤية أخواله في منيل شيحة، ولم تكن القلة في المكان الذي خبأها به وأعلم به أباه. يومها علم المعلم ما ظل ينكره، أن عبد الرسول يؤثر نفسه على أخويه، لم يتخيل أنه يكرههما، لكن نما بنفسه أن نفس عبد الرسول تحسد شقيقيه.. جمعهم ذات ليلة، طلب من كل واحد أن يأتي بالقلة، اندهشوا أن لدى كل منهم قلةً. أسرع محيي الدين وعبد الصمد، وعبد الرسول تلكأ.

ـ أين يا عبد الرسول؟
ـ أين ماذا؟
ـ القلة.
ـ أنت تهزأ بي.
صاح وهو يوجه كلماته لشقيقيه:
ـ أبوكم الشيخ الجليل يهزأ بنا. لقد أمّننا على بوله.
على الفور صفع المعلم عبد الرسول على وجهه. ساد فزعٌ مخيف، جرى عبد الرسول، تبعه أبوه، لحقه، زنقه على الحائط، كال له الضربات، سال الدم، زعقت عزيزة: كفى. ما هدأ المعلم، انكمش الشقيقان الآخران مذعورين أمام بكاء عبد الرسول: «آه يا أمي».
ـ أمك! يا ابن الحرام.
ـ أنا لست ابن حرام.
ـ أنت حفيد الساحر العايب.
إثر هدوء حلّ بعد ساعة والجميع في مكانه، أخرج المعلم من كيسه فمنح جزيلا لمحيي الدين وعبد الصمد، ثم وجه تحذيرا شديدا لعزيزة: «الكلب سيلزم هذه الغرفة ثلاثة أيام لا يخرج، لا ماء ولا أكل. لو علمتُ أن أحدا قدّم له لقمة فوقعتكم جميعا قطران. ولو شعر بعطش فأمامه قلتان من بولي».
يحب المعلم أبناءه، وإن كان لا يملك قدرة توزيع أنصبة متعادلة بقلبه، عمّقها استياؤه من عبد الرسول بسبب لمسه حقده على إخوته. ندم طويلا على شتيمته وضربه، لكنه أطال العناد وخاصمه أسابيع، كلما سالت طيبة بقلبه، ذكّره عقله العنيد كيف أن ولده قد رد عليه وصاح بوجهه. كعباءته طوى قلبه على غضبه، الحليم الغاضب ريحٌ زاعقة.

مضت الأيام، تكرر غياب عبد الرسول أياما لدى أمه وأخواله، لم يجرؤ ثانية أن يرد على أبيه بعد ما ناله من ضرب وتأديب عنيف. في إحدى مرات التوبيخ تدخل الشيخ حسن الأعرج محاولا الإصلاح، ومهدئا من تلميذه المعلم العنيد ومؤدبا برفق لعبد الرسول، وشارحا له كم يحبه أبوه، وأن القسوة دليل على التطلع لأن يكون الابن أفضل من الجميع. ثم اختلى بالمعلم وأسرّ له: «روحك مركب لها رُبانان، واحد يجدف بغضب ويوجه بصراخ، وآخر يمسك الدفة بمحبة. استفد من الاثنين، طالما أن أحدهما لم يغلب صاحبه بعد. ارفق بابنك، لا تجزع. كلٌّ ميسر لما خلق له، وإن شاء الله سوف ينصلح حاله».. قبل أن يغادره الشيخ حسن، دهمه بالزيارة الضابط الفقي ثقيل الظل، ابتزه، ومضى مع وعد بعودة قريبة كئيبة.

جلس المعلم يفكر: إلى متى يستمر الابتزاز، يكفيه قلقه من أفعال عبد الرسول، وأمر سنوات طويلة مضت على هروبه تخيل أنها انتهت بقلقها واضطرابها. حدثته نفسه: «سننتهي عمّا قريب، وتبقى أحلامنا، أحلامنا قطيع خراف، وراعيها عاداتنا، تأكلها النظرة السيئة وتُغذيها عادات طيبة فتنضج عزائم الناجحين. كما التعب أفضل من نوم الكسل، فإن مواجهة الخطر أفضل من الجلوس بذعر التحنن إليه وملاطفته وإنشاد سلام زائف معه».

قرر أن يضع حدا للابتزاز. والسؤال هو كيف؟ هل يجرؤ على مواجهة يهدم بها ما بناه من بيت وأولاد وذكريات لمجرد رفض الخضوع للابتزاز؟ حركه عقلٌ أسيوطيٌّ عنيد، وأجلسته غربة خوف على الأبناء لو انكشف سره. كم نصير جبناء بخوفنا على الأبناء. يُخبرنا أولادنا أن لدينا ما عليه وبه نخاف. تأمل نخلاته الثلاث والريح الغاضبة تطوح جريدها. للحظة شعر بأن نخلة منهن سوف تُطيرها

الريح، ابتسم: «انظر كم دوّت بأذنيك ريحٌ، ودق طبلٌ رأسك، ولم يُزحزح أساسك».

بعد صلاة الظهر أتاه رسولٌ من عند محمد أفندي مظهر يطلبه، لم يتأخر فقد مرت فترة منذ آخر لقاء جمعهما. زاره ببيته.

ـ أين أنت يا معلم؟ لا حس ولا خبر ولا سؤال عني. انتهت الأعمال فتغير حال الأصدقاء.

ـ العفو، بل لا أحب أن أُثقل عليكم.

عرف من المهندس أن شيخ الجامع الأزهر «حسن العطّار» وهو من هو، قد أُعجب بقبة مسجد القلعة الخضراء، واندهش لما علم أن صانع ذلك البلاط هو فخراني مصري.

ـ قد حكيت له عن شغفك بالعلم وارتباطك بابن عربي، فطلب رؤيتك.

ـ رؤيتي أنا؟

ـ يا معلم، كفاك تجاهلا لقدرك. أنت صاحب علم.

ـ أنا حتى لم أرتق لدرجة طالب علم.

ـ أنت قرأت كثيرًا.

ـ قرأت بعض الكتب لأخفف ظلام جهلي.

ـ أنت من بركات هذا الزمن.

ـ ما أنا إلا صانع فخّار على باب الله، وشغفي بالعلم من باب المحبة وسد بوابة فراغ لا أكثر. أين لمثلي أن يجالس مثل شيخ الجامع الأزهر، ومقامه عالٍ!

ـ لكني أعتذر منك، فقد حدثته أن معك نسخةً من كتاب ضخم لابن عربي بخط أحد تلامذته.

ـ لا اعتذار بين أصدقاء، أنا خدامك، هو بخطي أنا فقد نسخته كله، وعموما أنا تحت أمرك وأمره. متى أشرف بذلك؟

ـ خير البر عاجله، نلحقه بصلاة المغرب في المسجد الأزهر.

في الطريق حدّثه المهندس عن الشيخ حسن العطار: «أصله من المغرب ومولود بالقاهرة، ابن لعطّار فقير شغوف مثلك بالعلم، كل صباح يصحب ولده حسن لحانوته في «بين القصرين» فيعلمه التجارة وصنوف العطارة. لكنه كان طفلا حاد الذكاء. قد حدثني عن نفسه أنه كان يغار حينما يرى أقرانه يترددون على الأزهر لحفظ القُرآن والدراسة، فذهب من وراء أبيه خفيةً معهم؛ فحفظ القُرآن في مدَّة وجيزة، وعلم أبوه بأمره فأعانه على التعليم، وألحقه بالأزهر، فجدَّ في تحصيل العلم على كبار العلماء والمشايخ، وظهر نبوغه وغزارة علمه وتنوُّع ثقافته في زمن قصير، فمكنه ذلك لتولِّي التدريس بالأزهر. لم يكتف بالعلوم الدينية، درس الهندسة والرياضة وتعمَّق في دراسة الفلك، واستفاد من علماء حملة الفرنسيس وتعلم منهم، وزار أوربا ويُرغي بالألبانية والفرنسية».

ذاب المعلم داخل جلبابه الواسع خجلا وتواضعا أمام الشيخ العطار طويل القامة، واسع الصدر، يميل للسُّمرة وذو لحية خفيفة، هل شعر بأنه التقاه قبل ذلك الزمان بزمان؟

ـ أهلا بالابن البار النابغة وبضيفه الكريم. أنت المعلم المهدي الفخراني؟

ـ واحد من خدمك يا مولانا.

ـ أستغفر الله، بل ضيف كريم.

ـ يا سيدي، كلنا ببيت سيدي ضيوف.

أبرقت عينا الشيخ من جملة المعلم، أطال النظر، قال:

ـ هذا كلام العارفين.

ـ أنتم العارفون، من تعلموا فعلّموا، وأتتهم الإمامة، وهم أهل لها.

ـ من أين يا معلم؟

ـ من فضل الله.

ـ ونعم بالله، أنت من أي البلاد؟

لأول مرة لا يجد المعلم نفسه في حلٍ من إجابة السؤال العويص، فهو يتحرى الصدق في كل أقواله، ولا يليق به التعريض أو المداراة بإجابات عامة عائمة لا تشفي غليل السائل ولا تفك شجون المسئول. فهو بحضرة شيخ الجامع الأزهر.

ـ من بلد سيدي جلال الدين رحيق العلوم، أنا من أسيوط يا مولانا.

ـ أسيوط بلد الطيبين، جبال الكرامة وصخرة المقاومة، صدّت زحف الفرنسيس، وأذلتهم عند بني عدي. سيدي جلال الدين شيخنا وإمامنا. هل كرهت سؤالي؟

ـ لو كرهت لسكتُّ متجنبًا الكذب، لأنْ أسكت خير من مداورة لا تليق في حضرة العلماء.

رفع المهدي بصره، لأول مرة منذ دخوله يواجه عين الشيخ حسن العطّار، قال لنفسه: إني أعرفه. تنبه والشيخ يسأل:

ـ وما حكايتك مع ابن عربي؟

ـ في ليلة أضاءت بيتي أجزاء الفتوحات المكية لأنسخها بالأجر، فملكت عليّ نفسي، ومن وقتها تزاحم مناماتي.

ـ الفتوحات؟ أم صاحبها الذي خطب بين يدي رسول الله ﷺ؟

سُرّ المعلم، وعلم أن الشيخ العطّار له من الذوق الباطن كما له من علم الظاهر.

ـ اللهم صل وسلم وبارك عليه. يا سيدي، أخاف لو حكيت الحكاية.

ـ الحكاية طيبة من عنوانها يا معلم، هل لي أن أطّلع على النسخة التي معك؟

ـ آتيك بنسخة هي لكم لو تقبلونها هدية، لعلها تُثقل ميزان من لا شأن له مثلي لديكم.

ـ يا معلم، هل التقينا قبل ذلك؟

ـ الشيخ يقرأ ما أفكر فيه.

ـ من أي قرى أسيوط؟

ـ من أبنوب الحمّام.

ـ لقد عشت سنة هاربا في الغنايم.

ـ بالغنايم أخوالي.

ـ لقد آواني أهل الغنايم وعشت بينهم.. أنت؟

ـ أنا..

ـ الولد الذكي.

ـ وأنت هو.. أنتم يا مولانا، الشيخ حسن الذي علّمني فك الحرف، وأوقفني على الطريق، أنا عبدك يا سيدي.

وقف محمد أفندي مظهر يراقب ولا يصدق عينه، ولا يملك كف دموع جرت وهو يشاهد اندفاع المهدي ليقبل يد الشيخ العطار، والأخير يحتضنه كوالد ويدافع البكاء صائحا وينقلب لسانه الفصيح العربي للهجة صعيدية خالصة: «سبحان ربي، مصير الحيِّ يتلاقى، جبلٌ على جبلٍ ما يتلاقى، وابن آدم مع بن آدم يتلاقي».

بقية الجلسة كانت الحكايا تندفع من صدر المهدي، لأول مرة يتكلم، حدّثهما عمّا جرى في الصعيد، وعن رحلة الهروب. قال: «ما عُدت غريبا وأنا معكم، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبلطفه تهدأ نار في قلوب يغطيها رماد».. في صلاة المغرب من

اليوم التالي، كان المعلم في الصف الأول خلف إمام الجامع الأزهر، سلمه الهدية، فانشرح الشيخ العطار لحسن خطه. تكلما كثيرًا عن ابن عربي، وشرح له العطار ما خفي عليه وغمض. وأذن له الشيخ بالزيارة بعد أسبوع في بيته.

عرف المعلم كيف أن القلوب بين أصبعين من أصابع يمينه، يقول المعلم: «وكلتا يدي ربي يمين». فأكمل بقية حكايته من «طق طق.. لسلام عليكم»، وتكلم بمرارة عن الضابط الفقي المبتز، وسأله:

ـ هل عليّ دية دم لسقوط قتيل في معركة الغنايم قبل أكثر من عشرين سنة؟

ـ اللهم صل وسلم على من أمرنا بالدفاع عن النفس، وجعل المقتول دون عِرضه وأرضه شهيدا. فاعلم يا ولدي، أن الذي نجّاك من الكرب لم يكن ليتركك، ولسببٍ ما فكّ وثاقك وآواك للجبل وأيدك بكلام من راهب، وربط مصيرك ورحلتك بكتاب عظيم، تأليفه أتعب صاحبه وفتح عليه طاقات العداوة، وصبر فكان فريد عصره ووحيد زمنه. بل لم يأتِ من بعده من فاق علومه وكشوفه. وأنت مكلف بأن تحمل الأمانة وتفتش عن سبب كل ما جرى لك، وما يريده منك مولاك الذي أطعمك من جوع وأمّنَك من خوف. ما جرى من معركة فلا عليك منها غير ما أصابك من كرب يلازمك لليوم، وأما الضابط الظالم؛ فسيكفيك الله همّه. أين أنت يا ولدي من قوله تعالى ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وأين أنت من اسمه الحسيب، لو فهمت كلام شيخك ابن عربي، لالتزمت الحق، والحق سبحانه كفيل أن يمنع عنك شر الخلق. أنا أستطيع بعون الله ثم بكلمة واحدة أن أُبقيه بعيدا عنك، بل أنقله لساحات القتال المفتوحة؛ لعلها تغسل آثامه.

لكني لن أفعل إلا إذا بلغ أذاه مبلغا، وطلبت أنت مني ذلك. وأما أنا يا ولدي، فأتساءل عن السر الذي ساقك إليّ؟ والسبب الذي من أجله التقيتك بعد كل تلك السنين؟

ـ هو حظي يا مولانا ودعائي المتواصل بكشف الكرب، فو الذي رفع السماء بلا عمد، إن جبلا قد انزاح من فوق صدري لما حكيت قصتي. وما إن تكلمتم حتى سُكِب فوق قلبي بردٌ، وعانقتني سلامة وطُمأنينة.

ـ لا إله إلا الله، أقول لك: لقد رأيتني أمشي في جنازتي، وجواري ابن عربي يقول لي: «يا ساكن الفخّار، عليك بصانع الفخّار». قلت: الذي خلقني من فخار ربي سبحانه. فقال ابن عربي: «صانع الفخّار صاحبي ويحمل عني، فاسمع منه، وخذ عنه قبل أن تؤدي أمانة الكلمة».

انتهى العطار من قص رؤياه وإذا المهدي يبكي بنحيب وصدره لا يكاد يستقر كقدر يغلي. هامسا:

ـ أمري لمن أنشأني.

ـ يا ولدي، ساقك الله إليّ، وجعلني بانتظارك، والأعمار بيده سبحانه، وأعلمُ أني لن أموت قبل أن أقول ما يعتلج داخلي، لعل الله يشرح لي صدري. إن ما وصلك وصلني بعضه، وإن ما وصلني وصلك بعضه.

ـ انصحني.

ـ بل منك النصيحة أبلغ.

ـ ما قدر الله يكون، فلا تؤخر كلمة حق إلى الغد، قبل ألا يكون يومٌ ولا غد.

ـ وأنا أشير عليك، أن تتفرغ تماما لرحلات ابن عربي، فلم يتتبعها

أحدٌ فيما بلغني قبلك. أكمل ما بدأت، وسيكفيك الله هم الرزق، بعد أن بلغت من صنعتك مبلغا ضمن لك أن يسوق الله بك وإليك رزق غيرك من عمال وأُجراء مساكين، ولا تبخل عليهم.

ـ بقي أمرٌ يا سيدي، لا أخجل في مكاشفتكم به، وأرغب في نوال نصيحتكم فيه.

ـ خيرا إن شاء الله؟

ـ أولادي.

وحكى المعلم عما يعانيه في تربية عبد الرسول، وحبه له وخوفه عليه ومنه. قال العطّار:

ـ إنك لن تسع الناس كلهم بوقتك، فخُصّ أهلك بنفسك وفراغك، لا لوم عليك في ضربه ولا تأنيب، لكن الضرب المستمر لا يُقوّم عمودا مائلا، والتعنيف الشديد قد يكسر النفس. ارفق به وبنفسك. ودع الإصلاح للأيام. فما قدّرَ الله يكون.

ـ الله غالب.

ـ يا ولدي، إن لكل منا حظا وسهما من الأحزان، فلعل نصيبك منها في الاهتمام بولدك. أنت ذو حظ عظيم، غيرُك لم يُرزق من الأساس بولد، وغيرك رزق بولد مريض. لو عددت مصائب الناس حولك، علمت أن ما بك هيِّن.

ـ سيدي، أشكركم وأخاف عليكم، فإن أداء الأمانة خطير.

ـ وواجب.

ـ نعم.

ـ يا ولدي، تعيس من يقضي حياته متجنبا كل نقد، أو متحاشيا أي مديح، خائفا من كل ذي سلطان. من يقفون في الظل يموتون في الظل، لا يحنو عليهم ظل أو تهتدي لمكانهم شمسٌ.

ـ بارك الله في عمركم.

ـ كلنا بالنهاية سوف يغادر من بوابة خلفية. السعيد من يصل لحقيقة الرضا، ولا يعنيه المديح أو اللعنات.

لم يعرف المعلم كيف رد من دون تفكير ولا تدبر:

ـ ينفطر قلبٌ لينشرح روح.

قال العطّار: في حياتنا ثمة شيء وحيد ينبغي القيام به، السعداء من يفعلون ذلك، المحظوظون من يهتدون لمعرفة ذلك الشيء الوحيد، فينشرحون. نُولد كما ملائكة ونكتسب بشريتنا من رفقنا ببني آدم، ونُصر على طهارتنا رغم الذنوب، ونبكي ملتزمين بيوتنا مغلقين علينا أبوابا تقي الريح ولا تمنع الطوارق. يا بُني، شكرا لزمان ساقك إليّ، قد كفاك الحق شر كل طارقٍ، فأطرق رأسك تذللا وامتنانا بين يديه.

بوابة الحياة

قد تلذذتُ حِقْبةً بأمورٍ لو تدبرتُها لكانت خيالا

رتب المعلم دولابه الكبير، واستأجر ثلاثة من أمهر الصانعين وضعفهم من الصبيان، وجلس يشكر مولاه ويسبحه باسمه الحسيب، فمرّ عليه رجلان من الصعيد يبحثان عن عمل، ولم يكن عنده لهم من عمل ولا بكيسه مال ليتصدق عليهم، فقال: «شمِّروا واحفروا لي حوضا كبيرا للطين»، وأطعمهم من طعامه. سأله عبد الرسول متبرما ومتعجبا:

- إنك لست بحاجة لحوض كبير.
- ولكن الرجلين بحاجة لعمل.
- ومن أين ستدفع لهم؟ إنك وضعت كل ما معك في الطين وخشب الحريق ومصاصة القصب والألوان للطلبية الجديدة؟
- ومن أين دفعتُ للطين والخامات؟
- مما كان معك.
- ليس معي غير ما أنا في معيته، ولا تدري من المرزوق؟
- نحن أولى بما تبعثره من مال.
- الزم الأدب، المال مالي والرازق الله.

استغرق الصعيديان في حفر الحوض أسبوعا ويزيد، ولم ينالا غير طعام ومأوى بالدولاب. ثم انتهيا، فأمرهما المعلم بردم ما حفراه. تعجبا وتعجب كل من في الدولاب، وزاد غضب عبد الرسول. فقال المعلم: «أنا صاحب الدولاب والأمر فيه إليّ. وكلنا حرٌ فيما

يملك».. مر أسبوع آخر في ردم الحوض، وكان مساء الخميس والكل ينتظر أجر أسبوعه. فجلسوا ينتظرون نظير عرقهم من المعلم، والمعلم ليس بجيبه خردلة فضة. والصعيديان يُلحان باستحياء، معتذريْن بأن عليهما الذهاب لقريب لهما في روض الفرج وجد لهما عملا.. فكّر لو استدان من فلان أو فلان. همّ ولم يفعل، وقام عازما على الاستدانة، وقال: انتظروني على القهوة بعد صلاة العشاء. وزعق لعبد الرسول فمشى.

مضوا وبقي ينتظر الأذان في دولابه. اطمأن ألا أحد منهم معه. مشى مهموما لدولاب جاره وهو يعلم سلفا أنه ضيق ذات اليد ومديون له شخصيا. رجع فوقف على مكان الحوض المردوم، وجلس، ثم قام، فهوى ساجدا على ترابه وباكيا: «الدولاب ملكي، وأنت الملك الذي تكفل بالعطايا، وأنت تعلم أنه لم يكن من حاجة للفحت ولا للردم؛ فدبر لي فإني لا أُحسن التدبير، أنت الرازق أبدا وأنا الفقير».. لما سجد على التراب، شعر بأن مساوئ نفسه تنسحب منه، شعر بأن الأرض تقول له: دع لي الهموم. ما إن قام حتى أحس بضوء يغمر جسده، وينتشر بأوصاله، أن هالة رقيقة من ضوء ساطع تلتصق كعباءة.. والذي حدث، أن تاجرا سكندريا وقف ينتظر المعلم الساجد على التراب ويحسبه يصلي. فكان فرج الله الواسع.

ليس لغريق أن يسأل من أين جاءته قطعة خشب واندفعت له من بين الأمواج.

في طريق نزوله للمقهى التقاه ولداه عبد الصمد ومحيي الدين، فسُرّ وابتسم لهما، فتبعا بغلته. وتكفي شياطين الجان استعاذة، وأما شياطين الإنس فدائما بالمرصاد في الوقت غير المناسب. إبليس لا تعوزه شهوات. فقبل أن يصل المعلم إلى القهوة ليلتقي عماله ويدفع

لهم أجورهم، كان بانتظاره في الطريق قاطع طريق برتبة ضابط ظالم كم ابتز المعلم وأهمّه. انتظره فوق صهوة فرسه مع ثلاثة من الجند غير بعيدين يراقبون قائدهم. أحسّ المعلم بذعر ولديه، أشار لهما: لا تخافا.

أسر المعلم: «حسبي الذي هو حسبي».

ـ يا معلم كل عام وأنت بخير.

ـ وأنت بخير يا سيدي.

ـ العيد على الأبواب، فقلت: ليس لي غير صاحبي.

ـ ليس لنا جميعا غير الله.

ـ ونعم بالله، إذن الله ساقني إليك لتبعث للجزار، فيرسل لبيتي عجلا أو خروفين، فإن عليّ نذرا. هل يرضيك ألا أوفي النذر؟

ـ ما على الفقراء من سبيل، وبعض النذور شرور شياطين.

ـ المهم، أيضًا كنت في حاجة لمبلغ بسيط، بسيط جدًّا، فقط ريالان من الفضة، الآن.

ـ كل ما معي سيكفي بالكاد أجر عُمّالي.

ـ يمكنك إرجاؤهم.

ـ أعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه.

ـ يا صعيدي، أنت تلف وتدور وأنا على عجلة من أمري. ففي الصباح يجب أن أقدم للضابط الكبير كشفا بأسماء من قبضت عليهم من لصوص وقتلة وهاربين منسحبين من خدمة مولانا. ما رأيك؟

ـ رأيي أن تتقي الله، وألا أرى وجهك ثانية.

نزل الضابط بغضب من فوق فرسه الشامخ، جذب المعلم بعنف من كتفه، أنزله من فوق بغلته وكاد أن يقع. كان المشهد على عين

العمال المنتظرين على القهوة وبعضٍ من أهل مصر عتيقة، فانتشر الرعب، وسطا دخان قلق. جذب الضابط المعلم من قفاه، صرخ عبد الصمد، وأسرع محيي الدين يدافع عن أبيه، فرفسه الضابط فأوقعه. هنا انفجر المعلم، فأمسك يد الضابط، سحبها بهدوء وحزم، وضغط عليها، قال: «لقد تعديت كل حد، الصعيدي قتل من أجل أهله، ولأجل ولده لا يتردد في القتل ثانية».. في مشهد غريب كحكايا الخِضر وسريع كلمح بالبصر، سيحكيه أهل مصر عتيقة وينقلونه للأجيال: مصري فقير يضغط على كف ضابط متين الجسد والأُبهة، فيصرخ الضابط ويتركه المعلم ويرفع يده ويشير بسبابته لفوق، وقد قبض بقية أصابعه، ثم وجه سبّابته للضابط، ونقر برفق على صدره نقرتين قائلا: اذهب ولا تَعُد. قَدَرُك ما تستحق، قدَرُك مقدارك الضئيل.

يقول أهل الفواخير: إن الضابط ابتعد خطوات قبل أن يتوقف ويصرخ ممسكا بصدره، فيسقط ميتا. قال الجنود وقد فرُّوا: «إن الفخراني قتل الضابط». عادت سرية كاملة من الجند وساقوه للقلعة، وقد أَسَرّ لولديه وهما يتشبثان به، وأوصاهما أن يُطمئنا أمهما، ويقولا لها: «كلها أيام».

ما فعله المعلم مع الضابط كان كحصاة رُميت في وسط بركة ماء ساكنة، أحدثت موجةً، فموجاتٍ دائريةً، ضخمتها بلاغة الحكّائين الشعبية، حتى وصلت شاطئ جموع الفقراء ممن يفتشون عن بطولةٍ ما يواجهون بها صلف الحكام عبر مئات السنين. صار المعلم المبروك رمزا.

تناقلت الحكايا وبالغ الناقلون، كلامنا كطعامنا لا بد من بعض التوابل والمبالغة في الدسم أو الفلفل أو جوزة الطيب حسب ثقافة الطباخ المتحدث وذوق السامعين. قيل في حارات مسكونة بالتفتيش

عن بطل، وعلى دكك مقاهٍ يطيب لها حكايا أبي زيد الهلالي وخوارق الأولياء: «إن المعلم رجل مبروك مبارك، ووليٌّ نافذ السر، من أراده بسوء فقد أعلن الحرب على السماء، فمن عادى لله وليا فقد آذنه الجبار بالحرب. إنه في دولابه يقهر الجن ويسلسل الشياطين، إنه وريث الفخراني الولي أبي السعود الجارحي». تناثرت الحكاية وزادت وزُيِّنت: «إن المعلم أخرج بيده قلب الضابط، وتفل فيه، ثم رده لصدره من دون نزف قطرة دم واحدة، فأصابه ما أصابه».

سحبت عزيزة أباها البصير الذي يعلم عن صداقة المعلم بشيخ الأزهر، وقفا يرجوان الشيخ حسن العطّار. قال العطار: «انتظرا بالبيت، صاحبه لن يغيب بإذن الله».. مع عصر اليوم التالي كان المصريون محتشدين حول بيت المعلم يطلبونه للتبرك، وأقسموا عليه أن يركب فرسا مزينة بالأوشحة الخضراء، حولها رجال يحملون بيارق بيضاء وخضراء وسوداء. ظل يشكرهم ويعتذر إليهم، حملوه وطافوا به الطرقات من بيته وحتى مقام السيدة نفيسة. وهم يهتفون «لا إله إلا الله، المهدي حبيب الله».. قبّل الناس يده وأكبروه، بكى بين أيديهم واستحلفهم أن يكفوا. بعد العشاء أقيمت ليلة على نفقة أحد الأعيان، واصطف المنشدون فأتموا بُردة البوصيري.. لزم بيته لأيام خائفا مما جرى، ليس بسبب موت الضابط وحبسه وتنقيب الناس عن أسراره. بل الخوف كان مما اعتقده فيه الناس، وجد أنه قد يصير فتنة، وهو الذي كان يتجنب المبالغة في التبرك بالأولياء، صار التبرك بلمسة من يده أو دعوة يطلبها منه أحدهم. فقرر الاعتزال لفترة. وفي البيت حكى المعلم لأول مرة كل حكايته لعزيزة وأبيها وأولاده الثلاثة، قال: «ما عدت خائفا ولا هاربا. وسآخذكم لنزور بلدي قريبا».

تجربة الحبس تسوق لنا من الحِكمة ما لا تعلوها تجربة. هناك ندرك ونحن منفردون وحيدون، أنه لا أحد غيره ينفع، ولا شيء دونه قريب إلينا، وليس كمثله شيء. رأي المعلم حياته كلها أمامه، وعلم أن عليه إبلاغ ما بدأه ابن عربي من إظهار الحق الباطن، وتوصية الخلق بالأمن في ظل الحق، فنشط في سيرة شيخ العارفين.

بكى المعلم وهو يتلقى بالأحضان زائرين كريمين، الشيخ العطار ومحمد أفندي مظهر. قال: إن الزيارة أسعد من الخروج من الحبس. شكى للشيخ العطار ما جرى من الناس، فطمأنه: «ما ليس لك فيه يد فلا تنزع منه اليد، مُدّها للمحتاج، اشرح للجاهل، وارفق بالمسكين. لست تدري أين البركة؟ ولا إلى أين تنتهي إرادته سبحانه؟».

أخبره الشيخ العطار: أنه ينتظره في بيته ليتكلم عن ابن عربي وحكايته معه أمام جماعة من كبار المشايخ. بعضهم يشكك في التواصل بين الأحياء والأموات، بل إن منهم من ينكر أساسا ولاية ابن عربي ويتهمه بالزندقة.

ـ وأين أنا من علمكم يا مولانا؟ إن لم يقتنعوا برؤيتك، فكيف يصدقون رؤاي ومناماتي واعتلالاتي؟

ـ أنت أضعفت نفسك في جناب القوي المتين، وهو يوضع سره في أضعف خلقه، فأضعف الخلق هم أقوى الخلق، أهل الحق الذين يستصغرون أنفسهم في جنابه، فيُقرون بضعفهم، وهم أقوى الكائنات لو يعلمون.

ـ يا مولانا..

ـ أنت تحمل رسالة، لا أحملها أنا ولا غيري، رسالة اختصك بها الكون وأودعك إياها روح طيب، فلا تكتم عِلما قد ينفع الناس ويعودون به للمحبة والحق، وقد أدركت العلة من الاختلاف والخلاف؛ فوقفت ووُفِّقْتَ لمدارات الأفلاك.

ـ على عيني، سأحضر كما تأمرني، وأرجو أن أكون فيه من الصابرين.
ـ موعدنا ليلة الجمعة، فيوم السبت عليَّ أن أؤدي ما في صدري من أمانة للحاكم.

في ليلة الجمعة قال المعلم وقال، فصدقه بعضهم، وجادله البعض. وتجنب الرد ما استطاع. وضمر أحد الحاسدين ممن يترقب خلو منصب شيخ الجامع الأزهر ويكره صاحب الدار أكثر مما يحقد على المعلم، ثم سأله مباشرة:

ـ إذن أنت ترى أن الله فينا، وعليه فالخلق هم الحق، كما الحق موجود في الخلق.
ـ يا سيدي، معاذ الله. أنا لم أقل هذا.
ـ لكنك تؤمن به. ألست تقول بحلول الخالق في خلقه، واتحاد المخلوقات مع ذات الخالق؟
ـ وأيضا، لم أقل ذلك وما اعتقدته.
ـ إذن أنت جاهل بشيخ المارقين ابن عربي. يا فخراني، دع العلم لأصحابه.
ـ يا سيدي، ابن عربي لم يقل بالحلول ولا بالاتحاد. بل قال نصًّا: «من قال بالحلول فدينه معلول، وما قال بالاتحاد غير أهل الإلحاد».
ـ وتكذب أيضًا؟
ـ سامحك الله.

التفت الشيخ الحاسد لصاحب الدار: يا شيخ عطار، جمعتنا لأجل رجل جاهل من الدهماء، يرى منامات ويردد كلام زنديق، وهو لا يعلم أبعاد ما يقول، ولا ما قاله الزنديق الأكبر ابن عربي؟

قال العطار: رب صانع فخار فقير أعلم من عمائم فوق أجساد أصلها من طين.

ـ هذه إهانة يا شيخ.

ـ بل أنت من أهان ضيفي وصديقي. تُنكر خفيا لا تعلمه، من أجل أن تعلو بظاهر تقف عند قشوره. إن الاقتراب من السلطان لا يزيد من العلم شيئا.

ـ بل إنك لمّا فقدت حظوتك عند مولانا الباشا، أردت أن تقدم له عرّافا يضرب الودع ويتنبأ بغيب لا يعلمه غير الله، لتنال من ثقة مولانا.

فكر المعلم لو يقول لهم زاعقا، وقد تذكّر ما لاقاه من غربة وهروب وخوف على يد جنود الباشا، بغضب كتم في نفسه وقال لهم: «لأن أموت بين فقراء غريبا، خير لي من أن أحيا بالقرب من مولاكم الباشا. إنما مولاي ووليي الله مالك الملك».

قال العطّار: ونعم القول يا ولدي، إن للفقراء ملكوت السماوات، ومن يبيع دينه لأجل رضا حاكم فهو كعلماء بني إسرائيل.

زعق الضيف الحاسد: أنت تُعرض بي يا شيخ؟

ـ أنا ما قلت إلا ما رأيت. وأنت فوق رأسك بطحة.

نظر الغاضب لبقية الضيوف: هل تسكتون على هذه الخزعبلات والبلايا والزندقة والإهانات؟

من الحسد الخفي ما تمنى حرق ما بطن من علم.. نظر المعلم وقد بدا مسكينا في نفسه، كبيرا لدى العطار. تأمل كل ما جرى من كلام، تعجّب كيف أن كلماتنا درجات سُلّم عليها نرتقي، وبنفس الكلمات قد نسقط دون درجات نفس السُّلّم.

أداء الأمانة

كلنا أصحابها، لكن بمواعيد. هل نحنُ إلا أوراق شجر تحن للخريف وتخشاه. كلنا واقف منتظرٌ دوره، والمنايا تترصد أصحابها

كل صباح، فتدهمهم أو تكمن لهم نهارا وتطرقهم في الظلام. في ذلك الصباح البعيد حمل العطّار حمولا من رسالات المظالم، وهموما من نصائح حق. فاجتمع بالوالي محمد علي باشا منفردين في قلعة الجبل اجتماعا لا يعلم أحدٌ ما دار فيه، غير أنّ بعضا ممن التقى الشيخ بعدها رأى في وجهه نورا وحزنا. ومن دخل على الوالي رآه مُغضبا على عكس المعهود من هدوئه.

تبقت للشيخ حسن العطار صلاة مغرب في فرائض الدنيا، أداها جماعة إماما هادئا باكيا في قراءة جهرية، وبعد ختم الصلاة ما كان له في دنيا الخيال غير جسدٍ حمله المصريون وطلبة العلم صباحا في جنازة مهيبة، سار فيها المعلم مبتسما رغم أحزانه، متعجبا من هول ما رأى، فجاء كما رأى.. هل رأى جواره ابن عربي يسير في الجنازة؟

كل ما ذكره المعلم في هامش مخطوطه، أنه لمح شيخا في زي مغربي طويلا يميل للسمرة، يقول جواره: «قد وصل العطار للحقيقة، بعد أن أدى الأمانة. سبحان من أمضى سننه وأنزل أمره من أفلاكه، إنه لا يُصلحُ العطّارُ ما أفسد الدهرُ».

كتب المهدي على هامش مخطوطه:

«وقد لبَّى نداء ربِّه الكريم سنة ألف ومائتين وخمسين للهجرة، الموافقة سنة أربع وثلاثين وثمانمائة وألف للميلاد، وحُمِلَ إلى مثواه الأخير في جنازةٍ مهيبة. فسلامٌ على الإمام العطار في الأوَّلين والآخِرين، وسلامٌ عليه يوم يقومُ لربِّ العالمين».

شتاء ١٩٨٠

بالتسامح نعبر جسر الحياة. التسامح يفجر الطاقة مثل شلال، ينعش زرع القلب بشمس وماء، يبقينا شبابا عنيدين على الأحزان، التسامح يجعلنا متقبلين مواقف الآخرين، التماسنا الأعذار يغسلنا

من الكراهية. وبالحب نعيش، بالعشق نعالج جروح الزمن. أخيرا أحس زين بها، باهتمامها به، عرفها قبل سنوات في الجامعة ولم يتجاوزا مجاملات الصداقة. تزوجت وانفصلت بعد سنة واحدة، قررت الدراسات العليا، ومرّ زين بكل ما مر به وخرج يريد البدء من جديد.. في ذلك الشتاء جلسا على النيل بحجة مراجعة بعض أفكار بحث مشترك، المشترك بينهما اكتشفا أنه كثير، بلا مقدمات لمس يدها، قبّلها، أراد الحياة، وأرادت.

ـ دعينا نتفق.

ـ أعتقد أننا متفقان.

ـ ألا ننبش في الماضي.

ـ ماضيّ أنت عرفت عنه المختصر، وحسبنا أننا هنا والآن سويا.

ـ نحن أبناء اليوم.

ـ نحن أبناء اليوم.

ـ أحبك.

ـ لست أخجل لو قلت لك: إني أحبك منذ أول لقاء يا زين.

غابا في قبلة، ونهر اشتياق يضرب عنيفا يشتاق إلى مصب. الحياة تتفتح ورودها حينما نترقب حنو الشمس على تلك الورود، لو عشنا نتغزل في الغروب سنبقى عالقين فيه. لا يمحو هجر حبيب غير وصل حبيب، ولا ينفع للحياة غير إعلان محبتنا للحياة. في الليل كتب زين لنفسه نصيحة غالية: «أفكارك السابقة أوصلتك لحالتك اليوم، إلى أين تريد أن تصل في الغد؟ أفكار اليوم هي حقيقتك في الغد وواقعك».

مَدَد

في دولابه قرأ سورة الكهف. نام المهديُّ متعجبا من حكاية الخضر

وموسى. بعدها تَقَيّل ساعةً وقد انتصفَ النهارُ، فرأى «الخضر» يأخذُ بيده، ويمشيان فوق أمواج عظيمة، ثم تركه وهو يقول: «النبت السيئ يأكل زرع الصالحين». قام يتفكر في رؤياه ويكرهها رغم أن فيها بشارةً بولايةٍ من الخضر. سرح في صبيانه، كيف أن محيي الدين الصغير ابن عزيزة مرتبطٌ بعبد الرسول ابن الفلاحة، الأخير يسيطر عليه، وأحيانا يدفعه لما يستوجب التأديب والتعنيف من المعلم. وكان النهار خماسينيا عاصفا حينما وقف الصبيان على رأس البئر أمام الدولاب.. هل دفع عبد الرسول شقيقَه محيي الدين فسقط في البئر؟ ما نقله أحفاد المهدي من آل عبد الصمد، أن عبد الرسول صرخ ودخل إلى الدولاب: «محيي الدين في البئر، سقط، سقط لوحده، أنا ما دفعته». هبّ المعلم مسرعا، وقضاء الله أسرع.

من أين تأتينا البلايا؟ هل بلغت به ولايةٌ فكُشفَ له غيبٌ؟ أم جُنّ فدهمه وهمٌ ولبسه جنونٌ؟ استقر بظن المهدي أن عبد الرسول شيطان، نبتُ سوء، بذرةٌ غيرُ طيبةٍ، أصلُها مسحورٌ، وطلعُها فاسدٌ. فكر لو يقيم الحد، تألم، فكيف تذبحُ يدٌ كفّها؟ وانذبح. قعد والحزن يسري بجسد معتل، قال: «ليست الحدود بالظنون».

جدّوا في طلب عبد الرسول، لم يجدوه. هرب. لم يعد المهدي قادرا على الهروب من وجه عزيزة، هل قال صمتها: «إن نزواتك قتلت ولدي، شهوتك ذبحتني، وعنادك وزواجك بنتَ الفلاحة. لشدّ ما لاقيتُ منك. كم أنت ظالم».

ذات مساء، وقد ازيّنت المحروسة للمولد النبوي، كادت عزيزة أن تلقي التهمة مباشرة عليه، نهرها بعجز وتردد. بكت، ناحت، صرخت فنادت: «يا محيي الدين، يا بني، قتلك ابن الحرام، باعك أبوك. أبوك اشترى الذئب وأمك ربته. يا محيي الدين يا صغيري، الزبد في الخبز الساخن كما تحبه، تعال، أين أنت؟ يا ابني، يا كبدي،

يا ضناي.. حلاوة المولد بلا حلاوة، الحصان الحلاوة يبكي على فارسه، يا نور عيني».

هرب من وجهها، لم يعد يحتمل. قبل أن يصل إلى باب البيت، أقعدته مفاجأة، صرخ، سيخ من لهب يشق صدره، فيسري الخدر بكتفه، وبذراعه يفتك الألم. أحسّ أن يدا قوية اخترقت قفصه الصدري، قبضت على قلبه، تعصره، تلويه، تدق فوقه، فيتداعى ظهره من لهيب الوجع، هوى. تنبهت عزيزة وأفاقت وندمت، فلحقته بشربة ماء. جاء الحكيم، سقاه شرابا ساخنا من بذرة كتان مغلية ومخلوطة بصفصاف. مكث بالفراش شهرين، أيقن أن اللقاء اقترب.. من ساعتها، في أيام كبر المهدي سنوات، لو تمشّى من غرفة لغرفة لهث، كم قال باكيا: «ذبحتني يا ولدي».. سكت وسمع روح عزيزة يسأل دون صوت: «أي ولدك تقصد؟».

صار كلامه بكاءً ونداؤه استجداءً. عزيزة ما تركته، الحزينة رفقت بالحزين. حتى عبد الصمد ما عاد ضاحكا كعادته.. في ليالٍ طويلة كان عبد الصمد يراوح السهر بين فراش عزيزة يُواسي نحيبها، وبين مقعد أبيه يقرأ عليه من كتاب الله.

كل ليلة قبل الفجر، يقوم المهدي، ينادي على عبد الصمد، يرجوه أن يقرأ عليه سورة يوسف. يستجيب عبد الصمد. وأحيانا يُسرع بالقراءة إذا رأى أباه نائما فيُخطئ، فيقوم المهدي، يصلح له ويقوم لسان الصغير، ثم يعود نائما، أو يشرح له ويأتيه، على الرغم من الأحزان، بحكايا غريبة في كل آية.

زاره محمد أفندي مظهر، وأوصاه بالعمرة لبيت الله الحرام والمكوث هناك انتظارا للحج. نشطت عزيزة وأعدت العُدّة حتى ألحقته بركب حجيج. بكى ونشيجُه نشيدُه: «لبيك اللهم لبيك»..

قيل: إنه على ظهر السفينة المتوجهة إلى ميناء جدة، رأى المعلم المهدي ابنه محيي الدين يمشي فوق ماء البحر، وعبد الرسول يلاحقه ممتطيا ظهر حوت عظيم. هكذا حكى المعلم لرفاقه، وأنه يجب إنقاذ محيي الدين. حكى ذلك ثلاث مرات لأصحابه فوق السفينة.

مغلفة في أماكن مجهولة ومغطاة بالعقول هي الذكريات التي لا نريد لها أن تنمحي، ننساها، عند الموت ينفتح كل مُنغلق وينكشف كل غطاء ويقترب البصر أن يكون حديدا. تُطوى المسافات، وتلمع أسرار ما فات من أجل أن يرفق بنا ما هو آت.

هل رأى المعلم قريته كما هي أيام الصبا، فرتّل من جزء عمّ بين الصبيان في الكُتّاب؟ هل ناول أول معلم عمل معه في الفخار قطعة طين ملفوفة؟ وهل قبّل أمه عن يمينه، ومسح أبوه عن شماله رأسه؟ تبسمت أمامه عمته، والتف أخواله يرقصون بالعِصيِّ، وأشار له الخضر ماشيا فوق الماء.

في عصر يوم الاثنين التاسع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ألف ومائتين وإحدى وخمسين للهجرة الموافق للثامن والعشرين من سبتمبر سنة ألف وثمانمائة وست وثلاثين للميلاد، زعق ركاب السفينة وهم يهرولون باتجاه المعلم الذي وقف على سور مقدم السفينة يُسبح ربه كعادته، فانزلقت عصاه، وطاح في البحر. هل سقط أم ألقى بنفسه؟

في المعادي، استيقظت عزيزة على صرخة عبد الصمد محموما عطشانا يطلب ماء. ناولته واستعاذت بالله من البلايا بعد أن جسّت جبهته، فهالتها الحرارة. وشهر توت يبخل بالنسمات، وبدأت تباشير الفيضان بخوف الناس على الأراضي المغمورة. سقت الصغير وترحمت على أمه وأحست أنها تنظرها مبتسمة، وحكى

لها عبد الصمد: «رأيت أبي يسبح في النيل وينادي عليّ، يأمرني أن أشرب من مائه الغامر».

مسّها ذعر، ولولت قائلة: ويلٌ لمن يرثون الرؤى يا بن المهدي. وكسمكة أسرها خُطّاف صياد اضطربت عزيزة، شعرت دونما سبب بأن ثمة روحا ينازع جسدا. هدّأتْ عبد الصمد وغسلت وجهه بالماء، ولأول مرة منذ رحيل محيي الدين تبتسم قائلة: «لا خير في نيلٍ يأتي في شهر توت. لا تقلق يا صغيري، إن الملائكة تحرسك».

وقال بعض رفقاء السفينة: إنهم شاهدوه يمشي فوق الماء يرتل بسورة الواقعة، حتى غاب وراء الموج. وقال آخرون: إن ما يقوله الآخرون محض خيال. وإن ذلك الحاج الذي صحبوه وعرفوه باسم المعلم المهدي مجرد رجل مجذوب تلوح له خيالات وأوهام، ومجنون.. وكثيرون قالوا: إنهم ما رأوه ولا صدقونا.. فهل من الأساس نحن حقيقة؟

آخر ورقة بالكراسة الثالثة بالمخطوط جاء فيها نقلا عن روح يتكلم:

«دمشق الرقيقة والقوية، حاضرة الياسمين وغِمدُ السيف، روائح الأمويين أينما حللت، وآثار رد الصليبيين عن الأسوار نقشٌ على الجدار، شوارع مضاءة بالفوانيس، ومساجد عامرة بالعلم ومجالسه. بها سرٌّ لا يُفشى، يُعلم ولا يُصاغ، يُحسُّ ولا تخطُّه أقلام، مثوى الصحابة وثرى الصالحين.

في الصالحية شعرت أن هواءها العليل يقول لي: «إن ها هنا تختم رحلتك، والماء العذب يسبح بحمد مولاه». جئتها، فرحب بي ملكها المعظم عيسى بن العادل أيوب».

لعلك مررت في الفتوحات بحكايتي مع المسيح عليه السلام، الذي رأيته في فتوتي وبمناماتي، ولم ينبت وقتها بوجهي شعر، فعاتبني على اللهو. وفي الصباح كنت أقرأ عن فضل الشام وخير دمشق، فقلت: إن الإشارات تعبر الرؤى. فأضمرت وجهتي من يوم خروجي قبل سنوات من الأندلس، فقصدت بيت الله الحرام لأؤدي الفريضة، وفي قلبي تنبض دمشق، حيث ينزل عيسى على مئذنة الجامع الأموي.

منذ اختلائي بنفسي في الشام، شعرت كم أنا في نعمة لا تصفها الكلمات، وتضيق عن بثها المفردات. هناك تشعر بأنك على بوابة حُمّى من يفيق من طول ترحال سفر في مرض، ومرض في سفر، عمري أحسبه بكلماتي، وكلماتي رحلاتي، كل خطوة على الطريق تأخذ بيد قدمك لأختها.

جلست أخاطب روحي، فرمت لي الريح من حروف علية علوية، ونشطتُ للكتابة، وتسربت المعاني لجذور النفس، فوجدتني في توحدي مغمورا بالأنس، وفي محلي شممت العطور، وترقبت هطول الأمطار. كان مرأى الجبل العظيم عظيما، سفوحه تكاد تنطق، وأنا أكاد أهطل كغيمة.. نفسي ترتاح لمرآه، شعرت بطويل أرق سهر سنين، حلمت أني أنام في ثراه مرتاحا، قيل: إنه على ذلك الجبل قتل ابن آدم آخاه، فلم تنبت شجرة لمئات السنين، ثم جرت الأمطار وأينع السفح، هل آن أوان المحبة؟

هنا تزدهر التجارة، قبل مجيئي قيل لي: إن الشآمي تاجر ماهر بالفطرة، كل الأجناس والملل تبيع وتشتري وتتبادل. لماذا يوحدنا المال وحبُّه؛ فننسى الكراهية، ولا يجمعنا كون الإنسان هو حامل

أمانة المحبة؟ آهٍ لو تسطع بنا المحبة كما تضيء أسواقُنا بالدراهم والبضائع!.. في الشام ستجد قلوبا رحيمة، وستصادف عقولا رحيبة، وأخرى صلبة كجبل شاهق لا ترى غير نفسها. فيها سمعت من ابن الحرستاني، الفقيه المحدث المفتي، هو من أفقه من لقيت، وبحضرته علمتُ أن كل علمٍ لا يُريك غدا لا يُعَوَّلُ عليه.

جاءني أن الشام هي مستقر الرحلة ومثوى الجسد؛ فسكنت، ونشطت لإنجاز ما أنا مهيأٌ له.. جنة الشرق ومطلع نور شمسه، عروس المدائن، شرُفَتْ بأن أوى إليها المسيح وأمه، فسكنا ربوة ذات قرار ومعينٍ سلسبيل. هناك تأملت، فوجدت أنه لما كان القائلُ له مِزَاجُ الانفعال، كان للنَّفَسِ الإطفاء والإشعال. فإن أطفأ أمات، وإن أشعل أحيا، فهو الذى «أضحك وأبكى» فيُنسب الفعل إليه، والقابل لا يُعَوَّلُ عليه.. لولا نَفَسُ الرحمن، ما ظهرت الأعيان. ولولا قبولُ الأعيان، ما اتَّصفَتْ بالكيان، ولا كان ما كان. الصبحُ إذا تنفَّس، أذهب الليلَ الذى كان قد عَسْعَس.

هل أقول لك إني بعد رحلة طويلة مجهدة تمنيت الخلاص والوصول واللقاء؟ وأن يكتشف الناس حقيقة الدين، دين الحب والرحمة والمرحمة.. *يا صديقي، أنتظرك على الماء رعاك الله.*

أنا الراوي

ويقول الراوي يا سادة يا كرام، ولا يحلو كلامٌ إلا بالصلاة على بدر التمام.

أقول أنا زين العابدين بن أحمد بن محيي الدين بن حسن بن عبد الصمد ابن المهدي، ورثت الحكمة كابرا عن كابر، وذقت الشفافية وراثا عن وراث، وصحبني الشك في العقل ناقلا عن ناقل. في هذه الساعة ملكت من نفسي كثيرًا من التسامح، ودق

قلبي بكثير من العشق؛ فقررت أن أسرُد حكاية المحبة، وأستمر فيها وبها بالمحبة. فما نكتبه بمحبة روح يُفجر فينا ينابيع حكمة، ويُجري أنهارا من تأملات..

اليوم أطرد كل وهم وأعترف بالحقيقة.. فما الراوي إلا أنا، وما أنا إلا الراوي. أنا صديق «أنا». بالحب عالجت نفسي بنفسي، وبالتأمل عُدت لديني وذقت جوهره ونسخت بخطي الجميل:

ومـا «أنت» ذاتـي لا، ولا «أنـا» ذاتكم فإن كنتَ لي عينـا فلا تُبـده الآنـا

المعادي، أمشير، ٢٠١٦

حكاية فخراني

في سرد يفيض روحانية شفافة، تتتبع وقائع هذه الرواية سيرة آل المهدي، ومؤسسها الجد الأكبر المعلم المهدي الفخراني. يخوض حفيده «زين العابدين» رحلة مثيرة في أغوار نفسه لتدوين سيرةِ جَدِّه الأكبر منذ خروجه من أسيوط في زمان غابر، فيقع بين يديه مخطوط عجيب... «سماعُ المعلم لروحٍ يتكلم» عنوان ذلك المخطوط المدهش، «وفيه ما لا يُصدَّقه عاقلٌ، وما سوف يلعنُ أساسَه كلُّ كافر بالفلك وحساباته».

يطّلع الراوي على المخطوط دقيق الخط بديع النقش، ليفاجأ بحضور الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي، وسيرته المدوَّنة وارتحالاته بين الأمكنة، بكامل حمولاته الإنسانية والروحانية، وتجليات تجربته الصوفية، وفيوضات فتوحاته المكية.. تتداخل خطوط السرد بين «حكاية» فخراني و«سيرة» ابن عربي، ومن حكاية تتوالد حكايات، ومن سيرة تتناسل سيرة وهكذا.

«حكاية فخراني»، رواية تستجلي أسرار الضعف الإنساني، مكتوبة بمجاهدة فنية عالية، تسكن قلب قارئها، وتطوف بعقله أشباحُ التاريخ وخيالات الجغرافيا وسحائب روحانية صافية.

محمد موافي: كاتب ومذيع الأخبار بالتلفزيون المصري. صدرت له رواية «سِفر الشتات». وله دراسات صوفية ولغوية وديوان شعر تحت الطبع. كتب عدة أعمال درامية للإذاعة وعمل بصوت العرب والبي بي سي. وحصل على عدد من الجوائز في الكتابة الوثائقية.

دار الشروق
www.shorouk.com